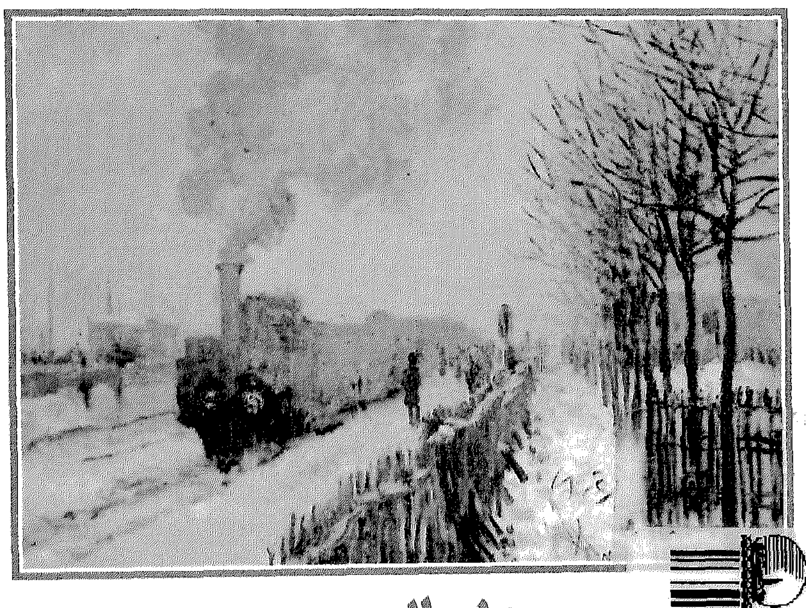
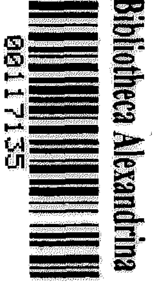
جمال الغيطانى

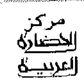
دنا فتدلى





دفاتر التدوين

الدفتر الثانى



مركز
الحضارة
العربية

ما إن فرغتُ من تدوين سعيى إلى استحضار الإناث اللواتى لم ألحق بهن ، ولم يتحقق حظى منهن إلا عبر الخلسات العابرة الجالبة للشجنة ، الحاضة على استنفار كوامن نائية والتنبيه إلى لُحيظات يستحيل الوصول إليها أو بلوغ مثواها .

تواترت علىّ الرؤى ، وتجاذبتنى آفاق شتى ، لكن أينما وليت تراءت لى القاطرات ، مقبلة ، مدبرة ، منتظرة ، شارعة فى الرحيل ، فوق الجسور ، بلوغها المحطات النائية ، مفارقتها الأرصفة ، عند التهدئة إيذاناً بقرب الدنو، عند الإسراع شيئاً فشيئاً طلباً للطى وتجاوزاً للفوت ، الدمدمة الصادرة عن الطاقة المحرضة ، التوثب إلى كل مُتاق ، عند عبور الفواصل القضبانية ، فلكى تتصل المسافات ويصح التمدد لابد من مسافات صغيرة فارغة تستوعب انكماش البرد وقلقلة الحر ، فما نراه جامداً ، ثابتاً ، إنما تدركه عين الحركة ولو أمره من حديد ، متواليات محسوبة ، مسبوقة بقياسات دقيقة ، عند المد فى الصحارى الخالية أو خلال المدن المزدحمة ، نهاراً وليلاً ، شمس متألقة أو غادية ، أضواء دانية أو كاشفة ، متاحة لكن يصعب إدراكها .

القطارات مقبلة ، مدبرة .

القرب بُعد ، القرب وعْد ، الدنو يخفى ، النأى يكشف ، لا يرى المسافر إلا ما بَعُدَ عنه ، أعـمدة البرق المتشـابهة ، المفردة ، الوحيـدة رغم اتصالها ، تضطرب فى نظر المسـافر لحظة محـاذاتها ، تفلت إلى الخلف إذ يتـجاوزها القطار فتتضح ، ألا تبدو البيوت المستقرة قرب الأفق أكثر وضوحاً من تلك المطلة على الخطوط أثناء الاندفاع وطى المسار ؟

ألا يشبـه ذلك وضع الإنسان ، لا يرى نفسه إلا عند تمام انفـصاله ، عن وقته ، عن موضع ارتبط به ، عن قوم أحبهم وأحبوه ، كل اكتمال من تضاد أو مفارقة ، لننظر إلى صلته بصوته ، لا يصـغى إليه وقت النطق ، يستوعبه بعد الفـوت وإذ يجىء من الخارج ، عندمـا يستمع عـبر الآلة يبدو غـريباً ، مبثوثاً ، كأنه صادر عن آخر .

أصغيت مراراً عـبر مراحل العمر إلى نَبْرى ، رصـدت تغيراته ، ولمحت بدايات الوَهَن ، وكـمـائن المهاوى ، ورفـرفـات الأسينة المعـكِّرة للصفـو ، الجالبة للمسغبة ، للقبـضة عند اكتمال البسط ، هذا حديث يطول ، لم يحن أوانه بعد ، لكننى أتساءل لعلّـى مُصغٍ إلى من يدلنى .

هل ثمة صلة بين أكوان الإناث والقطارات ، لماذا أوقن عند إقبالى على التدوين كـأنى لم أنفصل قط عـن دفترى الأول ، حـيث الإناث اللواتى لم أدركـهن إلا بالمخيلة ، ولم أتوحـد بهن إلا بعـد اجتـياز الممـرات الضوئيـة داخل الذات .

القطارات الأنثوية ، أنوثة القطارات ، التـرابط ، التـواصل ، التـوالج ، القيـام ، الوصول ، العبـور للمركبـات ، للبشر ، أى صلة كـامنة ، زاخرة ،

أيهما يتحقق بالآخر ؟

لا شيء عندى معادل للزعقات المنبعثة ليلاً ونهاراً ، المنبعثة كل وقت ، القريبة ، القصية ، المقربة بين ما لا يمكن جمعه ، الطاوية للمراحل ، تلك الزعقات استثارت أقاصى حنينى ، أصبحت حنيناً فى مجملى وكافة تفاصيلى .

سفرى بالقطارات ، الرحيل عندى ما يتم بالقطار ، لا العربات ، ولا الطائرات ، ولا السفن ، الكبير منها والصغير ، مرأى العربات المحاذية للأرصفة ، من محطة إلى أخرى ، قادم ، صاعد ، مفارق ، هابط معاً ، لا أبلغ المعنى الذى لم أُوفق فى التعبير عنه حتى الآن إلا بتمام قصدى ، القطار .

ما من بلد نزلته بعد بلوغه جواً أو بحراً إلا وسعيت إلى قطاراته ، التدقيق فى الفوارق ، لا أكف عن المقارنة ، جعلنى الله من أهلها ، القادرين، المتمكنين منها ، فما دمت قادراً ، مطواعة لى ، فإن سعيى مطمئن، وألَقى أتم ، المقارنة بين قطار وآخر ، بين سفر وسفر عندى مرجعى .

أحتوى محطة البداية ، أتمكن من القبض على لحيظات التوثب ، الأصل عندى لكافة ما عرفت من طُرز مختلفة ، ذلك المتجه إلى قبلى .

قطار الصعيد عموماً ، الثامنة صباحاً تحديداً .

آوانى نطفة بين صلب أبى وترائبه ، ثم جنيناً فى رحم أمى عندما قصدت جهينة لتلدنى ، فصبياً لائذاً بأبيه وأمه ، ثم رجلاً مكتملاً يسعى ويحاول بلوغ الأقاصى والإلمام بالخفى المستعصى .

الأسبـاب شتى ، والفصـول متوالية ، لهـذا صار مرجـعي ، وإليه اللواذ دائماً والقياس ، منه اللحيظات والصور الباهتة ، وتلك الجلية .

إليه التوق ، والرغبة فى الإدراك ، وطرح التساؤلات وتعدد الإحاطات ، والحيرة ، لذلك كانت الدمدمة ، والإضافـات ، الموقدة ، المؤججة ، المفضية إلى توثبات شتى ، مسـتدلاً بالإشارات اللواحـة على ما كـان وما يمكن أن يكون .

***

أقدم التساؤلات

"امبارح راح فين ؟"

"لماذا نفس الجهة فى كل مرة ؟

لماذا لا يتجه القطار إلى الناحية الأخرى ؟

ماذا يوجد هناك فى بحرى ؟"

أما السؤال الأول فمُنبعث منى ، صادر عن ذاتيتى ، قديم عندى ، أما الاستفسارات الأخرى فمصدرها القطار ، حضّ عليها واشتقّها ، من هنا لا أعتبره للسفر ، إنما مصدراً للدهشة والعجب .

تمسك أمى بيدى من ناحية ، وبيد والدى من جهة أخرى ، منحنية ، متطلعة إلى الفجوة ما بين الرصيف وعتبة الاجتياز ، رغم محاذاتها وضيقها فثمة حذر دائم متعدد الاتجاهات ، أن تزل قدم فتنحشر ، أن يتحرك الساكن، الرابض فجأة ، انحناءة أمى انتقلت إلىّ ، صار كل عبور عندى يقتضى خشية .

ذات ليلة شتوية قال أبى إن مسافراً سقط بين الرصيف والقضبان ، لم يلحقه أحد والقطار إذا بدأ لا يتوقف ، ما بين الرصيف والعربات ، فارق محدود لكنه فى توقيتى الأول كان بمثابة هوْ غامض ، يهدد الأعمار ، مصدر لآلام مجهولة ومخاوف لا تفسير لها عندى ، رغم خشيتى أختلس النظر حيث نثار الزيت والماء والزلط متساوى الأحجام ، موثق لما بين القضبان ، يحجب الفلنكات الماسكة بعضها عن بعض ، المُتلقِّى الأقرب لأصداء العجلات وشررها المتطاير ، وطيها الوقت .

إمكانية الاختيار وقتئذ بين المقاعد مُتاحة ، الزحام نادر خاصة فى محطات البداية ، يتجه الوالد إلى مقعدين متواجهين من خشب لونهما بنى فاتح ، الدرجة ثالثة ، جدران رمادية ، سقف أبيض تتخلله مصابيح دائرية تبدو من خلال أغطية زجاجية شفافة .

نوافذ مزدوجة ، زجاجية داخلية ، "شيش" خارجى ، لا أذكرها مغلقة رغم الإمكانية المتاحة إلا مرات نادرة ، رغبة التطلع إلى الأفق الدائرى عند المسافرين أقوى . ربما لأن وعيهم بوجودهم المؤقت المحفوف بالمخاطر ، متحرك ، مرهون بقطع مسافة ، إذا حادت العربة مقدار شعيرة تقع الكارثة، لذلك يقيم كل منهم الصلة بالنظر مع الكينونة الأفسح مدى ، لعل وعسى !

يحرص أبى ألا يجاورنا أحد . أمى إلى جوار النافذة ، شقيقى محمد يتوسط ما بينها وبين أبى، فى المواجهة إسماعيل وأنا . يضع الوالد .. قفة .. يشغل الفراغ الذى لم يملؤه حجمى الصغير ، وإذا جاء مسافر وتطلع ورغب ، يقول والدى مبدياً النفاد ..

"الكراسى الفاضية كثيرة .. كل منهما مقطوع له نصف تذكرة .."

ألزم السكون عادة ، حركتى مقلقة ، أمى تحذرنى ، الانتقال يثير انزعاجها ، أحرص ألا أغضبها ، أطلب رضاها عنى ، لذلك أظل أتمنى الوقوف إلى جوار النافذة طوال الرحلة ، والمشى بين المقاعد ، والنظر فقط ، مجرد النظر إلى الباب المؤدى إلى العربة التالية . أسكت وأتمنى تحرك القطار عكس الاتجاه الذى يمضى إليه فى كل سفرة

جرس

صفير

صفير نحيل ، قصير فى البداية ، يليه آخر متصل .

طشطشة يعقبها كركبة منتظمة ، تعلو ، تغيب ، ترجع .

تتراجع العربة إلى الوراء ، مسافة محدودة تشير إلى فك الكوابح الرابطة ، إلى التوثب ،

تحتك المصدات الفاصلة .

يبدأ تراجع الواقفين ، الأعمدة ، المظلات الساترة ، الباعة ، الحمالين ، المفتشين ، المخبرين ، الحراس ، الجذران ، تبدأ مفارقة العجلات للقضبان وديمومة التصاقها بها أيضاً ، وتلك صلة من الأمور الدقيقة التى تشغلنى وتراودنى فى خلواتى حتى الآن ، ذلك أنها تحتوى على إجابات جمة لتساؤلات شتّى ، لكننى لا أقدر على الإمساك بها وتصنيفها وتحديدها ، ذلك أن العجلات ملاصقة للقضبان ، مصممة بحيث لا تفلت ، تلزمها ،

تتبعها أينما اتجهت ، غير أن الغرض لا يتم ولا يكتمل إلا بالمفارقة ، وبقدر سرعة مفارقة العجلات للقضبان يكون الإتقان وسرعة الانتقال ، لكن .. لنتنبه ، فتلك الصلة مشروطة ، إذ لو جرى انفصال تام يقع المحظور، ليتم القطار رحلته لابد أن تمتزج حركة العجلات والعلاقة بالقضبان ، عجلات مرسلة ، مدفوعة بالطاقة ، نافثة للحرارة ، قضبان متمددة ، متلقية، ثمة فاعل ومفعول لاجتياز المكان وقطع الوقت ، لابد من اكتمال الضدين واتحادهما لتكون حركة .

تتراجع الجدران والأعمدة الحاملة والساعة الدائرية ، والحقيقة أن كل شيء ثابت ، مؤصل ، ونحن الذين نتقدم إلى الأمام ، نمضى ، بكبكبات البخار المتتالى ، المندفع ، المتوتر ، المنطلق بحساب وتقدير ، ينتظم الإيقاع فوق فواصل القضبان فى البداية قبل اندماجه مع تزايد السرعة ، أتطلع إلى المشاهد المتوالية ، تدركنى حيرة ، يتجه القطار إلى عين الجهة ، متى يتحرك إلى الجانب الآخر ، إلى بحرى بدلاً من قبلى ؟ يمسنى أسى غامض ، يؤطر صمتى الذى جُبلت عليه ، لا أعرف مصدره أو منابعه ، ذلك أننى لم أكن قادراً على تفسير ما يحيرنى ، لكننى بشكل ما ، كنت أعى ما يصاحب كل تحرك وما تعنيه النقلة من موضع إلى موضع وما يتضمنه الأمر من فراق أكيد مهما وثقت من مباهج تنتظرنى . وفى زمن مبكر صار ذلك عندى من الإشارات الموثقة بعد محاولتى استيعاب ما جرى لشقيقى محمد .

***

يبدأ رحيلنا بعد عبور البوابة المؤدية إلى ميدان بيت القاضى ، عندما نصل إلى موقف الحافلة رقم عشرين ، أمام دكان عم بيومى الحلاق الذى

يسكن الطابق الثـالث من بيتنا فى حـارة درب الطبلاوى ، تبـدأ الحافلة من هنا وتنتـهى عند سراى القبـة ، لكنها تمر بميـدان باب الحديد ، ركـوبها أول إدراكى للسفر ، إنها الخطوة الأولى إلى القطار .

ذلك الصبـاح الباكر ، الهـادئ ، توقف شقيـقى محمـد ، بالضبط تحت البوابة ، التفتت أمى إليه ، ثبت قدميه فى الأرض ، تطلع صوب قبة قلاوون مذعوراً ، مرجـوفاً ، قاوم محاولتها جـذبه ، نهرته ، بكى ، وعندما لاحظت رعشته ، مالت إليه .

"مالك يابنى .. بسم الله الرحمن الرحيم .."

شـعره بُنى فـاتح ، نحيل ، جلبـابه مخـطط بلون طحينى فـاتح ، تراجع أبى، دائماً يمد الخطى ، ودائماً تطالبه أمى بالتمهل ، قال :

"شيليه .."

فَرْفَط بقدميه ، بكاء غامض ودمع مريـب ، ملست كتفه براحتها ، دفس دماغه فى باطها محاولاً ألا يرى ما عجزنا عن مشاهدته ، كان بكاؤه حاداً ، متـوالياً ، وعندمـا تجاوزت العـربة قبـة قلاوون صـمت ، فى القطار انزوى كامناً، لائذاً بجـانب أمى ، لـم تكف عن الطَبْطَبَة عليـه ، والتمتمـة بكلمات غامـضة ، قرأت الفـاتحة والصـمدية ، لعلها تطرد المس ، أو تهدئ الكرب الخفى .

رحت أرقبه صـامتاً وعندى خشيـة لا تفسير لهـا ، كنت أعى وجود أمر ثقيل لا أعرف كنهه ، ثمة تربص قديم ، ولم أعرف ما ينبغى أن أفعله . غير أننى فى لحظة تالية لتحرك القطار من محطة العياط ، وتوارى النخيل المتزايد

في كثافته كلما اتجهنا جنوباً ، فارقت مكاني وعبرت المسافة الفاصلة، ملت عليه ، قبلته ، احتضنته وقد كنت مشاكساً له ، مستفزاً له ، وحتى الآن أرى طلّته صوبي ، لم يبق منه عندي إلا محاولة التراجع تحت البوابة ، وتلك الطلّة ، هذا الاستسلام الهادئ، المطواع ، البصّة المدركة لما يصعب رؤيته بالنظر ، طلّة أثق من انطباعها داخلي ، ومثولها عندي لحظة خروجي من الفندق إلى مبنى المستشفى الأمريكي بكليفلاند النائية ، يوم تقرر إجراء الجراحة فيه لقلبي ، وهذا ما فصلته في تدويني "الخطوط الفاصلة" .

هذا ما يَمْثُل منه عندي الآن ، وقفة وطلّة ، في إطار اندفاع قطار الجنوب، لزمن طويل ستذكر أمي اندفاعتها تلك ، تحكيها لجدتي ، لخالي ، لجارتنا أم كاميليا ، تستنتج الدلالات وترصد معالم العبر والنبوءة ، ولسنوات طوال سأستعيد ملمس شعره الجعد ، واستكانته التي انتقلت إليّ، وأتألم إذ أذكر همود ملامحه ، وعلامات نضج مفاجئ ظهرت . بدأ تداخله في بعض ولم يفك ، لا في رحيلنا ، ولا عند بلوغنا جهينة ، ولا في أيام إقامتنا ، واحتفاء الأقارب بنا ، ولا عند ركوب قطار العودة من طهطا، ولم تكف أمي عن النظر إليه ، ونطقها السؤال :

"مالك يا ولدي .. إيه اللي شفته ومش قادر تقول لي عليه ؟؟"

عند عبور فناء المحطة والوقت ليل ، سرت الرعشة منه إلى أمي ، اضطرت إلى التوقف والصيحة .

"الحقني يا احمد .."

لكن .. بمن سيلحق ، ومن سيتصدى من ؟

أى قدرة له على دفع هذا الارتجاف المتوالى : بعد بلوغنا البيت لم يخلع الوالد ملابسه ، قصد الشيخ عطية فى حارة الميضئة ، حمل معه جزة من شعر أخى وقطعة من جلبابه ، نظر إليهما الرجل ، قرب الأثر من أنفه ، قرأ التعازيم الكاشفة والعبارات المؤدية ثم توجه بالسؤال .

"سفر ؟"

يومئ أبى ، يقول الشيخ :

"إنها المحطة الأخيرة"

ثم يقول :

"إذا طلعت عليه شمس الجمعة فلا خوف عليه.. سيبلغ المائة بإذن الله .."

الوقت مساء الثلاثاء ، هرول أبى ، راح يجرى من عيادة الطبيب إبراهيم شحاته إلى أجزاخانة رقية أول الغورية ، إلى خضر العطار فى الحمزاوى ، طرق كل باب ، ونذر لإطعام فقراء الحبيب الحسين ، لكن التدبير جرى .

لزمت أمى الصمت ثلاثة أيام بعد أن خاطبته ممدداً ، هامداً وهمست له مطمئنة ، موصية بما يفعله وما يتلوه حتى يبدد وحشية الطريق ، "ما تخافشى يا حبيبى .. جدك معاك وروحى جنبك .."

ثم تقول :

"إنت مش وحدك .."

بعد أن حمله والدى على يديه لزمت الصمت ، وبعد ثلاثة أيام تساءلت
" لو أننا لم نسافر .. هل ..؟"

نهرها أبى محذراً

"يا ولية .. هذا أول الكفر .."

قالت إنه جذبها مرتين بقوة لا تتناسب مع عمره ، من ابن عامين . مرة تحت بوابة بيت القاضى ، والثانية عند ركوب القطار ، ليتها لم تركب القطار ، ليتها لم تسافر ، ليتها انتبهت إلى ارتجافه كعصفور بلّله المطر ، تصمت ، ولمدة ظلت تكرر التساؤل :

"آه لو أعرف ماذا رأى عندما شدنى إلى الوراء ؟ .."

***

فى البدء لم أعرف من أين يجىء ؟

فيما بعد سمعت عن مخازن القاطرات فى غمرة والسبتية ، ومع تزايد الزحام صار بعض الأشداء يقصدون المنبع ويحتلون المقاعد ليتنازلوا عنها للمسافرين مقابل أجر معلوم .

فى البدء ، كنا نجد العربات منتظرة ، الدرجة الثالثة فى المؤخرة وعند عودتنا من طهطا تكون فى المقدمة ، القضبان الخالية تمتد .. إلى أين ؟ ، تثير رهبةً عندى ، سيظهر فجأة قطار لا يمكننى دفعه أو الحيدة عن مساره . عند حد معين تختفى القضبان ، تتلاشى ، تصير إلى نقطة .

دائماً لمحطة مصر البداية ، وأيضاً المنتهى ، منها تتدفق القضبان ، الفلنكات ، المسامير الغلاظ ، الزلط المبثوث ، وحديد مصقول يميل إلى غمقة ، تلك المحطة منطلق إلى قبلى وبحرى ، عندما علمت بتسيير قطار

من اسكندرية إلى أسوان مباشرة لم أستوعب ، كيف تصير محطة مصر إلى وقفة عارضة مثل الوقفات الأخرى ، كيف تسبقها محطة ؟ إنها بداية المسلسل ومنتهاه ، حتى عند اضطرارى إلى الركوب من محطة الجيزة المهيبة، المشيدة على الطراز الفرعونى ، فبمجرد جلوسى على المقعد تكتمل داخلى المسافة ، كأنى جئت القطار من محطة مصر ، لابد لكل امرئٍ من مبتدأ ومنتهى ، حتى إن تلاشى فى الواقع الخارجى ، فإنه يظل ماثلاً عنده ، قائماً به ..



المواقيت

الشامنة . له الصبوحة ، وهدأة المدرج ، ونعومة الوصلة ، الشامنة ، لا أحيد عنه أبداً ، قطارات شتى لكنه يظل المرجع والمصدر ، أول موعد عرفت ولم أغيره إلا بعد بدء أسفارى المنفردة بمعزل عن الوالدين والأشقاء. ربما أكون سافرت نطفة بين ثنايا أبى ومسعاه ، أو بويضة تنتظر على وسائد رحم أمى ، بالتأكيد رحلت جنيناً فيه وبه . ذلك أنها غادرت البيت فى درب الطبلاوى لتلدنى قبل موعدها بشهر ، هكذا أطلعتنى فى زمن متقدم ، وهكذا روت لى فى أويقات صفوها ، وإضفاء حنوها علىّ ، والرغبة فى تلبية استفساراتى . أفضت إلىّ بتفاصيل شتى ولم تخبرنى عن موعد القطار لكننى أثق أنه الشامنة ، ذلك أنه الأنسب والأفضل للقاصد مسقط رأسى ، وموضع وفادتى إلى العالم المعاين ، يقف بالمراكز وهذا يعنى أن وقوفه بعواصم المديريات مفروغ منه ، الأصل هو الوقوف عند المحطات الكبرى : الجيزة ، بنى سويف ، المنيا ، أسيوط ، سوهاج . يلى ذلك المدن الرئيسية (المراكز) وهذا يعنى الوقوف عند طهطا أقرب المدن إلى جهينة التى تقع إلى الغرب ، عند الخط الفاصل بين الوادى والصحراء .

يمكن للواقف عند آخر بيوت ربع حسام الدين أن يضع قدماً فى الأرض الخضراء المزروعة ، والأخرى فى الصحراء ، إضافة إلى ثمن التذكرة الأرخص إلى طهطا بدلاً من سوهاج وأيضاً قربها النسبى ، فالقطار يطل فى الثالثة والثلث ، يتوقف تماماً بحذاء رصيف محطة طهطا عند تمام العشرين دقيقة بعد الثالثة ، يمكن الوصول إلى جهينة قبل الغروب . تقف عربة أجرة فى انتظارنا ، تهتز طوال الطريق ، يبدو لى القطار أكثر رسوخاً. أغفو ، تَمْثُل وجوه من الرحلة ، ركاب ، باعة ، نساء يتحدثن ، جندى يغفو. تهتز العربة ، أستيقظ متدفقاً بهدير ولظى ، القاطرة السوداء ، الذراع الحديدية المتحركة ، دخلة المحطة المهيبة ، صفير غامق ، إلى أين بعد طهطا ؟ الثامنة أنسب ، ملىء بالضوء لأنه يقطع النهار من أوله إلى آخره ، من صبحه إلى عصره ، معتدل المزاج ، متمهل ، ناعم الهوينا ، لا يتقدم جباراً ، مكتسحاً كافة المحطات عدا المديريات ، هذا قطار الثانية عشر ظهراً ، كلاهما قديم ، الثامنة والثانية عشر ، لكن الثانى أشهر ولذلك أسباب منها طيّه الأرض ، أسرع ، أقوى ، لا يتوقف إلا عند عواصم الحواضر وبالتالى يقطع المسافات أسرع لتزايد طاقته وشدته ، كل الطرق تُخلَى له ، المزلقانات تغلق قبل اجتيازه بمدة كافية ، لا يعير المحطات الفرعية أو تلك الصغيرة المهملة اهتماماً ، لا يهدئ من سرعته ولا يخفف من جبروته ، بالعكس ، إن الواقف فوق أحد الأرصفة . أو المطل من نافذة عند مروقه ليُروع باندفاعة جبارة ، نافثة بخارها ودخانها ، مُبدية حممها ، ساحبة خلفها المصائر كافة ، لا يتوقف الثانية عشر إلا بالحواضر الكبرى . إنه السريع ، إنه المفتخر ، لا يعير البلدة الصغيرة اهتماماً حتى لو صدم أحد أبنائها ، الحق على من دفع

بنفسه إلى طريقه ولا إثم عليه ، فوقفاته معدودة ، وقوماته محسوبة ، ومراحله بينة ، لذلك علق حنين أهل الجنوب به ، وتطلعوا إليه ، وصبوا إليه ، وتغنوا به :

"يا وابور الساعة اتناشر

يا مقبل ع الصعيد .."

فى تغريبة عمال التراحيل الفقراء وحنينهم إلى جنوبهم ، إلى أصل منطلقهم ومصدر إقامتهم وبدء منشأهم ، تدور أحلام السفر حول هذا القطار وليس غيره ، وقد عرف الأبناء منهم والأحفاد تغريبات أشق خارج الوطن كله . بدءاً من عقد السبعينات وما جرى فيه من أحوال فصلناها فى رسالتنا الموسومة "البصائر فى المصائر" ، سافروا إلى هنا وإلى هناك ، أقطار عربية وأخرى أجنبية ، وأدهشنى أن الحنين عندهم مرتبط ، متصل بالثانية عشر ، حتى أننى لقيت أحدهم فى قرية صغيرة جنوب بغداد ، شكا لى القيظ وجفوة القوم وبعده عن الولد والصحب ، وأصر على رفقتى . دعانى وحمّلنى الأمانة إلى أهله ، شاى هندى ، وقماش صينى ، وحلوى بالفستق، العجيب أنها عين الهدايا التى كان أبى يجتهد لتضمها قفة الزيارة التى نصحبها معناً إلى خالى ، إلى جدتى ، تحتوى على سكر ، وشاى ، وصابون، وبعض أمتار من قماش إذا تيسر الأمر ، علبة حلاوة طحينية ، هذا ما تمتلئ به القفة فى رحلتنا من القاهرة ، عند العودة إليها تزدحم حتى الحافة بأرغفة الخبز ، و"الفايش" وهذا معجون باللبن ومس من العصفر والسمن البلدى وملمس عذراء ، فلا يمكن أن تَقرب عجينته إلا بنت بنوت لم تمس بعد ، وإلا لن تتخمر عجينته ، ويؤكل الفايش بعد غَمْسِه فى اللبن

الساخن المحلى بالسكر ، فلا يماثله مذاق . وفوقه الملوخية الجافة ، والبلح المقدد ولهذا وقفة ، وطلة ، فأوانه مديد ، والحاجة إليه متصلة ، والمذاق متنوع ، إنه ثمر النخيل ، وللنخيل عندى منزلة عجب ، تنتهى الهدايا بالحمام المذبوح والاوز أو البط وتغطى بقماش جلباب قديم ، وتَعْلَق رائحة الطعام بالحاسة الشمية دهراً ، وتحدد الفواصل . وتعين الأوقات ، تماماً كأعمدة التلغراف آدمية الوقفة ، جمادية الصبر ، أبدية الصلّبة .

لا يناسبنا السريع ؛ أولاً لتوقفه فى سوهاج ، هذا يعنى مسافة أبعد وسعراً أغلى للتذكرة ، كما أنه يصل بعد الغروب ، فى مفتتح الليل . لا يؤدى الموعد بسهولة إلى جهينة ، الطريق وعرة ، متربة ، الأخطار لا تقتصر على الضباع الهائمة ، والذئاب السارحة ، والقطط البرية المتحفزة للقفز صوب الحشا مباشرة ، إنما هناك المطاريد ، يقطعون الطريق ويسلبون المارة حتى ثيابهم . وربما يخطفون الثرى منهم سعياً إلى الفدية . أما قضاء ليلة فى سوهاج فأمر مُكلف ، كان ذلك متاحاً للوالد وما زال عند تنقله فرداً ، لكن مع امرأته وعياله فصعب ، مستبعد .

فى العودة ، الموعد تمام الثانية عشر من طهطا ، نقف على الرصيف المقابل ، لكنه ليس المعنى فى أغانى الغربة ، لا يمت إلى قطار الحنين القادم من بحرى ، السريع ، البادئ دائماً من محطة مصر ، كل القطارات القادمة إلى قبلى عزيزة ، مبتغاة ، لكن .. تلك الماضية إلى مصر ، إلى الاسكندرية إلى حيث تمتد الخطوط صوب جهات أجهل وجهتها ، فلا تعنى إلا الرحيل غصباً ، الخلع قسراً من الجذور ، من البيوت والرحبات وقعدات الليل وأحضان الزوجات ، وحلاوة القرب من الأطفال ، القطارات الذاهبة

تعرف الأسى فقط :

زعق الوابور ع السفر

أنا قلت رايحين فين

حتغيبوا سنة ولا اثنين ؟

فلأقصر على تلك العاديات ، المسرعات ، المتجهات جنوباً ، السفر الحقيقي يقصد منبعاً أو مصدراً ، وما المدن الكبرى القصية إلا استثناءات حتى لو انقضى العمر كله فى نواحيها . لابد من تعيين وتحديد ، المرء تربطه دائماً صلة بالبقعة التى فتح فيها عينيه على الدنيا ، مسقط الرأس ليس موضعاً ، إنه مدخل المرء إلى الكون ومخرجه أيضاً ، إنه بدء التناقص المؤدى إلى اكتمال . لا يكون رحيل إلا بعد تمام .

ثمة قطارات أخرى لكن لم تقم بيننا وبين أحدها صلة باستثناء أبى ، الرابعة إلا عشر دقائق سريع حتى أسيوط ، بعدها يقف على المراكز مثل الثامنة صباحاً ، لكن وصوله بعد منتصف الليل ، وأحياناً يتأخر ، ربما لا يدخل طهطا إلا بعد الفجر ، الطريق بعد أسيوط كان مفرداً ، ذا اتجاه واحد، وعلى القطار أن ينتظر فى المحطات حتى تتم المقابلة ، ويتم تبادل أطواق الخيزران بين السائقين ، بما يعنى خلو الخط حتى المحطة القادمة ، ثمة قطار ليلى يتحرك فى الحادية عشر ، تطلع عليه الشمس عند وصوله إلى طما ، لكنه غير ملائم لسفرنا كعائلة ، بل إن ذكره كان يثير عندى نوعاً من الخوف الغامض لا أدرى سببه أو مصدره ، خوف غريب يدفعنى إلى الكف . لزوم الصمت . الإصغاء وخشية من التبدد .

سفر الليل لا يلجأ إليه إلا مضطر ، أو قادم من بعيد إلى بعيد .

من قال ذلك على مسمعى ؟

لا أدرى . لا يمكننى التحديد

آخر القطارات وأيضاً أولها إذا أخذنا فى الاعتبار تحركه مع طلة الفجر ، قطار الصحافة ، إنه يحمل الصحف إلى المحافظات الجنوبية ، ظهورها فى الميادين وصياح الباعة عليها مرتبط بوصوله .

فى حنينه المتصل إلى جهينة رحل الوالد بكافة هذه المواعيد . سافر فى الثامنة والثانية عشر والرابعة إلا عشرة والحادية عشرة والصحافة ، وما استجد بعد ذلك ، لكننا لم نعرف إلا الثامنة وجريه المتعقل ، المتزن ، بلوغه طهطا عصراً ، ولم أعرف خلافه إلا بعد بدء سفرى منفرداً . لذلك يتجه حنينى إلى هذا الصباحى العامر بالضوء ، القاصد مدن الجنوب بتؤدة معقولة ، تمدده كله فى النور . وكنت أظنه يبدأ ولا يتوقف أبداً ، غير ملم بنقطة انتهاء . دائماً العربات سارحة عبر الفراغ المزروع بالنخيل وأشجار الدوم والجميِّز والجسور المؤدية ، صفاراته الغامضة الشجية عند الاقتراب من المحطات ، سواء وقف على النقاط المحددة .. أو استمر بدون أرصفة ، أو تمهل يعقبه توقف هادئ ، متزن ، ثم إقلاع هادئ شجى ، وأحياناً لا يدركه القوم إلا بتراجع المرئيات ببطء يتزايد شيئاً فشيئاً . فيخيل إليهم أن الجبال تفوتهم والتلال والبيوت وأنهم وقوف يتفرجون والحقيقة أنهم هم المغادرون ، المبتعدون .

***

الأرصفة

للمـواقيت مـواضـعهـا ، وللأمـاكن مواعـيدها ، الـلحظة تعنى مكان ، وانفصـام العُرَى بينهـما يؤدى إلى عـدمٍ نجهله . للقطار زمن يتـحرك فـيه ، ورصيف ينتقل عنه ، فالأرصفة أماكن معلومة .

بداية ، نهاية ، طرق ممتدة ، محددة بعـلامات ، بنايات ، إشارات بعضها أحمر وأخـضر وأصفر ، وحواجـزحديدية ، وفواصل يسيـرة ؛ لضمان تمدد مأمون ، وتقلص بلا عاقبة .

أطواق مفـاتيح متصلة بالقـضبان ، تغيير المسارات ، تؤطر السـلامة ربما تؤدى إلى الكارثة ، تكوين ، متصل ، منفصل ، مسارات متشابكة ، متفرعة، من أهم معالمه . الأرصفة .

إنه الشـروع ، والمختتـم أيضاً ، حاوٍ لـلأول والآخر ، الوصول إلـيه أول خطوة فى المرحلة المؤدية ، والنزول إليه وملامسة الأقدام له يعنى الفراغ من قطع المسافة .

أرصـفـة محـطة مصـر طويلة ، متـجـاورة ، لابد أنهم بذلوا جـهـداً ،

وأحكموا القياسات ؛ حتى يصير الأمر إلى هذا التساوى ، وتلك المحاذاة الدقيقة بالقطارات .

إنه الحد الفاصل بين حركة وسكون ، رسو وإقلاع معاً ، محدد ، لا يقبل التمويه ، أو الميل فلا بد له من استواء ، لابد له من وقفة وسعى واستنفار وخطو ، إنه البشارة باستقرار الأحوال وثبات المنظومة .

حركة غير عادية ، ركاب يروحون وآخرون يجيئون ، ركاب يتطلعون عبر النوافذ حائرين ، مستفسرين بالنطق أو النظر ، يقول أبى :

"السائق توقف بعيداً عن الرصيف .. تجاوزه" .

يبدأ حذرى ، وتسرى خشيتى ، ماذا سيجرى ؟ كيف يمكن إصلاح الأمر المنطوى على خطأ ، كيف سيتصرف السائق ؟

لم يحدث هذا خلال أسفارنا معاً إلا نادراً ، يتصرف الجميع وكأن أذى سيلحق كل منهم ، رجل فوق الرصيف يرتدى الملابس الرسمية للمصلحة، تضفى عليه بعداً غير منظور ، تمثيلاً لسلطة ما ، يشير بيده ، يأمر الجميع بالتراجع أو سرعة اللحاق ، يضع الصفارة بين شفتيه ، ينفخ ..

حركة يسيرة إلى الوراء ، تحتك المصدات الدائرية ببعضها حتى يستقر الوضع . الركاب يتطلعون إلى ما يجرى ، ربما ينزل بعضهم إلى الرصيف للسؤال وعودتهم بالأخبار الدقيقة ، لكن طوال ابتعادهم عن العربات تظل أبصارهم عالقة بالسيمافور ، بالمقدمة ، بهناك . حيث السائق ومساعده ، السائق بالتحديد ، شخص ما يمسك بيده المفاتيح ، رغم أنه ليس الوحيد فى هذه المنظومة إلا أنه الأهم ، المقدم على الإطلاق ، كلهم يعرفون أن الأمر

متعلق بهـذا الرجل الذى لا يرونه ، يركبون ويستـسلمون ، وربما يقلقون إذ يتطلعون ويتـعارفون ويصلون بالـسلامة ، ويتفـرقون إلى جهـات شتى ولا يرون السـائق . إن إحـساسـهم به يظل سـارياً طوال الرحـيل ، إنه هناك مع مسـاعديه . أولهمـا الفنى والثانى العطشـجى المسئول عـن تلبية رغـبة النار المندلعة من أكوام الفحم ؛ حتى تتأجج وتصدر الطاقة الدافعة .

إنهم فى المقدمة ، حـيزهـم محدود ، لا يمكن عبور الركـاب إليهم خلال العربات المتصلة ، ولا يمكنهم هم الاتصال مباشـرة ، القاطرة معزولة ، تليها عربة الوقود ، ثم عربة البريد، الطرود المغلقة ، وربما عربة المساجين المرحلين تحت الحراسة المشـددة ، ثم تدرج المستويات من أولى إلى ثانية إلى ثالثة .

المسئول عن هذا كله لا يـتحدث إليه الركاب ومـا من وسيلة للاتصال ، فى ذلك الوقت المبكر كانت الإشـارات سباقـة ، كافية ، قـبل تطور الأمر ، وتركيب الأجـهزة الحـديثة ، لكن رغم كل شىء ظل مـوقع القائد مـعزولاً هناك فى المقدمـة ، بل إن عدد الطاقم قل ، أصبح اثنين على الأكـثر ، ذهب العطشـجى مع اختفـاء الفحم والماء والنـار وظهور المازوت والكهـرباء وما يستجد .

إن القلق الأشد يبدأ إذا وقع الوقوف ما بين المحطات ، حيث لا أرصفة، ويصعب الأمر إذا امتد الخلاء على الجانبين ، حـتى لو امتلأ بالنخيل وعيدان القصب أو الذرة أو أحواض الأرز ، أو الرمال الجافة .

توقف مـفـاجئ يعنى الحيـدة عن الخطة ، والخـروج عن الأقـوال المدونة والمخاطبات ، عند وقوع ذلك الطارئ يفكـر معظمهم فى السائق ، ويودون

الاتصال به أو رؤيته ، حتى وإن لم ينطق فملامحه ربما تدل ، حتى المحصلون والمفتش وحراس القطار لا يعرفون شيئاً ، بل إنهم أشد فضولاً ، وقع المفاجأة عندهم مغاير ، مضاعف ، لكثرة رواحهم ومجيئهم وحفظهم العلامات .

مرات نادرة تلك التي توقف فيها السفر بمنأى عن الأرصفة ، الرصيف ليس بداية ونهاية فقط ، إنما سكينة ومعنى بلوغ .

لا بد للسفر الآمن ، المعترف به من رصيف ، أى خروج عنه فيه إمكانية هلاك مبين ، يكون خرقاً للمتبع واجتيازاً للفواصل .

للأرصفة الوقفة ، إما انتظار قادم أو تأهب لركوب ، عند قدوم خالى أو جدتى يبكر أبى فى الذهاب مع علمه بالمواقيت الملائمة ، يعرف أبى موضعه، لا ينتظر عند أماكن وقوف عربات الدرجة الأولى أو الثانية ، لا يستفسر ولا يسأل ، يمسك يدى ، أتمنى لحظة دخول القاطرة السوداء المهيبة، أن ألمح السائق فقط ، أن أراه فى وقفته خلال المرحلة الأخيرة ..

يتحدث أبى إلى القوم ، يألفونه بسرعة . أصغيت يوماً إلى باشجاويش يعلق إلى ذراعه أربعة شرائط حمراء ، يقول إنه تولى الحراسة على شخصية هامة ، لم يغمض له جفن من القاهرة إلى أسوان ، صحبه إلى عربة الأكل ، موائد مغطاة بالفراش الحريرى الأبيض المشغول ، مقاعد من جلد وثير ، بجوار كل منها مصباح على هيئة شمعدان مثبت إلى الجدار ، الملاعق والأطباق والسكاكين من فضة خالصة ، أما الخدم فيرتدون الملابس الزرقاء المزركشة المحلاة بالقصب الأصفر اللامع ، يحمل الواحد منهم طبق

الشوربة مع أقصى سرعة فلا يميل ولا يهتز ، يقوم بالخدمة على أتم وجه كأنه فى قصر ثابت ، راسخ الأركان .

يقول أبى إن بائع الشاى ينتقل من عربة إلى أخرى بصينية فوقها من عشرين إلى ثلاثين كوباً ممتلئ وإناء للسكر وآخر للنعناع يحملها بيد وبالأخرى يؤدى الصنْعة ، تقليب السكر والشاى ، هذا الراكب يريده ثقيلاً والآخر يُحذر من السكر الزائد عن الحاجة ، القطار يتمايل وما من خطأ أو خلل ، يقول أبى "الرزق مُعلم" ، يهدر الآتى من أعماق الصعيد ، أتبع أبى خائفاً من فقده ، فى الزحام تفوتنى رؤية السائق ، التملى من القاطرة السوداء وفحمها المشتعل ونيرانها الأوارة وبخارها الأسير ، الضاغط ، عربات الثالثة عديدة ، لذلك يصيح منادياً ..

" يا محمد على باشا

يا محمد على باشا .. "

يتطلع البعض - خاصة المخبرين - متعجبين ، ما هذا الرجل لابس الجلباب الذى يمسك بيد طفل صغير ينادى على باشا يركب الدرجة الثالثة، نلمح خالى مُطلاً من النافذة ، عمامته مغطاة بشال الصوف البنى ، لم أر رأسه عارياً قط فى المحطات ، صيفاً وشتاء ، مرة واحدة فى سوق الأربعاء، استسلم لموسى الحلاق ، يجز الشعر ويجرى له الحجامة تخفيفاً للضغط الكابس على دماغه ، دائماً يرتدى اللبدة المصنوعة من الوبر الثقيل ، يقترب رجل يرتدى معطفاً ويدس عصا قصيرة تحت إبطه :

" باشا وفى الدرجة الثالثة ... "

يلتفت إليه الوالد ضاحكاً :

" اسمه .. اسمه يا عم ... "

يزعق خالي عبر النافذة :

" يا احمد ... يا احمد ... "

يمد القُفة عبر النافذة ، مع أن المحطة نهاية ، ولن تحدث حركة إلا بعد وقت كاف ، لكن ما من ثقة عند الطلوع ، وعند النزول أيضاً ، ثمة خشية من المفاجأة دائماً ، نحرص على الذهاب مبكرين " انتظر القطار لأنه لن ينتظرك" ، دائماً يتردد هذا المثل عندى ، لا أعرف مصدره ، متى سمعته أول مرة ؟

فوق الرصيف رجال ونساء وأطفال ، بجوارهم القُفة والحقائب وصناديق الورق المقوى ، بعضهم يغفو ، منهم القادم من قرى شرق النهر ، أو النجوع النائية بالغرب .

تحين اللحظة الحاسمة ، رغم أن القطار لم يظهر بعد ، إلا أن توتراً يبدأ وتحفزاً يسرى ، الكل وقوف ، متطلعون إلى الجهة ، لحظة دخول القطار يبلغ الدفع أشده رغم صيحات البعض بضرورة الانتباه ، أن يسقط إنسان ما بين العجلات قبل تمام الوقوف ، يستحسن عدم الاقتراب قبل كف العجلات عن الدوران ، لكن من يسمع ويتعظ ، لذلك تقع بعض الحوادث، يتذكرها القوم لفترة ثم سرعان ما تندثر التفاصيل ، القطار لا يتعطل ولا يتم حجزه إذا لقى راكب أجله بين الرصيف والعربات ، أو فوقها ، أو بينها، ما من مسئولية هنا على السائق البعيد ، القصى ، المتوحد

فى موقعه الأمامى رغم أنه المحرك ، المبدل ، المسرع ، المبطئ ، من بيده إمكانية الضغط على مفتاح أو مقبض فيوقف القطار كله بحنكة ودربة ، لا حرج عليه ، ولا مساءلة ، فالتعاليم جلية ، والمخاطر واضحة ومصير كل إنسان بيّن .

عند سفرنا من مصر لا نعرف الزحام ، المحطة بداية ، والبداية مهما طالت محدودة ، بالطبع الأمر يختلف إذا اختل التوازن ، مثل قلة القطارات وكثرة المسافرين ، كما جرى الأمر فى العقود التالية وما يزال ، لكن عند عودتنا كنا نعد للركوب ونحسب الخطوات ، طهطا مجرد محطة على الطريق ، الوقفة عدة دقائق ، لا تستمر طويلاً ، الركاب يغلقون النوافذ بإحكام حتى لا يلقى البعض بأمتعتهم عبرها ويتبعون ذلك بالقفز ، بعضهم يسد الأبواب أيضاً ، يبدأ صراع ثاقب ، مركز ، بين المستقرين بداخل والحائرين بخارج ، نجرى من هنا إلى هناك ، باحثين عن ثغرة ، الحقيقة أننا نتبع الأقارب الذى صحبونا من جهينة واعتبروا ركوبنا مهمة تتعلق بهم بكل ما يعنيه ذلك عند الصعيدى الأشم ، إن الدخول عبر النوافذ غير مطروح أصلاً لوجود أمى ، يلوح الفرج عندما تتردد صيحة :

" تعال يا احمد .."

باب مفتوح

أمى أولاً ، أتبعها مع شقيقى إسماعيل وآخرنا أبى ، فى البداية يكون تصاعد وزقة من هنا ونهر أو زجر من هناك ، ثم تتدرج الأحوال ، بعد التحرك ، تفسح إحداهن موضعاً لأمى ، بعد مسافة أخرى يكتمل قعودنا ،

كيف ؟ لا يمكنني التحديد الآن .

مع الاقتراب من المحطة التالية ، طما ، يصيح الركاب :

"أغلقوا الشبابيك .."

يقول آخر :

"امنعوهم من رمى القفف .."

يزعق ثالث :

" أقفلوا الباب .."

أدقق النظر، إنه نفس الشخص الذى كان يجرى فوق رصيف طهطا محاولاً الركوب من النافذة ، من الباب ، من أى ثغرة .

***

زيارة

نخرج من مبنى المحطة إلى الميدان الفسيح ، يقف خالى بجوار القفة أو الاثنتين ، رائحته النفاذة المميزة ، إنه نحيل ، عيناه حزينتان ، يبتسم أحياناً ، أتطلع إليه بحب ، أحن إلى أيام جهينة ، ربما لوشائج غامضة تتصل بأنه حضر ميلادى وحملنى على ذراعيه طفلاً عمره لحيظات وقرأ فى أذنى "الصمدية" ، مجيئه يعنى تغير منظومتنا ، الخروج مرات بقصد زيارة أقارب يقيمون ناحية القلعة ، أو لزيارة عيادات الأطباء ، يشكو آلاماً فى الأنف ، والعينين ، والأذنين ، يتوهم أوجاعاً غير مقيمة عنده ، يمضى إلى زيارة الأضرحة ، سيدنا ومولانا الحسين ، رئيسة الديوان أم هاشم ، ضريح فاطمة النبوية ، السيدة عائشة ، وصلاة الجمعة في مسجد السيدة نفيسة ، مرة واحدة سافروا إلى طنطا لزيارة سيد البدوى ولم نصحبهما ، يرافقه أبى أينما ذهب ، وزيارة المتحف الزراعى ضرورية ، يمضى يوماً على مقربة من عمل الوالد بوزارة الزراعة ، كان طويل السرحات ، يحملق عبر الفراغ إلى نقطة غير محددة ، نائية ، يستحلب الأفيون ببطء ، يجيئ من البلدة خلوا منه ، إذ يخشى السفر به ، حمله مثل التجارة به ، التعرض لكبسات مفاجئة من

الشرطة الخاصة أمر متوقع ، بمجرد نزوله فوق الرصيف يتبادل الهمس مع الوالد ، يبدو أبى مرتبكاً ، لم يعتد التعامل مع المخدرات ، لا تدخين الحشيش ولا الأفيون ، يعتبر ذلك مخالفة جسيمة ، لم يدخن سيجارة إلا إذا أهداها أحدهم إليه ، لكنه يبدو حريصاً على إرضاء خالى ، على ألا يغضبه طوال أيام زيارته ، حتى أنه كان يرجو أمى أن تنسى أى غضب شعرت به تجاهه ، ويقسم لها أنه حريص على البيت وعليها ، ولو كان اضطر إلى الزعيق أو التفوه بما لا يليق فإنما بسبب ضيق ذات اليد ، وعسر الأمر ، المهم ألا يبدو منهما ما يعنى وجود خلاف أو شقاق أمام أخيها ، لكن .. من أين يحضر الأفيون لخالى ؟

بحذر شديد تقصى من خلال جلسته بفندق الكلوب المصرى القريب من مسجد سيدنا ، دله عمر الطباخ على خياط بلدى بناحية الدرب الأحمر، وأعطاه علامة ، تعرف به وصار يتردد عليه كلما جاء خالى ، يعود منهكاً ، متعباً يتصبب عرقاً بمجرد دخوله البيت ، يفرغ شحنات خوفه المؤجل ، يتناول خالى الفص الصغير فى حجم حبة العدس ، يلفه بعناية فى ورق السلوفان ، يتذوقه بطرف لسانه ، يضعه تحته ويبدأ انفراده ورحيله بالنظر إلى حيث لا ندرى ، خلال هذا الوقت ينعزل تماماً ، لا يجيب إذا نودى ، ولا تتحرك عيناه إذا مر أحد من أمامه ، أرقبه وأنصرف على أطراف أصابعى ، أتوقف إذ أصغى إلى آهة مركزة ، قصيرة ، تبدو كأنها صادرة عن شخص آخر ، ذات أصداء تماماً كزعقة قطار أوغل فى قطع الليل الغميق .

***

الملكى

لم أعرف بوجود قطار مَلَكى خاص إلا ذلك اليوم ، عندما اضطررنا إلى قطع المسافة التى تستغرق عادة من تسع إلى عشر ساعات فى يومين كاملين ، ذلك أن الآتى القادم من الجنوب الذى ركبناه ظهراً من طهطا ، طالت وقفته عند محطة ملوى ، ثم تحرك ، ولكن إلى جهة لم نعهدها من قبل ، إلى خط حديدى فرعى ، لا رصيف له ، نرى من خلال النوافذ أرصفة الذهاب والإياب ولا نبلغها ، قال والدى بعد أن تيقن من صحة الخبر ..

"الملك سيمر"

ياه .. الملك مرة واحدة ؟

يمر راكباً القطار الملكى فوق خط السكة الحديد عينه ، لكن من أجله يجب التنحى تماماً ، الخروج عن الخط بالكلية ، وإحاطة العربات بالحراس الذين تبدو عليهم شراسة مغايرة ، صماء ، كلهم بيض وعيونهم زرقاء أو خضراء ، إنهم أتراك . لا .. هم ألبان وكلهم أغوات تحملهم مركبات

خاصـة ، ولهم طعام مغـاير ، كل ما يتصل بالملك لا يمـت إلينا ، إنه فخم ، ضخم كما نعرفه من صوره ، أكـول ، نَهِم ، يقدمون إليه الخروف بعد سلقه وتركـيزه فى فنجـان من الذهب الخالص ، يـفطر مخـاصى الديوك ويتناول عشاءه من كلاوى الحمام المفرومة . المذابة فى دهن الخروف الساخن . يمكنه مضـاجعة عـشر نسـاء يومياً ، يسـتطيع منازلة عشـرة مصارعـين مثل الذين نراهم فى الموالد وبعد صلاة الجمعة ، يجيئون إلى الساحات الخالية ، يـوثق أحدهم بالحبال الغليظة ويتقدم الناس ليـحكموا الحبل حوله ، ثم يبدأ زميله فى الصـياح والـتنبيـه إلى اسـتحـالة الفك والخـلاص ولكن القـوة الخارقـة ستـحسم ذلك ، كل المطلوب تشجـيع صاحبـه ، ملاليم فقط من أصـحاب القلوب الجامدة ، يطوف على الواقفين بطبق من الصاج .

لو أوثقوا الملك بسلاسل من حديد يمكنه فكها ..

إذن من يغلب الآخر ، هو أو تشرشل إذا نزلا الحلبة ؟

هو طبعاً ، ألا ترون ضخامته وفخامته وصحته البادية .

هل يدخل الحمام مثلنا ؟

هل يعرف المغص ؟

نَحَارُ أمام الأسئلة العـويصة ، نرددها بيننا فى الحارة أثناء اللعب وننتظر الإجابـات لعل وعسى ، ها هو الظرف يدفع بى إلـى طريقه ، كـلانا سيـمر بنفس النقطة ، فى وقت معين سيصبح بمحاذاتنا ، سأحكى ذلك للأولاد بعد عودتنا ، لسناء بالتحديـد ، الملك الذى مرّ ، وأطل ، توقف وصافح ، وسأل عن الصحة والأحوال .

ياه ... الملك ؟

نعم ، بنفسه

بدأ التراخي يَسْرى إلى وقفة الحراس الأشداء ، استند أحدهم إلى بندقية، واقترب آخر من صاحبه ، ثم افترشوا الأرض بعد أن بسطوا ملاءات أو فرشاً رمادية تحمل زخارف حمراء .

يهن ضوء النهار ، لا شيء ينبئ باقتراب مرور جلالته ، بل إن حركة الحراس ، والرجال الذين يظهرون لثوان ثم يغيبون تنبئ بوقت سيطول ، وقفة لا يعلم مداها أحد ، راح عجوز يرتدى جبة وعمامة ، يقول إنه تأخر كان المفروض أن يدخل الآن إلى بنى سويف ، بعد قليل يتردد صوته ذاكراً الوضع الذى يتناسب مع الوقت ، يستدعى الأماكن إلى الزمن المتجمد قسراً ، حتى إذا نزل الليل قال إنه من المفروض الآن بلوغ محطة مصر .

مع اكتمال العتمة دنا أبى منا . أراد التحويط علينا ، خاصة بعد أن صرخت امرأة فزعة ، وصاحت :

" يا قليل الأدب .."

سمع الركاب صوتاً هادئاً، لكنه هدوء المصمم، الراغب، المتوتر ، العازم .

" لم أقصد .."

بعد قليل صاحت المرأة :

" يوه ..."

ثم قالت :

" كل هذا لأنى وحدانية .."

ارتفع صوت من أقصى العربة ناهراً .

حوالى العاشرة ليلاً جاء أحدهم بكلوب ، علقه فى منتصف العربة ، الوجوه متعبة ، آوت إلى صمت بعد كثافة حديث ، وبدا زحام أمام دورة المياه ، وبكى طفل بإصرار حتى بعد إخراج أمه لثديها وإرضاعه ، قالت أمى إنها ستنفجر ، لكن أبى طلب منها أن تصبر ، فى مغادرة المقعد الآن مخاطرة ، والرجال يزحمون الممر إلى دورة المياه الوحيدة ، غفوت ، استيقظت على زغرودة طويلة ، قال جارنا إن أحدهم تبادل الحوار مع راكب يجلس إلى جواره ، تعرف كل منهما بالآخر ، قص هذا على ذاك السبب الذى جعله يرحل ، وأفضى الثانى بدوافع قبوله الغربة ، وأصغى إلى الأول عندما تحدث عن واجباته تجاه شقيقاته الثلاث ، طلب الثانى يد أوسطهن ، وافق الآخر ، قرءا الفاتحة وأشهدا الشيخ المعمم ، وحقٌ للعربة أن تفرح ، لكن الليل امتد ، والساعات ثقال ، وتمدد البعض فوق الأرفف وارتفع شخير ، وعند الفجر نشبت مشاجرة كادت تؤدى إلى تداخل كافة الركاب فى بعضهم ، لولا ظهور جنود شرطة يرتدون الطرابيش ويشهرون السلاح ، بعدها أعلن رجل متحشرج الصوت :

"انت طالق بالثلاثة .."

ردد أحدهم بتأن :

" إن أبغض الحلال عند الله الطلاق .. يا ساتر استر "

لا يعرف الجميع من أين ظهر هؤلاء الباعة ، كل منهم يحمل سبتاً معلقاً

إلى ذراعه معبأ بالكعك السميط ، والبيض المسلوق ، والجبن الرومى ، والجبن الأبيض ، والحلوى الطحينية ، وعبر بائع الشاى الزحام والأجساد المستلقية على الأرض بصينية مزدحمة ، وكما قال أحد الركاب إنه جاء فى موعده تماماً .

حوالى الخامسة بعد الفجر ، دوى أزيز مكتوم ، أول من أصغى إليه المتمدّدون فوق الأرضية المنبسطة ، يلصقون آذانهم بالأرضية المكونة من الخشب والحديد ، وصدمة مكتومة . خافتة متزايدة ، بقدر نأيها تقترب بسرعة ، تتبدد بقايا الليل ، أضواء نافذة مجهولة المصدر ، تتوهج العربة بأزيز النور الخاطف ، المبهر الذى غمر القطار كله من خارج ومن داخل ، يتعاظم الضجيج حتى يلغى كل ما عداه . ينتظم الجنود الألبان بملابسهم التقليدية القصيرة وطرابيشهم غامقة الحمرة ، يشهرون أسلحتهم صوب نقاط غير محددة فى الفراغ .

"لا يعرفون التفاهم .."

"هم فى منتهى القسوة"

"القتل عندهم كالتنفس .."

تغلق كافة النوافذ فى لحظة واحدة ، لا يرى القوم شيئاً ، تحتجب المرئيات خارج العربات ، الضوء نافذ رغم الإغلاق الحتمى ، فى البؤرة منه يبدو وجه الملك المستدير ، الممتلئ ، ونظرته المشرفة ، العلوية ، مجرد لحيظة، سرعان ما يختفى أثره ، يتحد بالأفق البعيد ، الدائرى .

***

نار الماء

القطارات للعبور . الإقامة فيها مؤقتة ، كل له وقت معلوم ، عند لحظة معينة ، وموضع محدد يغادر ويصعد آخرون ، له الحركة والانتقال . لو لزم الثبات فهذا يعنى انتهاء وظيفته وانقضاء مهمته ، ونفاد وقته .

عند مرحلة معينة تدخل العربات إلى خطوط حديدية فرعية محاذية للخطوط الممتدة ، لا أرصفة هنا ، إنه المخزن المؤقت الذى يسبق فك النوافذ، والمقاعد ، وإرسال كل عنصر داخل إلى جهة .

كثيراً ما تطلعت إلى تلك العربات الرابضة ، الصامتة ، أرى فى ملامحها حزناً غامضاً ، يضفى تردد الأنفاس حيوية وأنساً ، لا يكتمل القطار إلا بالبشر والحركة ، عبور المدن من خارجها أو من خطوط تتوسطها، والجسور ، منها الكبير الممتد والقصير الذى لا يكاد يلحظ ، يشعر به القوم من تغير صوت العجلات ، أول جسر يلى محطة مصر بمسافة قليلة وزمن يسير ، إنه كوبرى امبابة ، حديدى التكوين يمكن للناظر من النافذة رؤية مياه النهر تحته مباشرة ، صرت أعرف ذلك ، أنتظر بانبهار

تلك اللحظات التى يلوح فيها الماء عاكساً صورة العربات ، يتاح لى رؤية أسفلها ، والنار البرتقالية المضطرمة فى النهر ، قطار آخر مواز تماماً للقطار الذى نركبه ، لكنه يمضى مقلوباً بالنسبة لنا ، ألمح رؤوساً مترجرجة ، أين صورتى ؟ أين انعكاسى ؟ لا يمكن التدقيق مع الحركة .

عند السفر جنوباً يكون اجتياز الجسر الحديدى إيذاناً بخروجنا من المدينة وبدء الإيغال صوب الصعيد ، حتى نهايته تكون السرعة ما تزال فى بدايتها هادئة ، موثقة ، ذات إيقاع مرح ، وعند العودة يكون بلوغه علامة على دنو الوصول بعد ساعات طوال من الجلوس فوق المقاعد ، تجرى التهدئة تمهيداً للوقوف ، تتخذ الحركة المألوفة سمات مغايرة ، إذ تتعدد القضبان المتصلة ، الفاصلة ، تهتز العربات مع عبورها الفواصل ، إنها تمنح المغايرة بين أصوات الانطلاق والتمهل وللأصوات وقفة .

ثمة جسور متوسطة ، أخرى خاطفة ، يتغير الإيقاع ، ربما يولى بسرعة لو يستمر ثوان طبقاً لطول المسافة ، ونوعية الجسر الممتد ، بعضها من حجارة ، والآخر من حديد ، حديد القضبان الممتدة على فراغ مع حديد العجلات ، يكون للاحتكاك ضجيج ، ولكم عبرت من الجسور ، لكن يظل لكوبرى امبابة السبق ، وأول أبجدية الانتقال من ضفة إلى ضفة ، من نقطة إلى نقطة ، فلا يكون الجسر حقاً إلا إذا وصل ضفتين ، وقرّب ما بين نقطتين ، دائماً أرى هذه النار الصفراء ، البرتقالية ، الفائقة ، الإوارة ، المتوهجة ، تشتعل فى خضم الماء، تنبعث من فوق القاطرة إلى أسفل ، تتحد باليم، لا يطفئها موجه، ولا مرور الأوقات على النهر المتدفق من بعيد.

لا يفكر أحد فى النزول عند عبور الجسور ، وإذا شرع فإنه مطارد أو

ساع إلى حتفه ، كنت أنظر من النافذة ، انتبهت إلى شاب يقف عند باب العربة المفتوح ، كان هادئاً ، مطرقاً ، يمسك ذقنه بيده ، التقت عيناه بعينيّ ، رغم هدوء ظاهره إلا أن خوفاً سرى إليّ ، ماذا يدفع مثله للوقوف هنا ، لماذا يبدو ساكناً في موضع يقتضى كل توتر وانتباه .. ؟

فجأة ، ألقى بنفسه ، دفع جسده ، رمى بذاته ، نفذ إلى النهر عبر فجوة بين القضبان ، لم أر لحظة اصطدامه بالماء ، لكننى لمحت النيران المنبعثة من القاطرة ، تمشى متألقة ، منصهرة فى الماء ، وعندما تلفت حولى ، لم أجد شخصاً واحداً يتابع أو ينظر فى أعقاب تلك السقطة ، وكدت أوقن أنهم شاهدوا وصمتوا لسبب لا أعلمه ، وحتى تدوينى هذا لم أُفضِ بما رأيت إلى أقرب الخلق وأعز الصحب .



إغفاءة

طال الوقت علينا فغفـونا ، مع أن نومى على المقاعد نادر ، لا أهجع مع الحركـة إلا مضطراً ، إذا غلبنى أمر ونفـذت طاقتى ، كـيف ينام الإنسان مع الحـركة ، وعندمـا سـمعت قـائلاً يخـبـرنا بوجود عـربات نوم تنقـسم إلى درجتين، أولى وبمقـاصيرها سرير مـفرد ، ثانية وتحوى على اثنـين أو أكثر ، أى يمكن أن ينام راكب مع من يجهله ، كـيف ؟ صعب تخيل ذلك عندى ، أول معـرفتى بوجودها عند مـرورنا أمام المقهى الافـرنجى داخل فناء المحطة الفسيح ، فوق لافتة مضاءة حروف سوداء غليظة .

"شركة عربات النوم الدولية"

- هل توجد عربات للنوم يا أبى ؟

- نعم

قال إنها لا توجد إلا فى مسافات الليل ، أى تلك التى تبدأ التحرك ليلاً، إنها سريعـة جداً ، لا تقف إلا فى أسيوط لتـغيير طاقـم القـيادة ، ثم تواصل حتى الأقـصر ، معظم الركاب أجـانب ، قدموا للفُرْجـة على آثار الفراعنة ،

تتكون العربات من مقاصير نوم ، مفروشة بالأغطية الحريرية ، والأرضيات مغطاة بالسجاد العجمى ، والأسقف مدلاة منها النجفات الثمينة .

كيف ينام المسافر ؟

هل ينام بثيابه التى ركب بها ؟ أم يبدلها ؟ عندما يستيقظ كيف يغسل وجهه ؟ .

لماذا يسافر الإنسان ليلاً ؟

ماذا بوسعه أن يرى ؟

لا يرحل ليلاً إلا المضطر ، والمجبور يمكنه النوم أو الإغفاء ، بتأثير تعب، أو رغبة منه فى تقصير المسافة ، لحركة العجلات إيقاعات ، كذلك اهتزاز العربات المترابطة ، المشدود كل منها إلى الآخر أثناء اندفاعها عبر الليل ، تتوالى تلك الإيقاعات متصاعدة تتفرق ، منها ما يهدهد ، ومنها ما يفكك المتلملم ، ورغم أنها باعثة للضجيج ، والضجيج يحول دون الإغفاء ، إلا أن تواليه لفترة ، وإحاطته بالمتعبين ، المنهكين يؤدى بهم إلى الوسن .

***

فتى

لم ينتبه إليهما أحد فى البداية ، لكن بمجرد ابتعاد القطار عن رصيف محطة أسيوط ، ولأسباب شتى منها بصّات الكبير إلى الصغير ، وتنافر مظهرهما ، جعل الأنظار تتوقف ، تلتفت ، والألسنة تنطق التساؤلات ، جرى همسٌ ، فتشاورٌ ، وعند حد معين ؛ بدأ تدخل بعد أن أصبح كل شخص فى العربة ، رجل أو امرأة ، محاطاً علماً بما يجرى .

الكبير يرتدى الملابس البلدية ، طويل العنق ، بارز الحنجرة ، نافر العينين، غليظ الشفتين يرتدى جلباباً من صوف ، يبرز الصديرى البلدى تحته من فتحة العنق ، حذاؤه عسكرى أسود ضخم ، يداه متشققتان ، قدر البعض عمره بالخامسة والعشرين ، أو الثلاثين .

الصغير ربما فى الثالثة عشر ، أو الرابعة عشر ، لكنه لن يزيد عن الخامسة عشر ، دُرة فى الحسن ، يعلق به النظر أولاً فى مجمله ، ثم تتكشف التفاصيل المكنونة ، شعر ناعم ، غزير ، حاجبان كثيفان ، عينان ترسلان ألقاً، يتكسر عبرهما الضوء . ينعكس فى إشعاعات قصيرة ، ثمة صلات

خفية لا يمكن تحديد عناصرها أو إدراك أسـرارها تصيغ جاذبية خاصة لهذه المنطقـة من الوجـه ، ما بين الحـاجبـين والعينين وحـتى بداية الوجنتين ، مـا بينهما أنف دقيق ، محدد ، لا زيادة فيه أو نقصان ، أما الفم فمركز أقنى ، له مع انحناءة الذقن رجع وترديد ، تتمنى أى أنثى صبوحته ونداوة طلته ، كان يرتدى قميصاً من حرير ، وبنطلوناً قصيراً يكشف فخذيه القويين الأملسين، البادى منهمـا زغب ذهبى له لمعة ، لم يكن حضـوره منسقاً مع مـا يحيطه ، الدرجـة الثـالثة وركـابهـا ، صحـيح .. لا يوجـد مـا يحدد سـمـاتهم ، أو مـلامحـهم، لكن الأنساق مـتقـاربة ، إذا ظهر أحـد ركاب الدرجـة الأولى المفتـخرة سيلحظ وجـوده المتنافر بنفس القـدر الذى يرصد به أى راكب من الدرجـة الثالثـة يخطو إلى هناك ، لا يوجـد ما يـحدد ويعين ، لكن يحـوى الواقع ما هو أكـثر من المواد الحـاظرة ، أو النقاط المانعـة ، والفروق بالنسـبة للعربات محددة بشكل قاطع حاد ، للدرجة الثالثة عرباتها ، وللثانية أيضاً ، وللأولى ، واجتياز راكب من الأولى إلى الأعلى يعـرضه للعقـاب المترتب على المخالفة ، خـاصة أن للمحصل والمفتش وكـل من يرتدى زى مصلحة السكك الحديديـة فى ذلك الوقت هيبة ومـقام محـفوظ ، تمامـاً مثل جندى الشرطة الـذى لم يكن يحمل سلاحـاً ، لكن مجـرد زعقـته كفـيلة بتيـبيس الأطراف ورجفة القلوب الجامدة .

ظهور الفـتى فى عربة الدرجة الثـالثة أول انكشاف الأمـر وهتك السر ، مجرد جلوسه على مقعد هنا مثير للانتباه ، للاستفسارات ، غير أن ما عجل به نظرات الشاب بارز الحنجرة وميله عليه ولمساته له وإقدامه على ضمه إليه بين مسافـة وأخرى ، بدا وكأنه يتعجـل الأمر ، غير قادر على إخـفاء نزوعه

تجـاه الفـتى ، أثار ذلك رجـلاً من أهل الجنـوب القـصى يجلس إلى جـوار امرأته بمواجـهتهـما ، كان ملفـوفاً فى عبـاءة سوداء ، عمامـته عاليـة ، يبدو مهيبـاً، جاداً ، مظهره رادع ، لا ينطق عبثاً ، أبدى تـذمراً ، ونفخ عدة مرات بضيق، ومنه تسرب الـفضول المجنح والتبرم بما يجـرى إلى الآخرين، جرى همس، وكلما انتـقل من مقعـد إلى آخر أضيـفت تفاصيل، ونسـبت وقائع لايدرى أحد صـحتهـا أو زيغها ، وعندمـا وصلت إلى الموضع الذى نجلس فيه ، سمعت أبي يقول لأمى :

"فيه رجل ضحك على ولد ابن ناس .."

سرى فى الوضـع ما يؤكد الحـال ، هناك فتى مـثل القمـر ، سبـحان من صور ، أسـير شـاب قبـيح الشكل ، يبـدو أنه غجرى أو لـص ممن احتـرفوا خطف الأطفال الـصغار ، لكنه وقع هذه المـرة على لقيـّـة ، كنز من الجـمال والأبهة ، كأنه لـم يتناول منذ طفولتـه إلا الحليب ممزوجاً بعسل النحل ، يبدو أن القبـيح استغل ظرفـاً يمر به الفتى ، وجده مـاشياً بمفرده فى أحـد شوارع أسيوط ، كان يبدو حائراً ، تائهاً ، أغـواه بالكلام وصحبه ، استسلـم الفتى له وركب معه ، الاثنان يقصدان مصر .

قال البعض إن الشـاب الذى يبدو فاجراً يقبل الفتى فى فـمه ، ويضمه ، وأنه مقيم معه منذ يـومين ، نزل به فى فندق رخيص ، نال منه ما نال ، الفتى مضحوك عليـه ، ولا يدرى أحد ماذا فعل له أو به حتى يتبـعه هكذا طائعاً . يلتفت إلى الناحية التى يتوجه إليها ، وينثنى إذا تراجع عنها ، يلبى ما يطلب منه بالنظر ، يبدو مأخوذاً ، معمول له عمل .

البعض روى التفاصيل مظهراً الغضب والحسرة ، غير أنهم أضمروا الرغبة في الحلول موضع بارز الحنجرة ، المتسخ ، الذي يبدو أن جسده لم يعرف الاستحمام منذ شهور .

آخرون عبروا الفواصل بين العربات ، توقفوا للبص ، للنظر ، عادوا إلى رفاقهم في السفر ليضيفوا ويفصلوا . يمدحون الحسن ويذمون قبح الشاب، تعكس أصواتهم حسداً ورغبة مكتومة .

الفتى من بيت كريم . كيف عرف الركاب ذلك مع أنه لم ينطق ولم يتكلم إلا عندما جاء البِكْ الكبير ، قبل وصول القطار إلى المنيا ، بالتحديد عند اجتيازه محطة دير مواس ، جاء رجل ضخم الجثة ، غليظ الرقبة ، عظيم النظرة ، طربوشه أحمر قان ، يميل على جانب ، وسلسلة ساعته الذهبية تصل ما بين جيبي صديريته ، يتقدمه حارس مهيب ، وناظره ، والمحصل ، والمفتش ، ويتبعه شابان أشداء ، لكل منهما شارب كث ، قال البعض إنهما ابناه ، وأكد ركاب آخرون أنهما موظفان عند الباشا ، من أتباعه .

من الرجل ؟

لا أحد يدرى .

كيف أحيط علماً بوجود الفتى ، من دله ، من أطلعه ؟

لا أحد يعرف .

حضوره إلى عربة الدرجة الثالثة هذه من الأمور النادرة ، ظهور مثله هنا استثناء ، تماماً مثل حضور الفتى ، لكن مجيئ سيادته لم يكن بقصد الإقامة،

إنما للتدخل الحازم ، وصحبته الفتى إلى حيث يجب أن يوجد ، إلى الدرجة الأولى ، إنه ابن عائلة كبيرة ، ويجب الحفاظ عليه حتى إعادته سليماً إلى أهله .

من تكون تلك العائلة ؟

هل يمت إليها الباشا بصلة ؟

هل هو باشا فعلاً ؟

لم يجزم أحد بإجابة قاطعة .

لكن الجميع تحدثوا عن وقفته لحظة رؤيته الفتى ، وتمتمته : سبحان الخالق ، ما شاء الله ، ما شاء الله . ونظرته شزراً إلى الشاب الذى بدا مرعوباً ، مرتجفاً ، ميالاً إلى طلب الصفح ، ساعياً إلى تقبيل القدمين ، مستسلماً إلى قبضة الجندى الذى أمسكه من قفاه ، أما الباشا فأحاط كتف الفتى بحنية ، وربت خده ، ولم يفارقه حتى دخل به مقصورته فى عربة الدرجة الأولى ، وأغلق الباب أحد الشابين التابعين .

***

جدة

عندمـا نزلت ستى لأمى إلى رصـيف المحطة بدت متـشوقة ، حـانة إلى كافـة ما تعرفه ، ومـا ألفته من مـوجودات ، جاءت بمفردها ، ترتدى الشـقة السوداء ، لا يبدو إلا وجهها الموشوم عند الجـبهة والذقن بلون أخضر غامق يحدد أشكالاً مثلثة متداخلة بالدوائر .

نظراتهـا مغـايرة لكل مرة رأيتـها فـيهـا ، تتطلع إلى نقطة ما فى مـوضع يصعب تحديده ، إلى الفراغ ، كانت نحيلة ، طويلة ، سمراء ، حادة الملامح، رحل زوجـهـا وهى دون العـشـرين ، كان شـيـخـاً ، يؤم المصلين ، يعـقـد القرانات ، يبـصر بأمـور وتفاصيل ، يصلح مـا خربتـه الأيام بين النفوس ، وفى ليـالى رمضـان والأعيـاد والمواسم يعلو صـوته بالمديح ، ينشد أعـذب القصائد ، تـتسلسل سلسـالاً رائقاً صـافياً من خلال نبر صـاف بديع ، وبعد رحيـله المفاجئ بأكـثر من نصف قـرن كان هناك من يذكـر عذوبة صـوته ، وتمكنه ، وحفظه للأشعار المتينة ، لم يكن للأسرة من معين ، ولا ولى حميم فخرجت جدتى إلى الأسـواق ، تخفى ملامحها بإزار ، وتقف لتـبيع القمح

والذرة والفول والسمسم ، إلى جوارها ابنها البكرى محمد ، وهو خالى فيما تلى ذلك ، هذه النحيلة ، الفارعة ، كانت قوية ، متينة ، صدت الساعين إليها بلطف ، وصار معروفاً ، مفهوماً للقاصى والدانى أن عائشة بنت بيت باشا وهبت حياتها لأسرتها ، وأنها لن تعرف رجلاً بعد زوجها ، هذا وضع معروف فى صعيد مصر ، تخرج المرأة إلى الحياة العملية لكسب الرزق ، وما يقيم الأود ، ولدفع الضر عن اليتامى ، فيهابها الكافة بل إنها تصير فى حماية القوم طالما لزمت الجوانب المرعية .

بدأ وعيى بها طفلاً صغيراً ، أدركتها بداية وهى قبل الخمسين أو بعدها بقليل ، كانت بالنسبة لى ملاذاً وجانباً آمناً ، آويت إليها ليالٍ عديدة ، أصغت إلىّ طويلاً عبر تلك الأمسيات ، وتلوت عليها صفحات من خيالى، أبدت الجزع والدهشة ، وبثت عندى الثقة ، وأمنت لى الإصغاء ، وكان يجب أن تمضى سنوات عديدة ، طويلة ، لكى أتأكد من حاجة الإنسان إلى من يصغى إليه ولو مرة ، وربما يفسر ذلك انفتاح الغرباء وتواصلهم خلال الطريق الطويلة مع توالى المحطات وتعاقب الوقفات ، حتى أن زيجات تمت من خلال تعارف اثنين ببعضهما ، وصفقات عقدت بين من لم يلتقيا من قبل ، وأدق الأسرار جرى البوح بها بين من لم يتعارفا قبل ركوبهما وتجاورهما ، ثم افترقا ولم يجتمعا قط ، أتاحت لى جدتى هذه النعمة ، عليها كامل الرحمة .

حضورها المكتمل يضفى على البيت سكينة ، وينتفى التوتر الذى يصاحب الوالد عند زيارات خالى ، خالى يطلب فيجب أن يُلبى ، لكن جدتى تتبع ، تنتظر فراغ الوقت تمضى إلى الأولياء والمراقد ، وأحياناً تطلب

الخروج إلى ميدان سيدنا ومولانا الحسين فقط لترى الناس ، أى ناس ، وتعود إلى بيتنا الضيق فلا تزيده إلا رحابة ، ولا تضفى عليه إلا وسعاً .

علقت بروحى رائحتها ، لكل إنسان عبقه ، وما تنسمته منها لم يتكرر شبيهه ، أو حتى ما يقربه ، كنت آوى إلى حضنها وسرعان ما أغمض عينى وأذهب إلى نوم هادئ لم أعرفه قط فيما تلى ذلك من أيام .

كان وصولنا يؤدى إليها ، إلى بشرها عند استقبالنا ، واستيقاظها مبكرة قبل أى إنسان ، لتوقد الفرن ، ولتعجن الفطير ، ولتعبئ العسل الأسود فى أطباق والجبن القديمة ، هذا إفطار أول يوم ، عادة لم تنقطع ، أما الغذاء والعشاء فلهما الخضار باللحم فى الأوانى الفخارية ، رائحة تنبعث لتغطى الدرب ، للطعام منها مذاق خاص ، تماماً كرائحتها وطريقتها فى النظر ، كان لها سرحات مصمتة ، مستديمة ، متعلقة باللاشئ .

ركوب القطار فى العودة تصاحبه وحشة فراقها ، والبعد عنها ، وبدء الشوق إليها ، لم أعرف جدتى لأبى ، قتلت وعمره عامين ، فصلت الأمر فى كتاب التجليات فليرجع إليه من يرغب ، لكننى أقول بتخيلى لها ، ملامح محددة تمثل عندى لحظة ذكرها بالسمع أو التداعى ، كأنى عرفتها ولزمتها ، مع أن أبى لم يتحدث عنها كثيراً أمامنا .

فى هذه الزيارة بدت جدتى ساكنة ، هدوء لم أعرفه من قبل ، تغدق حنوها بفيض غير منطقع ، وشجو مستتر لم أطلع على معناه إلا عند استعادته فيما تلى ذلك من أعوام ، ونظرة تحاول التشبث بما ينطبع عليها وبها ، نظرة استعدتها بعد سفر أبى إلى الأبد ، عندما علقت بطلّته الأخيرة

نحوى ، وهذه الحال الوداعية عرفتها بذاتى فى حال آمل أن تتاح لى الفرصة لأرويه فى تلك الدفاتر ، ضمت أمى فوق الرصيف ، حتى أنها قالت دهشة، متوجسة أثناء عودتنا ، "ما لها كانت تتملى منى وتعبطنى كأنها لن ترانى .. "

وبعد لحيظات تقول :

"استر يا رب .. "

صافحت جدتى باليد كل من لقيته ، وبالنظر كل ما استطاعت إليه سبيلاً ، حتى أسطح الجيران ، والأفق الغربى حيث الأهرام البادية ، والشرق حيث حد الجبل وبداية الصحراء القريبة ، وعندما استقرت إلى جوار النافذة وأوصى الوالد بها حارس القطار ، وقفنا نتبادل النظرات ، أقلع القطار بطيئاً فى البداية ولكنها لم تختف ، بقيت مطلة من النافذة ، شاخصة ، حتى بعد غياب العربة الأخيرة وتضاؤلها ، وصعودها التدريجى فى ذلك الضوء الأزرق الغائم ، هذه الدرجة من الزرقة التى صهرت كل ما عداها ، واحتوت القطار بركابه ومحطاته وأرصفته وإشاراته وساعات رحيله وأيام طوافه ، تلك الزرقة التى لا تموج فيها والتى ولجت مشارفها بعد ثلاثة وأربعين سنة من تلك اللحظة ولكن .. قُدِّر لى أن أصفها بعد استيعابى وإدراكى .

***

الأولياء

مَنْ قصـد الصعـيد فى تلك الأيام ، وبـلغ عمرى الآن ، لا بـد إذا أمعن الذاكـرة أن يستعيـد ملامح هـذا الشيخ الجليل ، الممتلئ قليـلاً ، عمـامتـه خضـراء ، صوته أجـمل وأغرب مـا عنده ، أما الجَـمال فإننى لـم أعرف له مثيـلاً رغم هيامى بالسمـاع وميلى مع كل صوت حبـوب ، طروب ، نفاذ ، وأمـدى هنا قديم ، أمـا أنه أغرب ؛ فلقـدرته على إصدار أصـوات الآلات الموسيقية ، من عود وكمان وناى وأرغول وآلات إيقاع وقانون فكأنها ماثلة أمام الركاب ، ثم يبدأ بالصلاة على المصطفى المختار عليه الصلاة والسلام ، ويثنى على آله وصـحابته ، ثم يبـدأ بذكر من مـثواه فى مصـر منهم ، أولهم طبعـاً حبـيبنا ومـولانا سيد شـباب أهل الجنة ، ثم تتـوالى الأسمـاء مقـترنة بالمراقد وأماكن النواحى الضامة لها .

يصمت الجميع مصغين له ، يتمايلون على درجات صوته ، عندى يتغير الضوء الحاف به ، وأقصده ببصرى آمناً مطمئناً ، راغباً فى السعى إليه ، كان يظهر دائماً فى التوقيت عينه ، أى فى المكان ذاته ، ما بين العياط والبدرشين،

حيث يبدأ تكاثف النخيل وتتوالى الأهرامات الخفية، الظاهرة .

إذ يفرغ بشق مـا بين المقاعد راسـخاً ، ثابتاً ، لا يميل ، يتطلع إليـه الكافة بمهابة ، لا يمدون إليـه قرشاً أو أى نوع من الـهبات ، بل يوزع على الجـميع طلاته الباعثة للدعة ، ويختفى عند الباب المقبل .

العجـيب ، أننى ما حللت ضـريح أحد الأولياء الذيـن ذكرهـم ، ولحظة اجتيـازى الباب الفاصل ما بين خارج وداخل إلا وينبـعث صوته ذاكراً اسم صاحب المقام ، والمكان ، لكنه لا يأتينى من بعيد ، إنما من عندى ، منى ..

***

فرجة..

حتى ذلك العام لـم أتعرف على البـحـر ، بالضبـط سنة واحد وسـتين ونسعمائة وألـف ، تجاوزت السادسة عشر بشهـرين ، فى يوليو خرجت من بيتنا فى الجمالية بصحبة والدى ، مرتدياً زى فرق الفتوة العسكرى الرمادى، قصدنا محطة مصر حيث تجمعت كتيـبة مدرسة العباسية الثانوية الصناعية ، أصر أبى على صـحبـتى ، على توديعى ، إنها المرة الأولى التى أغـيب فيـها أسبوعين متصلين عن البيت ، صحيح أننى خرجت مع فريق الكشافة خلال دراستى الإعدادية فى رحلات إلى القناطر الخـيرية وإلى حلوان وإلى ساحة مسـجد الحاكم بأمـر الله الذى كان خـرباً فى ذلك الحين ، لكننى لم أركب قطارات ولم تطل غيبتى إلا ليلة واحدة ، الأمر هذه المرة يختلف .

عندما أصبحت فرداً فى التجـمع ، وانتظمنا صفوفاً للاتجاه إلى القطار ، ودعت أبى بالنظر ، صرت مرحاً ، خفيف الخطى ، ذلك أننى وقفت على ما سرّنى ، لأول مرة سأركب الاتجاه المضاد ، الرصيف مغاير ، والعربات تتجه إلى بحرى وليس إلى قبلى ، سيتـاح لى الوقوف على ما يوجد هناك ، رؤية

التفاصيل المغايرة ، أرض أراها للمرة الأولى ، بعد تحرك القطار المتمهل فى البداية ، المتزايد ، بعد أن نما إلى سمعى صفيره المتصل هفا قلبى إلى أهلى ، وعرفت تلك العكمة التى ستفجأنى كلما شرعت صوب رحيل ما وإن اختلفت الشدة من مرة إلى أخرى ، فندقت عيناى لتحتويا ما يراه البصر ، محطات مختلفة ، ليس فى الأسماء فقط ، إنما فى المظهر ، ربما بتأثير الحقول الممتدة الخضرة ، شاسعة الأفق ، قصية الحد . بنها ، بركة السبع ، طنطا ، كفر الزيات ، دمنهور ، كفر الدوار ، سيدى جابر ، محطة النهاية شاسعة ، تبدو أفسح وأرحب من محطة البداية ، سقف حديدى شاهق ، مكان منتظم الأطر ، له مهابة .

انتقلنا إلى قطار آخر ، العربات أضيق ، السرعة أبطأ ، لكن ثمة نسمات هفهافة وصلت إلينا عبر نوافذه ، قادمة من هناك ، من المدى . لينة لم أعرف مثلها ، أحياناً فوق سطح بيتنا القديم ، أثناء وقوفى محدقاً إلى الأفق ، نسمات خريفية عذبة ، لكنها تنقطع أو تقوى فتثير قشعريرة ، تلك مغايرة .

ها هو ..

بالضبط ما بين محطة المنتزه والمعمورة ، فرجة تتخلل البيوت ، طريق ضيق يؤدى إليه ، ينحدر صوبه ،كل الطرق كما عرفت وعاينت فيما بعد تؤدى نحوه ، أو تمضى بحذائه ، غير أن لونه أينعنى وجدد حضورى وثبتنى على التوق اللامحدود ، والشوق الدائم إلى الضفاف غير البادية ، وألمح لى بمرجع الأبدية ، خاصة اللون !

لحظة فارقة ، دافقة ، ورغم أننى لمحته على البعد لكن الصلة استؤنفت

على الفور ، قديمة لم أعرفها فى وعيى ، وإن ظلت كامنة حتى آثارها رؤيته فى ذلك النهار السكندرى ومن خلال القطار .

درجة من الزُرقة العميقة ، أزرق يولد من مثله ، متصل بأفق يعلو مرتفعاً بصداه ، توجهت إليها ، ليس بالنظر ، ولكن بكل ما يمكننى إرساله أو تلقيه، وهذا وضع بدأته فى تلك اللحظة ولزمته مراراً فى أطوار أخرى ، لكن شرط نشوئه لا يكون إلا فى مواجهة البحر ، أو فراغ ما ، أفق أطل عليه من نافذة ، شرفة على واد ، أو ذروة مرتفع جبلى ، أو أثناء تحليق علوى فوق البحر المحيط أو إحدى القارات الست ، عندما ألزمه يكتمل انفرادى وتوحدى ، لا يعادل ذلك إلا اللحظات التى تسبق نومى ، وأبلغ فيها أقصى توحد بالذات ، بى ، وهذا من طبيعة الإنسان وكل المخلوقات الساعية ، فلا أحد يدلج إلى النوم بصحبة آخر . الأصل فى الوجود الوحدة والعدم الذى ربما يؤدى إلى وجود آخر .

قبل تلك الطلة ، انفجار هذه المشاهدة . لم أر البحر من قبل ، سمعت عنه من أبى عندما تحدث عن أقاربنا الذين رحلوا إلى الإسكندرية ، أحياناً يعنى بالبحر النيل . هكذا يطلق عليه أهلى فى الجنوب ، البحر يعنى هناك النهر خاصة فى زمن الفيضان المعروفة بالدميرة ، وفيها كانت تحاصر جهينة الشهور الأربعة الصيفية ، كان الوصول إلى ديارنا فى ربع حسام الدين لا يتم إلا بواسطة قارب ، فى الحارة سمعت بسفر أسرة عم حسن المسحراتى للتصييف ، امرأته البيضاء ، الدلوعة ، تصغره سناً ، هناك ترتدى المايوه وتنزل إلى البحر مثل بطلات فيلم السابحات الفاتنات الذى عرضته سينما الكواكب فى الدراسة .

لا شيء يدل على البحر إلا الموج وتدافعه ولطمه اليابسة وزبده الأبيض والمدى ، لا السينما ولا اللوحة ولا الوصف مهما دق . هذه الزرقة كونية المصدر علقت بذهن ، ونزلت منه موقعاً مرجعياً ، لعلى أفيض فى تدوين آخر عن البحر ، التفاصيل شتى والبلاغ خضم .

بلغنا المعسكر ، خيام منصوبة بترتيب وانضباط ، توزعنا عليها ، ثلاثة فى كل منها ، لا يفصلنا عن البحر إلا رمال الشاطئ ، الناعمة ، الخصبة ، العتيقة ، مبان متناثرة تخص الصيادين ، مقاهى بسيطة مشرفة ، لم أجلس بها . لم أعرف بعد عادة التردد على المقاهي منفرداً ، لكننى بدأت التأمل وتسديد البصر ، لم أتعلم العوم ، ولم يكن لدىّ لباس بحر يمكننى من النزول إليه وملامسة جسدى لمائه ، اكتفيت منه بالنظر ، وتعددت منذ تلك الفترة مرات نظرى إليه ، ومواضع وقفاتى ولهذا تفصيل يطول .

ارتبط عندى البحر بالرحيل ، لا أقدم على دخول إحدى المركبات . فى أى مكان أرحل إليه أو منه إلا وجرى عندى الشروع فى رؤية البحر ، يداخلنى يقين جموح بمرورى على بحر ، أو نزولى قرب شاطئ ما ، أو عبورى مدينة صغيرة تطل عليه ، ولا يخطر لى ذلك إلا وتمثل أمامى تلك الفجوة الزرقاء ، تماماً كما لاحت بادية لى من نافذة مؤدية ، أستعيدها حتى لو كنت ساعياً إلى قلب صحراء شاسعة نائية تماماً عن البحر المحيط ، لكن يقينى هذا لا يلغى ثبات أمرى ومؤداه ، أن ثمة بحر عند كل أفق ، وأى قصد بالغه يوماً .

***

نسبية

بعد شهور قليلة ركبت القطار مرة أخرى ولكن إلى الجنوب ، لأول مرة أولّـى وجهى صوبه منفرداً ، بدون أهلى ، بصحبـة زملاء جمعتنى الدراسة بهم ، وكما تفرقنا أيام العطلة ستباعد بيننا الأيام حتى ليجىء يوم أجتهد فى استعادة ملامحهم فلا أبلغها ، وأعتصر خزائن الذاكرة لأقف على أسمائهم فلا أجدها ، ها أنذا بالغـه عند بدئى هذا التدوين ، فما أقرب ومـا أبعد ، ما أيسر ومـا أعسر ، حقـاً .. إن الأمر شبـيه برؤيا الموجودات من خـلال نافذة قطار مسـرع ، مكتمل الاندفـاع ، يتطلع الراكب من النافذة فـلا يمكنه رؤية الأرصفـة المحاذية ، والمبـانى المطلة ، والأشـجار المجاورة والمبـانى المشـرفة، يعسـر عليه قراءة لافـتة عـريضة تعلن عن اسم محطـة تتجاوزها المركـبات المشـدود كلٌ منهـا إلى الآخر ، لكن .. يمكـن للنظر أن يسـتوعب المرئيـات الأبعد ، الطرق المتصلة ، أو المدن فى مجملها ، الحقول الممتدة ، وكلما نأتْ المسافـة تباطأ الإفـلات وأمكن للراكب التملى والـنظر ، لكن التفـاصيل لا محل لها ، ولا يمكن الإلمام بها .

أرى مسـاء تجمعنا بمدرسة الـعباسيـة الثانوية الصناعيـة ، نرتدى ملابس

الكشافة ، ننتظر الأستـاذ لنتجه إلى محطة مصر ، ميعـاد لم أعرفه من قبل ، لا يمت إلى المنقضى، ما أركن إليه وأنتمى ذلك الذى يتحرك فى تمام الثامنة، إنه الآمن ، الهادئ ، الساعى ، الصـبوح ، المسلم على المدن بحنو ، المصافح للأفق بمودة ، زعقته بشارة ، غير أننى أكتشف الآن بعد اثنين وأربعين حولاً أننى لم أركبـه قط بعد أن انفـردت ، لم أعرفه إلا بصـحبة أسـرتى ، لكننى عندما بدأت الرحيل فرداً لم أقصد إليـه ليحتوينى ، ذلك أننى تقلبت ما بين مواقيت الليل والنهار ، لكننى لم أقـترب ولم أشرع فى الاتجاه إلى الثامنة ، عرفت أن آخر محطة يتوقف عندها الأقصر ، يبلغها فى السادسة تقريباً ، لا يستأنف بعدها . خلال الأعوام التى تلت آخر سفرة لنا إلى جهينة سنة أربعة وخـمسين ، ألمت بما لم أكن أعرف ، أدركـت أن لكل قطار رقـم ، ولكلٍ مدى معين ، فواحد يتوقف فى أسيوط ، وآخر الأقصر وثالث إلى أسوان ، وأن خطوط الجنوب كلها تنتـهى بعد أسوان بمسافة يسـيرة ، القطار محكوم بطريق حـديدى من قـضـيبين يسـعى فـوقـهمـا ، إنه لا يحـيـد ، ولا يمكنه التجـاوز. وقد كنت فى زمنى الأول أراه مندفعـاً بلا نهاية ، لا أحد يوقـفه ، ولا مصد يمنعه ، ولكن مع شبوبى وبدء سعيى ألمت بغير ذلك .

ما اسم الأستاذ الذى رافقنا إلى الأقصر ؟

عتمة تحدق بى ، لا أعرف .

ما أسماء زملائى ؟

لا أقف إلا على محو ، فراغات سدى .

غيـر أننى ملرك للأمـر فى جملتـه ، بل أستـعيـد ما كنت عليـه نضراً ، واضحاً كـأنه جرى بالأمس أو اليوم ، حبورى بالاتجـاه جنوباً ، وتيهى على

أقراني بمعرفتي أسماء المحطات التي سنتوقف عندها مقداراً بدءاً من الجيزة وحتى طهطا ، أحفظها ليس بتأثير من تعاقب سفرى ، ولكن من حنين أبى وشوقه . كان يسند ظهره إلى الوسادة . ينظر إلى السقف ، يذكر بصوت مرتفع أسماء المحطات المؤدية إلى طهطا ، يحفظ أسماءها جميعاً ، وأحياناً يتوقف عند بعضها ليذكر صحباً ، أو يحدثنا عن أحبابه المقيمين أو أولئك الذين رحلوا ، مثل محطة ديرمواس التي يقصدها عند سفره إلى جهينة ، يعبر النيل أمامها إلى قرية "الحاج قنديل" ويمضى إلى حيث الباشجاويش أحمد حسين الذى أنقذه من الموت طفلاً وصار بمنزلة الأب له .

أحياناً ينغم أسماء المحطات وينتهى بالحنين إلى وابور الثانية عشر الشهير ، منه عرفت المحطات وصار لكل منها عندى إطار وملمح خاص لا أدرى مصدره تحديداً ، فملوى تختلف عن سمالوط ، وبنى مزار مغايرة لصدفا أو ديروط ، أما الواسطى فلها السعة والرحابة ، منها تتفرع الخطوط إلى الفيوم وإلى داخل ورش الإصلاح الكبرى ، وكان إذا تعطل قطار أو انقلبت عربة نسمع من يقول إن الونش قادم من الواسطى .

رحلنا ليلاً ، لأول مرة أطّلع على الجنوب مدثراً بالليل والنجوم التى لم تكن تخفيها أضواء المجرة الباهتة ، أحياناً يتوقف القطار ما بين المدن ، أنظر خارج النافذة إلى الحشائش النابتة على جانبى القضبان بغير تهذيب ، ترى.. ماذا يكمن بينها ؟ وماذا بعد تجاوزها ؟ إلى أين تؤدى ؟ ما احتمالات هجوم مباغت ، مدمر ، مفاجئ ، استعدت حلقات مصورة كانت تنشر فى الصفحة الأخيرة من الأخبار ، ثلاثة مربعات متجاورة ، داخل كل منها صورة تعبر عن السطور المكتوبة بأسفل ، على مدى أيام

تابعت توقف الأحداث وقفز المجرمين ذوى الشوارب الكثة إلى ما بين العربات ، فصلوا الأخيرة واشتباك المخبر السرى حسن معهم .

الليل غميق ، والتقدم حثيث ، باعث على الفضول ، لأول مرة أتجاوز طهطا ، تمكنت من قراءة "جرجا" "البلينا" ، "قنا" ، "الأقصر" ، يبطئ من سرعته ، الخط مفرد ، والأولوية لقطارات الدرجة الأولى الفاخرة ، السريعة، الأقل أهمية يركن للأهم ، ربما ينتظر الركاب صابرين أو ضجرين ساعة أو أكثر ، ثم تمرق عربات المفتخر مثيرة للضجيج والغبار ، ما بين الأقصر وأسوان يتمهل القطار ، ربما تطول الركنة ، ينزل السائق ومساعدوه أحياناً لشراء بعض الأشياء من الأهالى ، بلح الصعيد ، أو الأسماك المملحة المحفوظة فى علب من الصفيح أو القفف المجدولة من خوص النخيل الملون، كذلك الأوعية الحاوية ، ينزل الركاب ، يفترشون التراب ، يخرجون عن قعدة العربة وزمتة المكان المغلق بعض الوقت ، بعضهم أمضى نهارين وليلتين . قادمين من الاسكندرية إلى أسوان ، مواصلين بعد ذلك إلى بلاد النوبة . إذ يلمحون السائق متجهاً إلى المقطورة السوداء التى تكتسب حضوراً وديعاً فى تلك المسافات التى لا تنطلق خلالها بأقصى الطاقة ، تغرى المرء بلمسها ، فى لحظات يصعد الجميع ، وربما يكتشفون أن الوقت لم يحن بعد ، وأن انتظاراً جديداً يبدأ .

أثناء وقفة مماثلة فى بلدة دراو ، حاورت شاباً يرتدى جلباباً وعمامة مرتفعة بيضاء ، ومعظم أبناء قبلى يبدأون الحوار بسؤال عن البلد . ثم يذكرون بعض الأسماء الغائبة عن الواقع أو عن العالم ، وربما لم يلتق السائل بمن يذكر اسمه مستفسراً عنه فى البلدة الأخرى ، لكن كل إنسان

يتقرب بالغائب إلى الحاضر .

"من أين ؟"

"من جهينة"

قال متراجعاً إلى الخلف :

"آه .. من بحرى .."

بحرى ؟ أنا من بحرى ؟

كيف ؟

لأول مرة أكتشف نسبية الأشياء ، فما هو قبلى عندى يمكن أن يكون بحرى عند آخر ، وما هو أمامى بالنسبة للقطار يتحول إلى خلفى ، وما يقع فى الشرق سرعان ما يصبح غرباً ، فى كثير من المواضع التى انتهيت إليها وبلغتها من هذه الدنيا كنت أعيد اكتشاف هذا الأمر ، وأستعيد دائماً محطة دراو التى لم أتوقف بها إلا تلك المرة ، لم أنزلها ، ولم يتمهل أى قطار ركبته فيما بعد أمامها .

فى ذلك السفر بلغنا أسوان ، كانت مدينة صغيرة ، هادئة ، ضيقة الشوارع ، منفى للموظفين المغضوب عليهم ، فيها رأيت أول عملة مغايرة، قروش سودانية يتداولها الناس ، وقفت على لقاح النهر للصخر ، وأبدية الحضور ، وسريان الموج فوق صخور الجنادل ، وعلقت عيناى بقبة أبى الهواء ، وتحسست رخام ضريح أغا خان المشرف ، المطل ، وأعجبت باختياره موقع رقدته الأبدية ، وبلغنا موقع إنشاء السد العالى ، فى الطريق رأيت الرجال يمدون الخط الحديدى الذى سينقل المعدات إلى موقع العمل ، فلنكات خشبية مصفوفة بنظام معلوم على مسافات متقاربة ، قضبان

حديدية مفردة غير مصفوفة أو مثبتة .

موقع السد ينتظر دبيب البشر ، مرتفعات ومنخفضات من الصخور والرمال ، ستتغير وتتبدل معالم دامت ملايين الدورات حول الشمس ، عند منعرج النهر أشار من يصعب عليّ تذكر ملامحه الآن .

"هناك سيكون السد .."

فقط خيمة وحيدة منصوبة تحتها نموذج متقن لما سيكون عليه السد ، ومحطة الكهرباء ، وبحيرة ناصر التي ستمتد خلف السد أو أمامه ، لوحات محيطة توضح مراحل العمل ، رسوم بيانية ، أرقام تشير إلى الكميات التي ستستخدم ، أما سقف الخيمة فمنقوش عليه البروج الاثنى عشر .

صورة تتصدر مدخل الخيمة

جمال عبد الناصر في عز فتوته ، إلى جواره الملك محمد الخامس ورئيس عربي لا يمثل عندي الآن في ذاكرتي ، الثلاثة يضغطون زراً ليفجر أول عبوة ديناميت في الموقع الذي سيتم عنده تحويل النهر . إنها الضغطة الإشارة ، تمت قبل وصولنا بأربعة أيام لا غير .

إنه يناير

بقايا الاحتفال ، سكون ينبئ بما كان ، لا يدل على ما سيكون ، أثناء عودتنا راكبين عربة نصف نقل رأيت عمالاً منحنين بدأب ، بهدوء ، بحركات متوالية ، يمدون الخط الحديدي بعينين مغايرتين ، ثمة مرجعية أضيفت إلى ذلك المكان القصي ، النائي ، بدأ انفجاره .

***

وقفة

محطة ..

لا يمكننى تحديد موقعها ، وجه قبلى أم بحرى ؟ ، حقول على الجانبين ، أعمدة التلغراف المحاذية ، سماء زرقاء صافية ، هذا الأزرق الصافى الحُلمى ، رصيف يتسع لوقوف سريع مفتخر ، لكن البناء صغير ، مجرد مكتب داخل غرفة وحيدة جدرانها من طوب أحمر معتق ، نوافذها مستطيلة من خشب أخضر ، مغلقة باستمرار ، لا يعلم أحد آخر مرة فُتحت، لافتة رمادية ، حروف سوداء متآكلة ، باهتة .

كافة المحطات تقع بمحاذاة الخطوط ، لو أقيمت بعيداً لما اكتسبت المعنى، فلابد من طريق للمحطة ، ولا بد من محطة للطريق ، كلاهما متمم للآخر، إذ لا يمكن للطريق أن يمضى إلى ما لا نهاية . فلا بد من وقفات ، والوقفة محطة ، والمحطة إطار للحيز وتحديد للَّحظة . كل الأرصفة متساوية من بداية الخط إلى آخره ، لكن رغم التشابه فى المظهر إلا أنها تختلف فى الجوهر .

ثمة محطات رئيسية كبرى ، عندها تتلاقى الخطوط القادمة ، وتتفرع الذاهبة ، وإن كان الأمر نسبى دائماً ، فأحياناً تصبح الآتية مولية ، والماضية مستقبلة ، لكن ثمة إجماع لتيسير الأمر فى الظاهر . على الطريق محطات رئيسية، أحياناً تتعين بوجود مدن كبرى أو مراكز مهمة، أو يحدث العكس، إذ يؤدى إنشاء محطة عند نقطة ما إلى وجود حياة بأكملها ونشوء مركز .

تلك المحطات المنسية رغم اكتمالها ، لماذا أنشئت أصلاً ؟ ولماذا لا تتوقف عندها القطارات ، حتى البطىء منها ، والبضاعة ، والناقلات الصهاريج ، ربما كانت ذات أهمية عند نشوئها ولكنها فقدت بسرعة مكانتها ، ربما تستعيدها يوماً ، لكن هذا مرتبط بظروف متشابكة ، متقاطعة، تماماً كمنطقة تلاقى الخطوط الآتية والذاهبة .

تمر القطارات بها مكتملة الطاقة . دائماً تهدئ سرعتها عند الاقتراب من المزلقانات والجسور ونقاط العبور واجتياز المدن العامرة ، لكن تلك المحطات المنسية لا يعبأ بها السائقون . إذا بحث الإنسان عنها فى جداول الحركة والتشغيل فلن يجد لها ذكراً. يطلع حولها النبات العشوائى ، الهيش وذقن الباشا والمسك .

يظهر فوق أرصفتها غرباء ، عابرون ، يجلس أحدهم القرفصاء أو يتمدد فوق الرصيف أو الدكة الخشبية إذا وُجدت ثم يمضى ، لا تبدو على أحدهم علامة انتظار أو سمة توقع ، ربما تضع امرأة حملها أمامها . قفة من خوص ، أو بُقجة تنطوى على قماش وما لا يمكن استنتاجه أو طِشت معدنى يحوى جبناً أو فجلاً أو برسيم .

دائماً تبـدو الأرصفـة الخالية حتى لو توسَّد جـزء منها أحـد الضالين ، التائهين ، الشاردين ، أو الضاربين فى الأرض ، لا يكون امتلاء الأرصفة إلا بقدوم المسافرين أو ذهابهم وما يتعلق بذلك ، كما لا يكتمل البناء إلا بإقامة البشر وسعيهم خلاله، وقوف يمنح للمحطات والأرصفة المعنى، والعكس.. إذ تكتسب المركبات حيويتها وقيمتها من الوقفات قلَّت أو تعددت .

أذكر إحداها ، أستحضر ملامـحها ، جدران تتخللهـا نوافذ ، ممر يظلله سقف خـشبى ، دكة واحـدة ، أين ؟ لا أدرى ، علي أى طريق ؟ لا أدرى ، لكن مجرد استعادتها يثير عندى رجـفة خوف ، وخشية غامضة حتى لأتمنى زوالها الأتم ، رغم أننى لا أراها إلا بالمخيلة !

عرفت الوحدة القصوى فى تلك المحطات المنسـية ، توقفت عند بعضها منذ أن بدأت أسفارى وتعددت مرات ترحالى . ليس داخل مصر فقط ، إنما فى كل بلد نزلته ، ما من خط حديدى ممتد إلا ونجد عليه محطة أو محطات خرجت من ذاكرة الناس والأماكن ، موجودة وغير موجودة .

***

تفريعات

للوجه القبلى الوضوح والتوالى المنتظم ، خط حديدى رئيسى يبدأ من محطة مصر وينتهى عند الشلال ، لا يتفرع منه إلا خطوط محدودة ، فمنها ما يبدأ من محطة "الواسطى" إلى الفيوم ، وتلك نقطة محورية ، ويعنى بلوغها عند صعودنا جنوباً أن النأى عن القاهرة بدأ ، فى العودة يعنى عندى رؤية أرصفتها أن العاصمة دنت وأوان الوصول اقترب . "الواسطى" مؤدية إلى الفيوم ، توجد أيضاً بعض ورش السكك الحديدية ، قاطرات تنتظر الإصلاح ، أوناش الإنقاذ الثقيلة . وآخر خط فوقه العربات التى خرجت من الخدمة . يستمر الخط وحيداً مفرداً حتى نجع حمادى ، ثمة آخر فرعى يبدأ وينتهى فى الواحات القصية كان يمر به قطار واحد فى الأسبوع ، بطىء، متعب ، عرفته من وصف السجناء وبعض الركاب ، ثم وقفت على بقاياه بعد أن بطل العمل عليه وبه ، إلى أن طالعت خبراً حول تجهيزه من جديد على أن تعمل عليه ثلاث قاطرات أسبوعياً . ثم تفريعة أخرى عند كوم امبو ، تخص مصانع للسكر . فى رحلتنا الكشفية تجولنا فى حقول القصب الكثيفة ، الممتدة ، وصلنا فى أوان الحصاد ، اصفرت الأعواد التى

تمكث فى الأرض سنة أو أكثر قليلاً ، عصير رائق ، عذب ، لم أعرف حلاوة تماثله ، زراعات القصب أشد كثافة ، قال أحدهم إذا أطلقت رصاصة بندقية فإنها لا تستمر أكثر من صفين أو ثلاثة على الأكثر ، الأعواد المتراصة المتجاورة صماء التكوين ، لذلك يقال إن الأمل ينعدم فى إدراك مجرم فار إذا تأكد القوم من دخوله إلى القصب .

وسط تلك الكثافة يمتد خط حديدى ، فوجئت ، أقف عند نقطة يصعب تحديدها الآن ، ذلك أن ست وثلاثين سنة مضت ، انطوت ، ما رأيته ، لم يعد قائماً أو موجوداً .

بدا مغايراً لكل ما عرفته ، عرباته مكشوفة ، صغيرة ، أضيق ، لا تحمل إلا عيدان القصب ، جافة الشكل ، مرتوية الداخل ، قاطرة سوداء أقل حجماً بكثير من تلك التى عرفتها زمن طفولتى ، ذات المهابة والهدير ، قاطرة القصب تلك أنثوية ، منخفضة الارتفاع ، مقعد السائق مكشوف ، مدخنتها مثل قمع السكر شكلاً ، كبيرة بالقياس إلى الجسم الاسطوانى ، صفارتها نحيلة . رأيت ما يشبه تكوينها فى أفلام رعاة البقر ، وحلقات زورو التى كانت تعرضها سينما الكواكب على امتداد أسبوع .

هذا ما عرفته وعاينته من فروع الخط الجنوبى الرئيسى ، إضافة إلى خط قصير يصل مدينة أسوان بمناجم الحديد ، شددت إليها الرحال فى قيظ أغسطس سنة تسعة وستين ، زمن فتوتى وشروع أشواقى . بداية عملى فى مهنة الصحافة عندما نويت الذهاب جنوباً فى ذروة الصيف . إلى المناجم تحديداً ، قطار بطىء ، تغطى عرباته ومقاعده ذرات الحديد الحمراء ، أتطلع إلى العمال ، إلى ملامحهم راضياً بمثولى بينهم .

لم أستطع حصر كافة فروع الدلتا ، أهم الخطوط ما يصل القاهرة بالاسكندرية ، إنه الأول فى بر مصر ، أنشأه المهندس الانجليزى ستيفنسون مخترع السير بالطاقة البخارية بعد صدور إرادة سنية من الخديوى عباس حلمى الأول ، جرى ذلك بدءاً من سنة أربعة وخمسين وثمانمائة وألف ، اتخذت ترتيبات عديدة لتيسير إنشاء هذه المنفعة التى لم تعرفها إلا انجلترا ومصر فى ذلك الحين ، حتى ليتحدث المؤرخون عن انبهار الخليفة العثمانى عبد العزيز عندما زار مصر ، وشاهد القطار لأول مرة فى حياته ، فعقب انتهاء زيارته للاسكندرية توجه إلى محطة السكك الحديدية ، حيث كان القطار الخديوى فى انتظاره ، وكانت حاشيته تضم ابنه الأمير وأركان دولته، فلما رأى المركبات أخذته الدهشة واستفسر عن تلك الأعجوبة .

بعد خط اسكندرية أنشئ خط السويس ، ثم امتدت القضبان باتجاه دمياط والزقازيق والدلنجات والمناشى ، تفرعت كما تنتشر الخطوط فى ورقة شجر ، بل إننى أثناء أسفارى فى الوجه البحرى عبرت أو رأيت قضباناً ممتدة لا أعرف أين نبدأ وإلى أين تنتهى ؟ . غير أن ما يمثل عندى ذلك القطار المعروف بالفرنساوى عرفته أثناء أداء مهمى الوظيفى كأخصائى سجاد ، وعندى منه شوارد وصور وملذات !

***

الفرنساوى

عرفت الأسفار منفرداً منذ بدء اشتغالى رساماً وأخصائياً للسجاد الشرقى ، بدأت سنة ثلاثة وستين . بعد تخرجى بحوالى عام ، كان مقرى فى الدقى ، قرب جسر الجلاء ، حيث المركز الرئيسى للتعاون الإنتاجى ، مؤسسة مستحدثة فى ذلك الزمن العامر بالرؤى والأحلام ، كنت أنمنم الزخارف التى ستغطى السجاد ، وبين الحين والآخر أرحل لمتابعة تنفيذ تلك اللوحات ولتفقد الأحوال بالمصانع الصغيرة التابعة مباشرة للمؤسسة ، التحقت بها وأنا دون الثامنة عشرة لتخرجى صغير السن إذ حصلت على الدبلوم ولى من العمر ستة عشر عاماً وشهور قليلة ، بمجرد إتمامى العتبة المؤدية إلى الثامنة عشر قدمت أوراقى وبدأت أسفارى ، وهذا أوان تعرفى على أنحاء مصر قبلى وبحرى ، مدن لم أرحل إليها من قبل ، وقرى نائية شرق النهر وغربه ، واحات الصحراء الغربية المترامية . لم تعد هناك جهة تثير فضولى لاستغلاقها علىّ ، عرفت الركوب من أرصفة محطة مصر جميعها ، وأيضاً من محطة كوبرى الليمون حيث بداية الخط المؤدى إلى السويس وإلى المرج والخانكة وشبين القناطر ، فى تلك الأيام كانت هذه

المحطات تثير الإحساس بالبعد ، فى المدرسة كان زميلنا سعيد يسكن عزبة النخل ، إذ نمضى إليه لزيارته أو مذاكرة دروسنا معاً نعتبر أنفسنا على سفر، كان يسكن بيتاً من طابقين تحيطه حديقة ، يطل على ترعة خضراء الضفتين، والده يعمل بالسكك الحديدية ، تلك البيوت تتبع المصلحة الأميرية ، يسكنها المفتشون والمحصلون وسائقو القطارات والمساعدون المعروفون بالعطشجية ، مع الوقت تكاثفت المبانى ، وأصبح المرج ضمن نطاق القاهرة، وانقطعت عن عزبة النخل ، وعن سعيد صاحبنا إلى أن قابلته مرة أول السبعينات صدفة ، تصافحنا وتبادلنا المودة والعتاب لانقطاع كل منا عن الآخر ، كان رياضياً ، معنياً بنفسه ، شهماً ، فائض المودة ، قال إنه التحق بالمخابرات العامة ، ولم أشأ الاستفسار عن مزيد ، ثم مرت أعوام قبل أن يخبرنى شخص ما أنه يعمل فى حراسة المبنى الرئيسى ، لكننى لم ألتق به قط .

كان القطار الذى يصل كوبرى الليمون بعزبة النخل بطيئاً ، متواضعاً بالنسبة للوجه القبلى ، غير أن الفرنساوى كان مختلفاً تماماً ، اسمه الرسمى قطار الدلتا ، لكنه معروف بين الناس بالفرنساوى ، لماذا ؟ لا أعرف ، رغم أن الشركة التى أسسته انجليزية فى الأصل ، كانت قضبانه نحيلة ، المسافة بينها أضيق مما عهدت والفلنكات أرهف ، عرفت فيما بعد أن سائر الخطوط فى مصر من نوعين ، عادى ويبلغ عرض ما بين القضيبين أربعة أقدام وثمانية بوصات ونصف ، وضيق ، عرضه ثلاثة أقدام وست بوصات، إلى المقياس الثانى يمت ما رأيته فى حقول قصب السكر الجنوبية والفرنساوى ، كان يبدأ من مدينة المنصورة ويتجه إلى عدة أنحاء منها

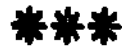
البـراري ، ودكرنس ، ودمـياط ، ركبـته إلى بلـدة سلامون الـقماش حـيث توجد وحـدة لصناعة السـجاد ، ريف مغـاير لصعيـدي ، الخضـرة مطلقة ، التربة أغزر ، ألين ، أرطب ، عتيـقة في البلل والارتواء ، لم أعرف زراعات الأرز المنتشرة عبر تلك المساحـة الكلية ، تكاد تكون قاصرة على بحرى عدا مساحة مـحدودة عاينتها قرب مدينة ملوى ، مـا زال لوقع الأخضر النهارى المنبعث من زراعات الأرز صداه عندى ، لا أحتويه بنظرى إلا ويلوح عندى تفـاؤل مهـمـا علقت الكدورات . ذلك أنهـا درجة من الخـضـرة البراقـة ، الناصعة ، ذات المستوى الواحد ، فـلا درجات ولا ظلال عبر ساعات النهار كلها . خـضرة مـشبوبـة ، متطلعة ، متمكنة ، وكـما اعـتبرت قطار الـثامنة مـرجعـاً أسـتـعيـده وأتخـذه للمـقارنة صـار الأرز الأخـضر علـى ضفـتى الفرنساوى أصـلاً لذلك اللون ، أسعى لرؤيته ، وأقيـس عليه ما أراه فى أى مكان بالعالم بلغته ، وللأخضر عندى منزلة ، لعلى أفصلها فى دفتر الألوان إذا ما ساعدنى الوقت وآزرتنى القدرة .

عربات صغيرة كأنها قدت من صفيح ، مطلية بلون أحمر طوبى ، أحمر مترب ، مقاعد خشبية نحيلة ، غير أن هذا المتمهل العتيق الذى يتهكم القوم عليه زمن رؤيتى له لبطئه وكثرة أعطاله ، وشدة تداخله مع القوم فى حياتهم اليومـية ، لذلك هان أمره ، كلما كـان القطار أسرع وأشد ضجـيجاً وسعـياً ويتبـعه عدد أكبـر من العربات بدا مرهوب الجـانب ، منيعاً على مـا عداه ، يخشـاه الكافة حتى وإن لم يواجهـوه مباشرة عند اضطرارهم الـوقوف أمام المزلقانات حتى تمام الاجتياز أو تراجـعهم بعض الشىء فوق الأرصفة لحظة دخوله المحطـات أو عبورها بسـرعة . صـفارته الغـامقة ترسـم حدود المدن

ومدى أفقها البين فتثير وتقلّب وتستدعى ، هذا حال القطارات الجبارة القاطعة للمسافات الطوالي، أما الصغير منها ، البطىء ، الذى يتوقف سائقه عند أى إشارة من عابر فإنه مادة لأحاديث الناس وتعليقاتهم المرحة وموضوع لتعاطفهم أيضاً ، هذا ما كان عليه أمر الفرنساوى .

عرفته مرات عند تنقلى من المنصورة إلى البلدان المتصلة بها . خاصة سلامون القماش ودكرنس ومنية النصر . غير أنه ارتبط عندى بلذة الاقتراب من الأنثى ولذلك تفصيل ، حتى هذا الأوان لم أعرف المرأة إلا بالخيال وعبر ما تثيره القراءة . وصور الممثلات وعارضات الأزياء وسائر ما ينشر فى المجلات المصورة ، حدث عند ركوبى من المنصورة قاصداً سلامون أن رأيت زحاماً جُله من فتيات المدرسة الثانوية . كن ناهضات ، فواحات بالعبير الأنثوى ، يتحامين فى بعضهن متقاربات ، متحدثات ، متهامسات ، متطلعات إلى الحياة فى نصوعها وانطلاقاتها ، ركبت بصعوبة، ولم أسترح لوقوفى بينهن فبدأت أتحرك لأصل إلى آخر العربة محدودة الاتساع وأستند بظهرى إلى جدارها المصمت بعيداً عنهن ، مستمتعاً بالنظر إليهن وتنسم عبير الإناث الخاص ، المنبعث من أعطافهن وسر تكوينهن واستداراتهن ونفور النهود واكتمالات الأرداف اللواعج ، يملن ويتدافعن مع اهتزازات العربات وتكأكؤها المفاجئ ، فى المحطة التالية صعد ركاب آخرون ، رجال ، نساء ، فلاحات يحملن البرسيم الأخضر والجبن القريش فى الأوعية ، اضطرت التلميذات إلى الانضغاط داخل العربة والتقهقر باتجاهى ، فوجئت بقوام فاره ممتلئ ، ضاج بالحيوية يلامسنى ثم يندفع تجاهى فيتم أمرى .

الجدار خلفى والأنثى أمامى ، لم تكن أمامى بالضبط ، لكنها متوغلة فى، عذرى أنها قادمة ولم أسع ، أشرعت حواسى كافة فى إطار ذلك التواطؤ الجميل منها ، من الكافة ، تنسمتها ولم أكن بحاجة كى أدفع جسدى إلى جسدها ، إذ امتلأ نصفى الأسفل بفيض ردفيها حتى أدركت مفرقهما وانحناءاتهما ورخص ليونتهما القاسية فاتقدت نيران حامية ، دافئة سرت من صلبى إليها ، أيدتنا العربة المتعبة المتهالكة بتمايلها واهتزازاتها وانكفاءاتها إلى الإمام التى يعلو معها صراخ بعض الفلاحات والطالبات ، واحدة منهن تطلعت ناحيتى ، ابتسمت ثم ولت مبتعدة بنظراتها ، ولم أعبأ، ولم أنتبه ، إذ بلغت الهزهزات ذراها ، وكان جسدانا يتعرفان على بعضهما بمعزل عني وعنها ، يلوذ كل منهما بالآخر ودام ذلك حتى نزولها قبلى فأغمضت عينى وصرت إلى زخارف من الرغبة المتقدة ذلك أننى كنت فى عنفوانى وفيما تلى ذلك لم ينقطع عنى حضورها وتناغمنا المستحيل وسعيى إلى فتوتها وإدراكها بالخيال ؛ حتى نزفت من أجلها جُلّ صلبي ومبتغى ترائبى .



مطر

حتى الآن لا أعرف بالضبط كيف وجدت نفسى بمفردى فى مواجهتها داخل مقصورة الدرجة الثانية المغلقة ، المحكمة ، بالتأكيد يوم شتوى ، رمادى ، غامق ، سماء غيومها دانية . مثقلة بزخات مطر جرت وأخرى بادية متوقعة . موضع ما على الخط الحديدى ، ما بين دمنهور والاسكندرية، إذ توشك الدلتا على انتهاء ، ويبدو حضور البحر فى السماء ، فى الأفق ، ويتكاثف النبات من شجر ومزروعات شتى قبل بلوغ الشاطئ الرملى المؤدى إلى الخضم .

لست متأكداً .. ربما الخط الحديدى بين المنصورة ودمياط ، وربما ما بين مدينة كفر الشيخ وبلطيم . المؤكد أن السماء شتوية ، والتوقيت قبل الظهيرة، وتواجدى داخل عربة الدرجة الثانية المقسمة إلى قمرات ، كل منها تحتوى على أريكتين عريضتين متواجهتين مكسوتين بالجلد الأخضر ، كل منها مقسمة بثلاثة مساند ، مجمل السعة ستة أشخاص ، أى يجلس ثلاثة فى مواجهة ثلاثة ، المؤكد أيضاً أننا لم نكن بمفردنا منذ البداية، ثمة

أشخاص غادروا لسبب ما ، القطار يقف بعيداً عن المحطة ، وهذا يعنى سبب لا أعلمه ، لا أعرف تفاصيله ، لكنه متصل بنزول المطر الغزير ، وأعطال الطريق المترتبة .

المقصورة باردة ، هادئة ، عقيمة من أى صوت ، فى مواجهتى علقت لوحة فوتوغرافية لمعبد فرعونى من الأقصر ، حتى ذلك الحين كانت عربات الدرجة الثانية نظيفة ، أنيقة ، مريحة ، هادئة الطابع ، مزينة باللوحات الفنية، والصور الملتقطة ، لمعالم ذائعة ، وآثار قائمة ، ومنذ أن بدأت أسفارى حق لى ركوب الدرجة الثانية العادية ، لكل وظيفة درجة ، ما زلت فى البداية ، إذا ركبت وتمكنت من الثانية المكيفة لا بد من دفع الفرق ، ثلاثة مليمات لكل كيلو متر مربع . لكن لم يحدث هذا إلا نادراً ، ربما مرة أو مرتين خلال ست سنوات من عملى بالمؤسسة ، ذلك أن ما أتقاضاه مقابل اليوم الواحد كان قروشاً قليلة تفى بالكاد ، بالضبط ، أربعين قرشاً ، وبأسعار ذلك الزمان كانت تكفى للمبيت فى فندق متواضع وطعام يسير ، إلى أين أقصد عبر الرحلة فى هذا التوقيت ؟ لا أدرى ، ما من أثر الآن ، كل ما أراه بوضوح انفرادنا .

فى البداية لم أصدق ، كأنى أكتشف وجودها للمرة الأولى مع أنها ماثلة أمامى ، نظرت إليها من قبل فلم تلفت نظرى إلا بجلوسها إلى جوار النافذة وشبوبها لرؤية ما يبدو من الخارج ، بل إن ما تركته عندى من أثر لم يكن مريحاً ، ملامحها عادية ، مظهرها فى مجمله متنافر ، أقرب إلى النشوز ولا أقول بالقبح ، فلا توجد أنثى قبيحة فى العالم ، إنما يوجد إنسان منفر ، ربما يكون من هذا الجنس أو ذاك . قمت واقفاً ، فتحت الباب ،

مشيت عبر الممر الضيق من أوله إلى آخره ، لم أجد أى إنسان ، لا رجل أو امرأة ، نظرت خارج العربة من نافذة الباب ، لم ألمح أى بشر يسعى ، عربات هامدة واقفة هنا وهناك بدون ركاب ، لا ترتبط بقاطرة ، دققت البصر ، لا أحد ، الغيوم الثقال تضاعف من الخلاء والوحدة ، أنثنى إلى المقصورة ، أغلق الباب ورائى ، كما كان بالضبط . أعود إلى مكانى فى مواجهتها ، كأنها لم تشعر بى ، لم تلحظ ذهابى وعودتى ، تتطلع صوب نقطة ما .

أسدد البصر ، منشباً نظراتى فى ملامحها . كيف لم ألحظها ؟ كيف لم أنتبه إلى سمرتها الناعمة ، عينيها الواسعتين ، شعرها الغزير ، إلى نحولها الحاض على الضم والإيواء ؟ يتقد داخلى ، تتسارع أنفاسى المتسقة مع زمنى الغض ، العفى ، على مهل تحيد إلىّ ، أومئ مبتسماً ، داعياً ، تائقاً ، تنفرج شفتاها ، تتضاجع نظراتنا ، لا تنصرف عنى ، خلو العربة وذلك الفراغ المدثر بالمطر والبرد والدافع إلى الانزواء بعيداً عن مسارات العاصفة، شجعنى هذا كله ، حرضنى على خلع كافة ما يمنع ويعوق .

تراجعت متقدمة نحوى ، انزوت بجسدها إلى الوراء قليلاً ضاغطة الأريكة الوثيرة ، متطلعة بعينين مسددتين وشفتين منفرجتين قليلاً ، وكان ما تبديه الدهشة والمجاوبة والتشجيع .

سرى الدفء عبر أوصالى وتجاوزنى إليها ، تلاطمنا ، ولحظة نطقها محذرة أن يرانا أحد كانت تخمش جلد صدرى ، ركزنا فأوجزنا وبلغنا ما نقطعه فى أيام خلال لحيظات زاعقة ، فائضة عن الحاجة ، نازة بالرغبة فى الاتحاد بين اثنين من النوع الإنسانى لم يعرف أى منهما الآخر قبل الانفراد

وتفجر السعى والتوق المهلك المؤدى إلى الاحتراق حتى الترمد والخمود .

أعود إلى التطلع ممتناً ، راضياً ، متهدهداً ، مشبعاً برائحتها وطلّها ، تنظر إليّ فتطرق خجلة ولم ينتبه كل منا إلى حركة القطار الوئيدة والتى لم نعرف بالضبط متى بدأت ، غير أننا لم نتبادل كلمة واحدة حتى نزولها قبل بلوغي الجهة التى أقصدها ، غير أن هذا ليس أغرب مما عاينته فى الوجه القبلى ، وبالتحديد فى المنيا .

***

منفى

لعلها المرة الأولى التى أفيض بالدمع بعد تحرك قطار السابعة والنصف ، رقرقة ملامح أبى وبزوغ شجوه ومحنة صوته

"خد بالك من نفسك .."

كان يرتدى قميصاً أبيض وبنطلوناً أبيض ، كلاهما يمتان فى الأصل إلى ضابط شرطة كبير من بلدتنا جهينة ، كان يتقبل بعض الملابس من هذا أو ذاك لنفسه هو ، لكنه ثار مرة وكاد يحط حموله الثقال فى مواجهة موظف بالقسم الذى عمل فيه لأنه قدم إليه ثياباً للأولاد غير أنه تماسك واعتذر بلباقة مؤكداً أن أبناءه لا يرتدون إلا كل جديد ، وهذا حق ، والأمر فى شرح ذلك يطول ، لكننى أقول إن كافة ما عاناه حرص على تجنيبنا له وإقصائنا عنه ، ورغم أن كل منا لا يبدى ما عنده للآخرين من الأسرة إلا نادراً ، كان حريصاً عندما بدأت أسفارى أن يصحبنى إلى المحطة وكأنه لم يستوثق بعد من قدرتى على السعى بمفردى ، ولكن هذا الرحيل مغاير لكل ما سبقه . ذلك أننى مضطر ، مجبر ، متجه إلى منفاى ، لم أقض فى أى

سفر إلا مدة محدودة لم تتجاوز خمسة أيام ، لكن الأمر اختلف ذلك الصباح ، لم أعرف ما ينتظرنى ، ولا كيف سأدبر أحوالى براتبى الذى لم يتجاوز اثنى عشر جنيهاً ، كنت أساهم بثمانية فى ميزانية الأسرة التى بدأت أحوالها تتضعضع ، لارتفاع الأسعار بمقاييس الوقت وزيادة المهام ، ورهن الوالد لآخر قيراط من أرضه التى ورثها وكاد يقضى بسببها فى طفولته ، وتفصيل هذا كله مدون فى كتاب التجليات .

أما عن النفى فلا بد من شرح يسير لأسبابه ، ذلك أننى فى تلك الحقبة كنت متقد الجذوة ، أفيض بالأحلام الكبيرة ، بدءاً من تغيير العالم إلى الأفضل ، حتى تحقيق المساواة بين البشر ، وتأمين كل إنسان يسعى من الجوع ، وإقصاء أنواع الخوف ، والانتصار لقيم الحق والأمانة والخير وكل ما هو جميل ، والله لم أحد طوال عمرى عن ذلك ، لكن العون شحب ، والأكدار تراكمت ، والوهن طالنى لذلك أضطر الآن إلى الصمت عن كثير، مما يؤدى إلى شدة النحر داخلى ، وهذا ضار ، معجل بأمرى .

حدث أن اكتشفت تلاعباً فى صفقات جرت بين المؤسسة وتجار القطاع الخاص من أهل السجاد والأبسطة . وكانت الصحف تنشر أخباراً عديدة عن السرقات فى القطاع العام ، وبدء تدخل جهات استثنائية فى التقصى والتحرى ، أبرزها الشرطة العسكرية . وكان ذلك يعنى تزايد نفوذ المشير عبد الحكيم عامر والقيادة العسكرية ، كنت أهاب جهتهم ، ولا أعرف طريقاً مؤدياً إليها ، لكننى أبلغت بما عرفته صاحباً كريماً ، ورجلاً فاضلاً ، ساعدنى فى إيجاد العمل الذى التحقت به واسمه أمين عز الدين ، كان وثيق القرب من جمال عبد الناصر وظل وفياً له حتى زمن تدوينى هذا ولم

يتبق بعد إلا ثلاثة أعوام على نهاية هذا القرن ، تسلم منى الأدلة والقرائن ومرت شهور ، ثم بدأ عمل الشرطة العسكرية ، والنيابة التى اتخذت لها مقراً فى جناح ملحق بقصر عابدين ، وفيه تعرفت بشاب صلب العزيمة ، متين البنية ، ناصع الآراء ، اسمه حسن صيام ، كان وكيل النيابة المسئول ، تحدثنا عن لصوص المال العام وعن ضرورة حماية أموال الشعب ، كنت منفعلاً ، مبهوراً بما يجرى ، هذا تطبيق لما أعتقده وأطوى الصدر عليه ، صرت نشطاً فى الفحص والتقصى ، والمشاركة فى لجان الجرد والتحقيق وذات صباح كنت أجتاز مدخل مبنى المؤسسة صوب المصعد ، وهذا المبنى له قبول عندى ، من ناحية لذاته وفراغاته وخفة حضوره ، ومن جهة لما يحيطه من شوارع هادئة مظللة بالأشجار التى لا تثمر إلا زهراً ، وكنت أكثر من التجوال الهادئ وأحن إلى المجهول الخبئ ، قال لى موظف الاستعلامات إن حسن بك يطلبنى .

حسن بك هو المدير العام ، إنه الشخصية التالية لرئيس مجلس الإدارة سيد بك ، كان مكتبه فى المبنى المواجه ، مضيت إليه متحفزاً ، مضمراً التصدى رغم الفارق الوظيفى الفاصل بيننا .

كان هادئاً ، مبتسماً ، ولم يكف عن مخاطبتى بـ"يابنى" . قال إنه يقدر حماسى وفورة شبابى ، لكنه يسدى إلىّ بنصيحة مجرب خبير ، كل هذه الضجة ستطوى ولن يدفع الثمن إلا أمثالى ، لذلك يطلب منى ألا أكون ملكياً أكثر من الملك .

تساءلت : ماذا يعنى ذلك ؟

قال إنه أفضى إليّ بما صرح به لوجه الله .

قلت إن ما سمعته محاولة للتأثير عليّ وإننى سأنقل صورة كاملة لما قاله إلى النيابة ، لاحظت ارتجافة رمشه ، كان يقلب قلماً بين أصابعه ، قال :

"كنت أظنك أذكى من ذلك"

أصغى ضابط الشرطة العسكرية مبتسماً ، هز رأسه ، طلب من أحد جنوده أن يحضر حسن بك إلى هنا ، أن يذهب بالدراجة البخارية ، وأن يُركبه خلفه ، هو البك الذى لم يعتد مثل ذلك ، لا يركب إلا عربة ملكه يدفع راتب سائقها من جيبه الخاص ، ينحدر من عائلة ثرية ، قديمة .

عندما رأيته بدا أصفر الوجه ، غاضباً لكنه كظم غيظه واضطرابه ، قال بهدوء :

"ممكن أعرف لماذا جئت بالضبط ؟"

عندئذ طلب منى الضابط أن أتفضل خارج الحجرة ، انما أطلعنى فقط على حاله المضطرب ، رأى فى ذلك الكفاية حتى يستعرض قوته ويبث الثقة عندى ، مرت أيام معدودات لم أنقطع خلالها عن إبداء الهمة . حتى فوجئت صباح ذلك اليوم بالحاج مصطفى وهو موظف قديم قارب على التقاعد وكان عضواً فى اللجنة الفنية للفحص ، كان يقف منتظراً أمام مقر الشرطة العسكرية ، قال :

"التحقيقات أوقفت .."

"كيف .."

"هذا ما جرى .. "

كل ما بدأ انتهى فجأة ، لا يعرف أحد من أصدر التعليمات العلوية ، أو ما مصير الجهد المكثف الذى تم ؟ توقعت الأذى ، خاصة أن الملامح التى طالعتها كلها متوقعة ، منتظرة ، لم يستمر الأمر طويلاً ، بعد أسبوع من تجنبى وتحاشيّ رد التحية من قبل البعض ، صدر قرار إدارى من رئيس المؤسسة يقضى بنقلى إلى محافظة المنيا بصعيد مصر لأكون مشرفاً على وحدات صناعة السجاد الموجودة بسمالوط وملوى ، ومنشأة بدينى وزاوية سلطان شرق النيل ، على أن يكون مقرى مدينة المنيا ، وأن يتم التنفيذ خلال ثلاثة أيام .

ذلك ما أدى بى إلى الجلوس فى تلك العربة من موعد السابعة والنصف المستحدث ، لا يقف إلا بالمدن الرئيسية فقط ، عواصم المحافظات من القاهرة إلى أسوان ، يقطع المسافة كلها فى ستة عشر ساعة ، عرباته فسيحة، نظيفة ، مقاعد مصفوفة على قسمين يفصلهما ممر ، لا يمكن ركوبه إلا بالحجز مقدماً ، لا يوجد به واقف .

لحظات اجتياز كوبرى امبابة الحديدى ، تذكرت اللهب فى الماء ، وقطار الثامنة الصباحى الذى سيتبعنا ، وملامح أبى المترقرقة تأثراً ، الشجية ، يتخللها حزنه الأبدى ، بداية مشى بجوار النافذة ، ثم أفسح ما بين الخطا ، لوحت من النافذة وصحبتنى طلته وتأثرت لانحنائه الأسيان ، غاب عنى ، تراجع مبتعداً كأيام سفرنا معاً صحبة وتطلعى إليه مبهوراً إذ يتحدث بود إلى مفتش القطار الذى يتجاوز عن عدم دفعه قيمة تذكرة من أجلى ، هذه المرة كنت وحيداً ، مضطراً ، مجبوراً على السفر ، والإقامة بمفردى فى

منطقة لم أعرفها إلا عابراً ، ماذا ينتظرنى وإلى متى تطول تلك المدة .

نزلت المحطة فى الحـادية عـشـر والنصف ، ومنذ تلـك اللحظات بدأت علاقة مغايرة بالمواقيت .

***

مواعيد

واحد وثلاثون سنة تفصل ما بين تدويني هذا وتلك الأيام ، وعبر الزمن ومحطاته المتعددة توارت لحظات وبقيت أخرى ، ثمة صور ناصعة ماثلة ، وأخرى أجتهد لاستعادتها ، اختفت تماماً ، وما هذا إلا فناء تدريجي مؤدي، لا أعرف لماذا تندثر هذه اللحظة وتتوالى أخرى بكافة تفاصيلها ، أى مثيرات تحرك ، وأى قوانين خفية تقصى وتقرب ؟ لكن المؤكد أن يومى الأول هذا من أصعب ما مررت به ، ومن أثقل ما عانيته ، فيه تحددت صلتى بأمور عديدة ، منها العصر والمغرب ، والموسيقى ، والنخيل ، والنهر والجبل، وأيام الأسبوع التى أعيدت صياغتها عندى ، وساعات صيام رمضان ، والشوارع والنواصى ، والنار والرماد ، وما يفنى ، وما يتبقى ، وتفسير هذا كله مبثوث ، مستتر ، ظاهر ، وهذا ما سأبذل الجهد لتفسيره إن تلميحاً أو تصريحاً .

اجتزت المدينة راكباً عربة يجرها جواد بنى اللون ، وحيد ، إلى ميدان الصهريج قبلى البلد ، بناء حديث ، فى الطابق الأول منه الجمعية التعاونية ،

رجوت العامل الذى اتخذ من المطبخ مقراً لإعداد الشاى والقهوة أن أضع حقيبتى عنده حتى انتهاء مقابلتى مع المدير .

كنت أعرف بعض الموظفين من خلال مرات ترددى السابقة ، إذ جئت للتفتيش على الوحدات التى سأشرف عليها منذ تسلمى عملى ، بالطبع قدومى الآن مغاير للمرات السابقة ، الموظف القادم من القاهرة للتفتيش على عمل ما تحيطه أهمية الآتى من المركز أيا كان مستواه ، يحظى بالقبول والترحيب ، تماماً مثل الأسفار ، العربات لا تتغير ، والقاطرات ذاتها ، لكن تلك الساعية من القاهرة إلى الجنوب لها زهوة وبريق مصاحب أو صادر عن العيون المرتقبة وهذا حال مغاير تماماً لما يصاحب القطارات الآتية من الجنوب بضجيجها وركابها المتعبين وأحمالهم مع أنها عين الأثقال ، فى هذه المرة أجىء إلى الجمعية لأصبح موظفاً تابعاً لمن جئت قبل ذلك أتفحص أوراقهم ودفاترهم .

غاب عنى اسم المدير الآن ، كان رجلاً أنيقاً ، هادئاً ، دمثاً ، أبدى مودة وترحيباً ، وقال إنه تحدث إلى استراحة الرى ، قبلى البلد ، هادئة ، مريحة ، حجز غرفة لمدة أسبوعين بإيجار رمزى قدره عشرة قروش فى اليوم الواحد، بعد انتهاء الأسبوعين ينبغى أن أغادر ، يمكننى على أى حال العثور على حجرة مناسبة ، لا توجد أزمة إسكان حادة فى المدينة ، ثم إن الناس هنا طيبون ويمكنهم المعاونة ، قمت بكل ما يلزم من إجراءات ضرورية مثل توقيع إقرار تسلم العمل ، والاتفاق مع المهندس المسئول عن الوحدات الإنتاجية على جدول للمرور المنتظم بحيث تتحقق المتابعة ، ثم حانت اللحظة التى يجب أن أمضى فيها إلى الاستراحة .

عبرت المزلقان الجنوبى للسكك الحديدية ، إنه الأول بعد خروج القطارات من المحطة إلى قبلى أو قبل دخولها ، تتشابك عنده القضبان ، إذ يتحقق انفراد الخطين بعد مسافة من المحطات الكبرى ، ومحطة المنيا رئيسية، مرتفعة البناء ، لا بد من صعود سلم مرتفع ، وعبور جسر حديدى يؤدى إلى الأرصفة عبر سلالم معدنية منصوبة ، ثابتة ، ومن الرصيف يمكن مشاهدة منشآت ومخازن وعربات واقفة ، ومركبات تنتظر الإصلاح .

تفصل الخطوط بين ناحيتين ، المدينة المحاذية للنهر شرقاً ، الممتدة من الشمال إلى الجنوب ، والخلاء المزروع حتى حدود الصحراء غرباً ، الاستراحة جهة الغرب ، مطلة مباشرة على ترعة الإبراهيمية ، تجاوز مسار السكة الحديدية حتى أسيوط جنوباً .

كافة القطارات تمر بمرأى إذا تطلعت ، وعلى مسمع إذا رقدت ، خلاء مبثوث فيه النخيل وأشجار النبق والجميز والتوت ، المبنى من الخشب ، شيده مفتشو الرى الإنجليز ، قائم لوحده ، منفرد فى الخلاء ، مع اكتمال الغروب ، ينعزل تماماً ، للوصول إليه لا بد من قطع مسافة موحشة ، معتمة، قال الحارس الصعيدى الجهم الذى لم يبد ترحيباً إن الذئاب تظهر أحياناً، أما الكلاب الضالة والثعالب فخطرها ماثل ، لكن ما يخشى الجميع منه الضباع التى يظهر بعضها أحياناً ، وكثيراً ما تتجه إلى المقابر القريبة لنبشها ، وربما تظهر للماشى المنفرد فتدور حوله ، مرة ذات اليمين ومرة من شمال ، حتى إذا وقع به دوار وكبا ينقض عليه متمكناً منه ، مقدماً على لحس مواضع حساسة تتجمع عندها الأعصاب ، يتفكك الإنسان ، يستسلم تماماً للوحش ، حتى ليتمدد أمامه فى الوضع الأمثل لانتظار النهش .

عبد المقصود الحارس قابلنى بجفاء ، إنه طويل ، غليظ العنق ، يبدو كأنه مـغـمض العينـين ، لـم أفهم عـدوانيـتـه البـادية ، ربما يضـيـق بالنزلاء ، هل يعطلون بإقامتهم شيئاً ما يجرى هنا ؟

لا أدرى

هل يستخدم الاستراحة لأغراض تخصه ؟

لا يمكننى الجزم

فى يومى الأول كنت وحيداً تماماً ، فى الرابعة تقـريباً وقف عبد المقصود عند مدخل البـاب ، قال بجفـاء إنه سينصرف الآن ، ينـصحنى ألا أفكر فى الخروج .

أن أبقى إلى اليـوم التـالـى ، وألا أفـتح لأى شـخص ، قـال إن المطاريد يتجولون فى الناحية وهـم أخطر من الوحوش الضالة .

نصح أم محاولة لبث الرعب ؟

كنت على وعى بعناصر عـزلتى وإقصائى ، لـم يبدأ الأمـر بوصولى إلى المبنى المعزول ، شبـه المهجور ، إنما جرى تمهيد منذ أن تقـرر نقلى القسرى ، أصعب ما واجهته خلعى من أسرتى التى لم أخلف تناولى الوجبات الثلاث على المائدة التى تجـمعنا إلا خـلال سفـرى المحدود ، إنهـا المرة الأولى التى أخرج فيها إلى غربة لا أعرف مـداها ، ولا أدرى عن نهايتها شيئاً ، بل إننى لا أعرف ما يمكن أن يحـدث لى هنا ، كيف ستمـضى أيامى ؟ كيف سأدبر أمورى بحيث أستمر فى مساعدة الوالد الذى بلغت أحواله درجة صعبة من العسـر ، ما زال أشـقائى فى المدارس وتكاليـف الحياة فى ازدياد مـضطرد ،

ومـا ورثه من أرض محدودة على وشك النفاد ، إما بيعاً أو رهناً .

أستعيـد حيرته البادية وشقاءه الكامن فـأوشك على الدمع تفريجاً لتلك العكمـة التي تأخذ بصـدرى وتحيط بأنفـاسى ، لماذا لم أخاطبـه بما أشعـر به تجاهه ؟ لماذا نعجز عن التلفظ بالقول الجميل ، اعتدنا تبادل العواطف بالنظر والصمت البليغ الفياض حتى ليجرى الحوار بينى وبين أمى فنقول بالصمت ما لا نتقن الإفصاح عنه بالكلام .

صرت إلى ناحية ، وهم فى أخرى ، هذا أوان الانفـراد ، مفتتح وحدتى وبدء استعادتى لما جرى والتفاتى إلى ما حدث ، منذ ذلك الحين شرعت فى بحثى وتنقيبى ، داخلى ، عندى ، صرت أستعيد ما كان منى وحولى بعد أن أمضيت ما انقضى فى التطلع إلى ما سيكون ، ما سيجىء .

لأول مرة يطول انتظارى للقطار إلى أمد غير مـعلوم ، فى كافة أسفارى السابقة كنت لا أقف على الرصيف إلا وقتـاً محدوداً بالدقائق وإذا طال فلا يتجاوز نصف سـاعة ، لا أنزل بلداً إلا وأُحاط علماً بالمواعيد الآيبة وأختار منها ما يناسب مهمى ، لكنـنى الآن لا أعرف متى أركب عائداً إلى البيت ، يقضى قـرار نقلى أن تكون المنيـا محل إقامـة ، ولكننى رافض لهـذا ، عازم أمرى على تدبيـر الحال بحـيث أعود إلى أهلى ، إلى مقـرى ، مهـما طالت أيامى هنا فليست إلا لحيظات عندى لا بد من انقضائها ، من وضع حد لها، حتى وإن طالت ، ما أتمناه ألا يدوم ذلك .

مـتى أركب القطار بلا رجـعـة إلى هذه الاسـتـراحـة ، إلى تلك المدينة الهـادئـة ، التى تحـول بينى وبينهـا ، ثمة صـد خـفى ، ليس أبـرزه جـفـوة

عبد المقصود ، إنما شيء ما فى حضور الشوارع ، خواء النواحى ، محدودية الميادين ، جهلى بالساعين وصعوبة التواصل مع أهلها الذين اعتادوا قضاء معظم أوقاتهم داخل بيوتهم ، ليست وحشة الاستراحة بأقسى مما يستقر داخلى من خواء وشجى واغتراب عن كافة ما يحيط بى ، لذلك لم يداهمنى خوف أو خشية عندما صرت وحيداً تماماً داخل المبنى المنفرد مثلى فى هذا الخلاء الفج ، توحدت بالوحدة ، أطلت الوقفة والنظر إلى الترعة ومياهها الهادئة ،المترقرقة . والخط الحديدى المستقر فوق أرض مرتفعة قليلاً تضبطها شدات الفلنكات ، واصطفاف أعمدة البرق .

لست ساعياً الآن ولا منتظراً ، للراكب حالات فهو إما واقف على الرصيف أو مستقر داخل القطار ، لكنه فى شتى الأحوال ساع منذ خروجه عن أهله ، إننى متطلع ، متشوق ، وهذا جديد علىّ ، أجهل موعد إيابى ، مكان مطل على الخط ، مشرف عليه ، تماماً مثل المحطات الصغيرة ، الوحيدة ، التى تأملتها طويلاً ، وفكرت فى بعضها ، وتأكدت من عدم إدراجها على قوائم المحطات ، حتى بالنسبة للقطارات القشاشة التى لا تدع رصيفاً إلا وتقف عليه ، يكتمل الليل حولى ، أصغى إلى الصمت ، أغمض عينى متمنياً ، تواقاً إلى حركة ما تطوى المسافات طياً .

***

سفر فى السفر

مـا بين ثباتي وانطـلاق المواعيـد إلى قـبلي وإلى بحرى تفـجـرت ينابيع أسـاى ، لم أفض إلى أحـد ، ولم أقص أنبائـى على مسـمع ، تعـرفت إلى إمكانيـة الحـوار مع الذات ، والنظر إلى الداخل ، والأنـس بالنفس ، واللوذ بالأنا ، أمعنـت التطلع ، أطل على نقطة تبطئ عندها القطارات القـادمة إلى المحطة أو تلك المقلعـة منها ، لذلك مـعظمهـا لا تكتمل سـرعته هـنا ، عدا مـفـرد ، واحـد مـعـروف لمن له صلـة أيا كـانت بالسكك الحـديدية ، إنه المخصص للسياح ، يقوم من القاهرة فى التاسعة إلا الثلث مساء ، لا يتوقف إلا مرة واحدة فى أسيوط ثم يواصل إلى الأقصـر ، يصل إليها فى الصباح ، مع شـروق الشمس ، عـرباته للنوم ، عدا واحـدة للأكل ، وأخرى للـدرجة الأولى الممتازة ، معظم ركابه أجانب .

لا يستغرق مروره إلا بضع ثوان ، يمر أمامى ، شريط متصل من الضوء ، تختفى المسـافـات بين العربات والنوافـذ ، تصـعب الإحاطة به إذا ركـزت البصـر بالمواجهـة . أحيـد قليلاً إلى اليـمين أو إلى اليسـار ، لكنه يفلت من

دائرة النظر ، يولى مندمجاً بالليل ، لا يخلف إلا صدى وانقاد رغبة وحسرة وتضاعف وعيى بتقييدى داخل هذه الاستراحة الموحشة ، وعدوانية عبد المقصود حتى بعد انصرافه ، بعد ثلاثة أيام ألممت وأتقنت بسائر المواقيت الساعية إلى الاتجاهين ، ليس الركاب فقط ، إنما البضاعة أيضاً ، لم نهتم من قبل بمتابعتها والنظر إليها ، لم نعرف عنها إلا تعدد عرباتها وتشابهها وخلوها من البشر عدا بعض المجندين الذين يتسلقون فوقها ، أو يندسون داخل الفارغ منها ، كنت أظن أنها تمضى بدون ترتيب ، بلا مواعيد، لكن من متابعتى الدءوب أدركت أنها منضبطة بمواقيت تماماً كقطارات الركاب ، كنت أنتظر منذ عودتى قرب العصر ، حتى بعد نزول المهندس عبد المسيح فى الغرفة المجاورة ، كان منقولاً أيضاً مثلى ولكن من وزارة الصناعة إلى الإدارة المحلية ، وكان يعود بعد الغروب ليبدأ طقوساً دينية أحترمها لكننى لم أكن أعرفها ، يقرأ من الإنجيل ، يتنقل بين أركان الصالة ، وعند فراغه يرسم علامة الصليب فى الفراغ ويؤكد لى أنه بذلك يطرد الأرواح الشريرة ثم يتجه إلى غرفته التى يقيم فيها مؤقتاً مثلى، أنثنى لأتابع حركة القطارات، ما بين مرورها أقرأ وأصغى إلى أغانى الحنين ، وترتبط تلك الحقبة بأغنيتين لمحمد عبد الوهاب ، لا أقوى على سماعهما حتى النهاية لرهافتهما الأولى جبل التوباد وذروتها فى قول ناظم كلماتها أحمد شوقى :

قد يهون العمر إلا ساعة

وقد تهون الأرض إلا موضعا

والثانية ، يا ترى يا نسمة حتقولى أيه ؟ ، لعل مطلع موسيقاها من أشد مثيرات الشوق عندى ، تماماً كقومة القطار ، أو دخلته إلى رصيف

الوصول، لا أسمعها إلا وألم بوقفتي وحيداً في غرفتي ، مطلاً على الترعة والقضبان الممتدة ، وأستعيد خفقة قلبي عند تخيلي أو تمثلي لمحبوبة كانت تقيم في الحارة ، لم أتحدث إليها ، ولم أبادلها الحوار قط ، لكن مجرد ظهورها يجلجلني ويهدهد دخائلي ، وعرفت مثل ذلك كثيراً ، وهذا أيضاً عين الوحدة ، غير أن وقوفي أو قعادي إلى النافذة أراني ما لم أدركه من قبل ، ما لم أطلع عليه ، ومن ذلك وحدة القطارات وسائر ما يمت إليها .

القضبان تمتد متجاورة ، لكنها لا تلتقي أبداً ، لا تتماس وإذا وقع ذلك كانت النهاية ، بل إن بروزاً خفيفاً أو تجاوزاً يسيراً للمعدل يقود إلى الكارثة، كذلك القطارات ، ينطلق كل منها وحيداً تماماً ، مكتمل الفرادة ، حتى العربات ، رغم تتابعها وترابطها فإن كل منها قائمة بذاتها ، وليس حضور البشر داخلها إلا عَرَض مؤقت ، سرعان ما تُقفر ، ما حرك أساي مباشرة أعمدة التلغراف ، وحدة كل عمود بادية رغم تقاربهم وامتداد أسلاك البرق بما تحوي من أسرار سارية ، لكن .. كل منهم بمفرده تماماً . لهم التبعية ، إنهم ملحقين بالسكة ، متطلعين من ثباتهم إلى القطارات المارقة ، الساعية .

في مواجهتي ثلاثة ، تمتد صلة خفية بيني وبينهم ، أبتسم لهم أحياناً أو أومئ ، أو أناديهم بغير نطق عندما أفتقدهم في الصباح الباكر والضباب كثيف متصاعد من النبات ومياه الترعة الجارية .

اتصالي بالجماد غير جديد عليّ ، عند تمددي طفلاً صغيراً ابن خمسة أو ستة في الغرفة التي أقمنا فيها زمناً بعطفة باجنيد ، حارة درب الطبلاوي ، كنت أرقب السقف المحمول على أعمدة خشبية متجاورة ، لكل عمود

عندى اسم ، لا بد أن ثمة أحاديث تجرى بينهم ، خاصة بعد إيغالنا فى النوم، لا بد أنهم يتزاورون ، يدركهم الملل من تلك الصلبة التى تبدو لا نهائية أم أن حياة خفية لا ندركها ، حكى أبى عن سيدنا سليمان الذى أطاعه الجن وتحكم فى الرياح ، أنه مات واقفاً ، وكان مستنداً على عصاه ، ولمهابة هيئته ، وقوة بسطته ، أطاعته الجن ميتاً كما لبوا أوامره حياً ، وكانت حشرة الأرضة تعمل عملها فى هدوء وبعيداً عن الأبصار تنخر العصا المصنوعة من الخشب ، وبعد تسعين عاماً حانت اللحظة ، جرى الانكسار واكتشف المردة من الجن أنهم لم يطيعوا إلا شبحاً ، لم يمتثلوا إلا لصورة لم تكن تنطق ولا ترى وأن ما تحكم فيهم وهم .

فوق السطح المشرف على أفق القاهرة الدائرى أحاور ظلى ، أحاول أن أسبقه ، أدور حوله ، أخاطبه ، أسمعه يجيبنى ، لكل موجود من حجارة وخشب ومياه متدفقة وغمام سابح ونجوم نائيات لغة ورموز وإشارة ، ليست المرئيات كلها إلا كائنات لها حواس مشابهة وقدرات وأحوال ، الأمر اختلف مع تقدم الزمن ، لكن بقى يقين غامض بوجود حيوات من أنواع أخرى لما نراه من عناصر ، فى الصباح الباكر كنت ألفظ تحية الصباح بوعيى ، وأحياناً متمتماً بشفتى ، متجهاً إلى الأعمدة الثلاثة ، أحطتهم بمودتى وأسبغت عليهم من فيضى .

يمكن القول إن إدراكى لوحدتى بدأ فى تلك الحجرة ، كنت أسعى طاوياً عناصرها ولا أعى ، استعدت أوقات انفرادى فى المدرسة ، استغراقى فى القراءة ، انصرافى ، ابتعادى عن الأقران ، توقد خيالاتى ، جموح تصوراتى وركونى إليها .

صرت أتمدد فى عمق الليل ، منبتاً ، مقطوع الصلات ، متوحداً بالصمت ، بالنأى ، أرى موضعى بعيون محلقة ، ذلك النخيل ، والبيت العتيق المشيد للعابرين ، للراحلين مهما امتدت إقامتهم ، فى خضم الخلاء الخاوى أرقد ملموماً ، منطوياً على ذاتى ، محتمياً بى ، لائذاً بنفسى .

فى ذلك المقر وعيت لأول مرة استعادة تراثى، ذلك أن مسافة انقضت، رأيت فيها ما رأيت وعاينت ما عاينت، صحيح أننى ما زلت فى المقتبل بحساب متوسطات الأعمار والمقادير الإنسانية، لكن ما عرفته كثيف وهذا ما أورثنى دائماً تجاوزاً لما أنا عليه بالفعل حتى صرت تالياً لحد ما تصورته يوماً من تجاوز، وفاق ما لقيته كافة ما تهيأت له ولعلى مفصل ذلك يوماً، هنا عرفت أن لى رصيداً يمكننى استرجاعه وتأمله والاجتهاد فى النفاذ إلى بعضه .

فى تلك الليالى أيقنت بعد جلاء العناصر ، أننى جئت إلى هذا الوجود وحيداً ، وأننى سأسعى فرداً منقطعاً مهما تعددت الصحبة ، واتصلت الحميمية ، وكل ما تؤججه الرفقة إنما لواذ وقتى ، مرهون بمدة ، له ابتداء وله انتهاء شأن كافة المواقيت .

تمضى القطارات هادرة ، مختالة ، لكنها على القضبان وحيدة ، فى الخلاء منطلقة بمفردها مهما ثقلت الحمول ، لا تدوم الصلة إلا مقدار لقاء العجلات بالقضبان عند اكتمال السرعة ، لا تخلف الضجة إلا صمت المعدن المصلوب ، المثبت ، المشدود بالفلنكات ، عاكسة الميسور من الضوء الشحيح عند تلك النقطة أو هذه المسافة ، ويظل مصدر النور مجهولاً .

***

قتل

رأيت من يقتل .

حتى نزولى مدينة المنيا كان الموت قصياً إلى حد ما ، فموت جدتى لم يخلف عندى إلا حزناً عابراً ، وافتقاداً مبهماً ، لكننى تطلعت باستمرار كأن أبى وأمى وكل من يمت إلىّ باق أبداً ، أما القتل فلم أعرفه إلا من قراءة الصحف ، ولم تحتفظ ذاكرتى إلا برؤية قتيل ومنتحر ، أما القتيل فكان فى جهينة ، عندما أصغى كل من يقيم حول الرحبة الفسيحة إلى صرخة وحيدة، ثاقبة ، مختصرة ، دالة ، خرجنا من الباب ، خالى وخلفه بخطوات جدتى وأمى وامرأة خالى ، وسط الرحبة حمار يقف مطرقاً حتى يكاد فمه أن يلمس الأرض ، أذناه مرتخيتان ، فوقه جثمان ضيف الله .

"طخّوه فى المَلَقَه"

بقع حمراء فوق الجلباب عند الصدر ، كان رأسه المتدلى بلا غطاء ولكن الشال البنى اللون حول رقبته ، جسده منحنياً ، مرتخياً ، لم يعلق المنظر بالذاكرة ، إنما شغلت الصرخة الإطار والمقدمة ، صرخة واحدة لا

غير، لا أعرف مصدرها حتى الآن ، لم تنطلق إلا لتُقمع . لا يجوز العويل على قتيل لم يثأر أهله له ، ما سمعته أشد نفاذاً مما رأيته ، وهذه الصرخة ترددت عبر سنوات تالية ، وفى أقاصى بعيدة ، تغيب عنى وتختفى ثم تدوى فجأة ، غريبة ، فاجعة ، تماماً كما أصغيت إليها أول مرة .

أما المنتحر فكان ذلك ظهيرة يوم عطلة ، كنت قادماً من المنيل بصحبة زميلى حسن ، متجهين لنعبر الكوبرى فوق النيل الصغير المحاذى لمبنى قصر العينى القديم . كان الشارع خالياً ، لا أستعيد المنطقة كلها إلا أذكرها خاوية تماماً إلا من هذا الشاب الذى وقف يخلع ثيابه بهدوء عميق ، تماماً عند منتصف الجسر ، رتب القميص والبنطلون ، وضع الحذاء بعد أن أدخل فيه الجورب ، كأنه داخل حجرة فى بيته ، عندما أصبح مرتدياً السروال فقط، تلفت حوله ، تطلع ناحيتنا لكنه لم يبد عليه أى رد فعل ، كأنه لم يلحظنا ، ثم اعتلى السور وقفز فى الفراغ ، سقط جسده منحنياً إلى الأمام قليلاً . الظن الأول أنه قصد السباحة ، لكن شكل نزوله إلى الماء ، وملامحه، وتلك الثياب ، رحنا ندقق النظر فى المياه التى يميل لونها إلى خضرة داكنة مترقرقة ، ما من أثر ..

لا يمكننى حتى زمن تدوينى هذا نسيان ذلك رغم أننى عاينت فى أحوال تالية مشاهد مهولة ولحظات حادة فيما قدر لى أن أشهده من حروب وهذا ما أتمنى أن أعكف على تسجيله يوماً إذا سمح تردد أنفاسى وسريان الروح فى الأوصال .

ما رأيته تلك الليلة بقى ومثل ، بدأ الأمر بسماعى خطى عند الناحية المحاذية للترعة ، مضى علىّ تسعة أيام حفظت خلالها أصوات المكان رغم

تعـدد مصـادرها وشسـوع الناحيـة وقصـر المدة . ما أصـغيت إليـه طارئ ، غامض ، قمت حذراً متجهاً إلى النافذة ، عتمة مكتملة ، لم أغلق المصراعين الخـارجيين ، فقـط النافذة الـداخلية يـليهـا حـاجـز من السلك قـديم يمنع الناموس وستارة خفيفة . أزحتها قليلاً وتطلعت .

ثلاثة ، أو أربعة ، يصعب التحديد ، كانوا يحملون لـفافة ضخمة موثقة بحبال ، مع التدقـيق أيقنت أن الملفوف آدمى ، رجل أو امرأة ؟ . لا أدرى ، غير أن الحركة البـادية ، الجلية عبر العتمة ضارية ، مـتوثبة نحو الإفلات من عدم وشيك . انفلاتات وبزوغات حادة تتخللها سكنات . أراهم بوضوح ، يشقلون اللفافـة بأحجـار مربعـة ، ثقيلة باذلين جهـداً لقمع الانتـفاضـات المتـواليـة، فى النهاية تحـركـوا ، خطوات قليلة باتجـاه التـرعة ، جـهـد هائل لإخراس تلـك الحياة المجـهولة التى تذوى الآن ، سـقوط الجـسد المقـموع ، المشدود ، لم تسـتمر البقـبقة إلا ثوان ، عند اسـتدارتهم كانوا فى مواجـهتى تمامـاً ، لو رفع أحـدهم بصره إلـى أعلى ، لو أوتى القـدرة لأمكنه رؤيتى ، رغم اختـفائهم إلا أننى كنت أثق أنهم على مـقربة ، كـامنين مترقـبين ، أما الجثـمان فهـنا ، عند تلك النقطة بالتحـديد مثقل ، باق إلـى وقت لا أعلمه عندما تـتحلل الحبـال ، وينشأ وضع يسـتسلم مـعه للتـيار ، ما تبـقى عندى كتـمان أنفاسى واخـتناقى الموازى ، وهذا حال عـجيب لا أرغب اسـتعادته وأحيد عن تمثله ، وبعد مـا يقرب من ثلاثين عاماً ألح علىّ ، وتخلصت منه إلى حد ما بعد تدوينى ما جرى وخلال ذلك رأيت ما لم أعاينه وقت وقوع الأمر ، من ذلك كفى وجمودى حتى عند مرور قطارات الليل .

***

خُطى

انقضت فترتى بالاستراحة كما مرت مددٌ عديدة مثلها تفاوت بين الطول والقصر ، ورغم ضيقى بأيامها الخمسة عشر ، وكابوسية الخلاء المحيط بها ، وفردانية النخلات ، وجهامة عبد المقصود الذى لم يخف كراهيته عند انصرافى حتى أنه تعمد إغلاق الباب الخارجى بعنف مبالغ فيه، إلا أننى استعدت أوقاتى فيها بحنين لما لاقيته فى الشهر التالى ، إذ أقمت فى فندق متواضع مطل بواجهته على شارع الحسينى الرئيسى فى المدينة ، ومدخله من طريق جانبى ، غرفة مشتركة بسريرين ، أغمضت عينى ورحت فى السبات وجيرانى لا أعرفهم ، بل يجىء بعضهم فى ساعة متأخرة وينصرفون فى ساعة ميكرة . شخير بعضهم قض مضجعى ، والحذر من آخرين ، لمحت بعضهم يدس أسلحة نارية أو بيضاء تحت الوسادة ، جافانى الوسن وأنهكنى ترقب وحذر لم أعرف مثله فى وحشة الاستراحة ، كثيراً ما جرى تعارف وحوارات مقتضبة أو طويلة ، كنت أصغى جيداً ولا أفيض إلا نادراً .

فندق لم أعرف مثله ، كافة غرفه مفتوحة ، الصالة بها مراتب مصفوفة ، متجاورة ، وعند المدخل مكتب عتيق علقت فوقه الأسعار ، منها أدركت نظامه ، فثمة أجرة لقضاء ليلة كاملة فى غرفة بسريرين أو ثلاثة أو أربعة ، أجرة أقل لمن ينام نهاراً بدءاً من الثامنة صباحاً وحتى الثالثة مساء ، وهؤلاء يتمددون فى نفس المواضع التى ينام بها النزلاء الدائمون ، سعر أرخص لمن يأوى فترة ما بين الظهر والعصر للراحة .

نزلاء يجيئون فى هدوء ويمضون صامتين ، متفاهمين ، لا أحد يحتج ، لم أسمع مشاجرة ، ولم يقع استفزاز ، فندق شبيه بمحطة ضرورية على طريق لا يعرف أحد أين يؤدى ، كل من يعبرها مضطر ، اللائحة واضحة ، كاشفة ، صريحة ، تطلع كل قادم على محدودية المكان وتواضعه ، مختومة بالنسر المقدس حكومياً . إلا أننى لم أكن راضياً ، أغفو بصعوبة ، أضطر إلى الانتظار مدة فى الصباح أمام دورة المياه ، زميل فى الجمعية مغترب مثلى ، مقيم فى غرفة فوق سطح بناية قِبلى المدينة ، قرب سوق الخميس . كان هادئاً . قامته منحنية إلى الأمام عند وقوفه وقعاده ، أبيض شعر الرأس والحاجبين ، ممن يطلقون عليهم "أعداء الشمس" ، قال إن إقامتى فى مثل هذا الفندق مقلقة ولا تليق ، بعد يومين أفضى إلىّ بعثوره على حجرة صغيرة إيجارها زهيد ، نصف جنيه فى الشهر ، صحيح أنها ضيقة لكنها أفضل ، فثمة باب مفتاحه فى جيبى ، أغلقه ليلاً .

فى بداية الأسبوع التالى كنت متمدداً فيها ، أمضى الليلة الأولى فى مكان يخصنى ، لم تكن حجرة ، إنما جحراً ، سقفها مائل ، ليس إلا سلم البيت الواصل بين الفناء والطابق الأول المؤدى إلى الثانى والثالث ، أقام

المالك جداراً من خشب - يتخلله باب لا بد من انحنائى عند عبوره - حجب به الفراغ الواقع تحت السلم ، أما دورة المياه فمشتركة مع ثلاث غرف تطل أبوابها حول الفناء ، يسكن أحدها شرطى سرى ، أب لسبعة أبناء ، لا يكفون عن الضجيج ، كان فراشى مرتبة قديمة اشتراها صاحبى من متجر أثاث مستعمل قريب ، قال إنه يدرّس اللغة العربية لابنة صاحبة البيت . إنها فى الإعدادية لكنها فائرة ، ناضجة ، ورائحة جسدها تصيبه بالدوار ، هى التى بدأت عندما تعمدت مس يده بأصابعها تحت المنضدة ، ثم جاست يده فى ثناياها بحذر ، توقف ليسأل :

"ألم يحدث شىء عندك ؟"

" لا .. "

لم أحدثه عن ضنكى لرطوبة المكان وانعدام الفتحات ، وصلابة الأرض وبرودتها ، وحشرات الليل ودبيب الفئران التى أخشاها أكثر مما أخاف الثعابين ، كنت أنتهى من عملى فى الثالثة وأمضى إلى النيل ، أقعد مواجهاً الجبل والنخيل ، مستوعباً الهدوء النظيف الساجى ، أشم الهواء النقى ، ثم تحين اللحظة التى يلجئنى عندها إرهاقى إلى ذلك الجحر ، يبدأ حنينى إلى القطارات ، إلى دخولها المهيب ، توقفها البطىء حركة الركاب من وإلى الأرصفة ، أتمنى أن أهتدى إلى مكان قريب من المحطة ، من أعمدة التلغراف . أستعيد المركبات النائية ، الساعية بى زمن طفولتى ، تلك المارة أمامى . أرصدها عبر نافذة الاستراحة .

شيئاً فشيئاً بدأت أعتاد المرقد الضيق ، فيه عرفت طوراً مغايراً لوحدتى ،

وأيقنت من قـدرة الإنسان اللامـحدودة على التكيف بالظروف ، وتطـويعه النفسى لتقبلها ، خاصة إذا استحالت المقارنة ، حتى الأحلام لها أفق ومدى مؤطر بما حصله المرء وما عاينه وما وقف عليه .

عرفت السكان من خطاهم ، يطلعون وينزلون فوقى . احتكاك أقدامهم، عارية أو مدسوسة فى الأحذية ، جلدية أو خشبية ، يمضى فوق حضورى .

خطى سـريعـة ، واثقة ، أرى من خـلالهـا زهوة الشبـاب والقـدرة على النفار ، لكنها عند العـودة عصراً تبدو متثـاقلة . إيقاعات الذهاب عند الكل نشطة ، عكس خطى الإياب ، تتخللها أخرى حذرة ، أصـغيت إليها عندما طال رقـادى يومـاً أو بعض يوم ، لارتبـاطى بموعـد قطار إلى سـمـالوط أو ملوى بعد العاشرة ، خطى متلصصة ، وئيدة ، تاجر الفاكهة القريب وتردده على امرأة ساعى البريد الذى يغادر فى السابعة صباحاً .

خطى ليلية هامسـة، صاعدة عبر الفناء، أخرى قـادمة من الطابق الثانى، رغم الحرص على لمس الدرج بأطراف الأصـابع، إلا أننى كنت أحملق إلى الجحر فى العتمة راصداً ما يجرى فوقى مباشرة، واعياً بالحفحفات والحركة شبه الراقصـة حتى أوان الافتراق الحذر. فى الأيام التاليـة أرى طالـب المعهد التـجارى نازلاً، نتبـادل تحيـة الصبـاح، وفى لحظة أخـرى ألمح ابتسـام ابنة الشـرطى السـرى تنشر الغـسيل تشب على أطراف أصـابعهـا لتطال الحبل فينحسر الجلباب عن ربلتى الساقين اللتين تقفان فوق صدرى ليلاً وتنفرجان

عرفت الخطى قبل أن التقى بأصحابهـا ، إيقاعات أخرى لـم أستدل على مصادرها ، خاصة تلك المفاجئة التى توقظنى ليـلاً ، كثيرة ، متعاقبة ، لكننى

لا أعرف سبب قدومها أو انصرافها المتعجل ، كما أن تداخل الأصوات يعطل أى تفسير .

خطى تعاطفت معها ، ساعية ، راجية ، متعبة ، باذلة .

خطى ضقت بها . خبطها الدرج بصلف .

خطى خشيتها . تلك الليلية . المجهولة .

أتلملم ، أصغى ، أحاول تلقى الإشارات الدالة ، لكنى .. عبثاً .

كنت أخرج خافضاً عينى ، مطرقاً برأسى ، إننى الأعزب الوحيد والعيون ترصدنى ، رغم أن الخطى المتلصصة ليلاً أو نهاراً من تلك الأسرة أو هذه ، ثمة تواطؤ خفى ، الحيوات مكشوفة ، لكن ثمة تغاضى ، وبقيت خشيتى ، ونزوعى إلى المفارقة .

ذات صباح أمضيت بصحبة مدير الجمعية وقتاً ، بدا متبسطاً ، وراغباً فى الحديث ، كان دمثاً ، مهذباً ، متحفظاً ، ولا أدرى كيف انتهى الحديث بموافقته على إقامتى فى سمالوط ، أن أتخذ من مركز الوحدة هناك مقراً وأمر من خلاله على الوحدات فى ملوى ومنشأة بدينى وزاوية سلطان شرق النهر ، وأن أقدم إليه تقريراً أسبوعياً ، كل يوم خميس .

هكذا .. انتقلت من الجحر إلى قصر مطل على المسار الحديدى الصاعد جنوباً النازل شمالاً .

***

وحدة

يقع قـصر آل الشـريعى قِبلى مـدينة سمـالوط . لم أعرفـها من قـبل إلا كنقطة يقف قطار الشـامنة عليهـا فى سفـرنا إلى الجنوب باعتـبارها مـركزاً ، ويتـجـاوزها المفـتخـر السـريع الذى نعـود به ولا يتـوقف إلا عند عـواصـم المحافظات . لـم تكن تعنى لى شيـئاً محـدداً ، لا ملامح خـاصة لهـا ، فقط بعض البيوت الفسيحة القديمة ، عكس مطاى التى تبدو بيوتها حديثة ، وبنى مزار التى تشى بمساحة أكبر ، لسمالوط مركز تجارى يقع بالقرب من المحطة وتمتد مـستطيلة بحذاء ترعة الإبراهيـمية تماماً مـثل معظم مدن الصعـيد التى تحددت معالمها باستطالة الوادى، وتدفق النهر من الجنوب إلى الشمال.

تبـدو مزارع خـصبـة ، ثم أفق فـسيح بعـيـد إلى الغرب ، أمـا قصـر آل الشريعى فيـعتبر خارج المدينة وقـتئذ ، مرتفع حوله سور حـجرى عريض ، يتخلله باب حديـدى قوى ، يليه مدخل مؤدى إلى درج من رخـام ، أعمدة مستديرة رومانية التيجان تحمل الشرفة العريضة .

إلى يمين المدخل غرفـة فسيحة ، مـرتفعة السـقف ، تطل على الطريق ، منها يمكن رؤية الترعـة والقطارات وأعمدة التلغراف ، على الفـور اتخذتها

مقراً رغم أن أحدها مستطيلة ، مطلة على الحقول الممتدة من الناحية الغربية، التالية لجدار الحديقة مباشرة ، غرف الطابق الأول المجاورة لمكتبي تنتصب بها أنوال السجاد اليدوى ، صبية صغار ، فتيات تدور أعمارهن بين الثانية عشر والخامسة عشر ، للوحدة مشرف فنى اسمه النعمانى من الفيوم، وأمين مخزن من بنى مزار ، يجىء يومياً بالقطار ويرجع إلى بيته عند العصر، عارف بالمدينة وناسها وعائلاتها ، ومطلع على خباياها وأسرار الموظفين من ذوى السطوة القادمين من مصر ، مثل وكيل النيابة وقاضى المحكمة الابتدائية ، وضباط الشرطة ، إنهم يقيمون فى عمارة من المساكن الجديدة قبلى البلدة ، تلى قصر آل الشريعى بمسافة قصيرة ، وكلهم عزاب .

ثمة طابق تحتى، كان يستخدم أصلاً كمخزن وسجن، ويقال إن القصر كان يضم مشنقة لتنفيذ الأحكام فوراً، تماماً مثل قصر آل الملوم الأكبر والأفسح، القائم على مقربة من مدينة مغاغة، آخر حد محافظة المنيا إلى بحرى .

القصر كبير ، فسيح ، مهجور ، بعض حجراته مغلقة منذ أن هجره مُلاَّكُه الأصليون بعد قيام الثورة ولا أحد يعرف محتوياتها ، غرفة واحدة مختومة بالشمع الأحمر .

حتى الثالثة عصراً تسرى الحياة فى البناء ، أصوات الصبية ، دقات المشط الحديدى الذى يثبت العقد واللحمة ، تكتكات المقص عند تسوية الوبر ، أصوات أعرفها منذ لحظة دخولى ورشة مدرسة العباسية الثانوية الصناعية وبدء دراستى واشتغالى بهذا الفن .

حرص الكل على راحتى ، فتحى الساعى المقيم فى قرية قريبة اسمها منشأة بدينى ، وما زال يرتدى الطاقية والجلباب ، قام بكنس الغرفة وتنظيف

أركانها وزوايا الجدران من بيوت العنكبوت العالق ، ورتب السجاد الذى أفرشه بعد انتهاء العمل لأتمدد فوقه ، لم يكن لدىّ أى أثاث عدا مكتب وثلاثة مقاعد وصوان من خشب ، اشتريت بطانيتين وملاءة من فرع عمر أفندي ، كذلك وسادة من ترزى بلدى ، وقبل قدوم أى شخص كنت أطوى هذا كله وأنقله داخل غرفة صغيرة إلى يسار الداخل يبدو أنها كانت مرقباً أمامياً وموقع حراسة .

كنت مبتهجاً بالضوء والفراغات والبيت الفسيح والتعرف إلى أشخاص جدد لم ألتق بهم من قبل ، لكن بمجرد انصرافهم وبقائى وحيداً تماماً تدركنى وحدة قاسية أثقل وطأة من أوقات الاستراحة ، ذلك أننى كنت هناك مجبراً على البقاء وحيداً ، العمران بعيد ولا بد من اجتياز المزلقان ، كنت أتداخل فى بعضى ، لكن القصر المهجور هنا على أطراف المدينة ، مطل مباشرة على الطريق الرئيسى فى الصعيد كله ، ما بين مقرى وأكثر الشوارع زحاماً ، ما يمكن اعتباره المركز أو القلب ، مسيرة سبع دقائق أو ثمانية ، رصيف مبلط وسور أنيق محاذ للترعة يبدأ بعد حوالى مائة متر ، يحدد أيضاً زحام المدينة ، كنت أتعرف على ملامحها ببطء ، على مهل ، معظم الناس هنا لا يفارقون بيوتهم بعد انتهاء أعمالهم ، المقاهى نادرة ، اثنان فقط على الطريق يتوقف عندهما سائقو النقل وعربات الأجرة قديمة الطراز العاملة بين سمالوط والمنيا بالنفر ، أو الأكثر عتاقة الواصلة بين القرى النائية والمركز .

الخط الحديدى يحدد المساحات والأماكن بصرامة وزهو، على الناحية الأخرى حقول تنبثق منها أشجار النخيل ، وتبدو مجموعة من المساكن

الشعبية الحديثة، ذلك النمط المتشابه الذى ظهر بعد الثورة فى مدينة العمال ناحية امبابة ، وفى ضاحية حلوان ، ثم انتشر فى أماكن أخرى، وإذا كانت تلك الشقق رخيصة وتسكنها الأسر الكادحة فى العاصمة، فإنها تعد فى الريف سكناً متميزاً لا يحصل عليه إلا الموظفون والعاملون فى أجهزة الدولة.

يمكننى مغادرة القصر عصر كل يوم والمشى والتجول فى شوارع المدينة ، لكن .. إلى أين ؟

لا أعرف أى شخص هنا ، وإقامة الصلات ليست سهلة ، البيوت أبوابها موصدة فى مواجهة الغرباء ، التحفظ هنا شديد، والمدينة يمكن استيعابها خلال جولة سريعة ، إنها واجهة فقط، مستطيلة، نحيلة العرض، شوارعها سرعان ما تنتهى إلى الحقول، سينما وحيدة لا تعمل إلا صيفاً، ذكرتنى واجهتها بسينما الفتح فى الجمالية التى تحولت إلى مخزن للخشب.

مدينة صادة . الجفاء للغريب . حتى الصلات العابرة صعبة ، لذلك بدت لى أشد جهامة من أيام الاستراحة ، أينما وليت الوجه أرى ملامح عبد المقصود ، لاحظ محمد أمين المخزن انقباضى ، ألمحت إليه ، ضحك غامزاً بعينه ..

"لا تتعجل .. المدينة الموحشة فى نظرك لها أسرارها"

"الأسرار كثيرة .."

قال مقهقهاً

"عندما تكتشفها تذكرنى ."

***

نفثات

لمحتهن . فى الموعد ذاته كل يوم .

ثلاث ، سِربٌ أنثوى يبدد اليباب ، قمريات ناضجات ، مرتويات ، ساعيات ، يجئن من ناحية المحطة متجهات إلى قبلى ، لا بد أن أسرهن تقيم فى المساكن الجديدة ، يرتدين زى المرحلة الثانوية الرمادى ، يحتضن حقائبهن فى أوضاع شاعت وقتئذ بين الفتيات بعد ظهور لبنى عبد العزيز الممثلة تمضى متمهلة إلى جوار عبد الحليم حافظ فى فيلم الوسادة الخالية .

الرابعة عصراً ، أكون وحيداً تماماً ، بعد انصراف الجميع وتناولى غذائى البسيط . بدلاً من متابعتهن عبر النافذة خرجت إلى الطريق ، إلى الرصيف المطل على الترعة ، أقف عاقداً يدى أمام صدرى ، متطلعاً إلى الجهة المضادة، لاحظت وقوف عامل يرتدى حلة صفراء ويمسك سماعة هاتف ملفوف حولها أسلاك .

يَلُحن ، بمجرد ظهورهن يتبدل حضور كل شىء ، برق الهواء ، تتيمم الموجودات ، ويسرى عندى هديل خفى ، أنها لحظات ظهور علية ونادية وسعاد وثريا وسناء هؤلاء اللواتى ترنحت صورهن فى فؤادى ورطبن

خـفق قلـبي ، أبطأت من دقـاته وأســرعت ولم يحطن بخـبــر ، ذلك أنني اكتفيت بما جرى عندي وحُشْتُـه داخلي ، حجبته عن الظهور وهذا حالي في تلك الحقبة .

تمليت منهن ، من ملامحهن ، من تضـاريسهن ، خاصة الوسطى ، كانت أطولهن قـامة ، بشرتها قـمحية ، شـعرها أسـود غزير ، لهـا إقبـال وإدبار عظيمان ، لا يتجاوز قدومها إلا ذهابها ، من هنا صدرها ، ومن هناك ظهرها وردفاها الأشمّان ، المحركان ، الباعثان على الترقي .

كنت أنتظر هـفهـفـة تلك اللـحيـظة المارقـة ، عند مـحـاذاتي لهن ، عند مرورهن أمـامي مبـاشرة ، ولضـيق الرصيف كنت أتنسم عـبيـرهن الأنثوي الضـاج ، وأحـيانـاً كنت أغـمض عينـي وأزدرد روائحهـن العطرية ، البث السري لأجسادهن القوية ، المزدهرة .

أدركت الرابطة بين ظهورهن والقطـار ، يصل إلى المحطة في الرابعة إلا خمس دقائق ، قادم مـن بحري ، لا بد أنهن يدرسن في ثانوية بني مزار ، أو مغاغة ، يمر بضجيجه متهـادياً ورائي قبل وصولهن بدقيقة أو دقيقتين ، قطار بطيء ، عرباته كلها للدرجة الثالثة باستثناء واحدة مخصصة للدرجة الثانية، كان يـئن عند مروره وتصـرّ عجـلاته ، إن السرعـة والطاقة تحـددان هيئته ، فالمروق الجبار لا يتوقف إلا عند الحواضر الكبرى ، أما تلك العتيقة المتلكئة، البطيئة فإنها تبـدو متعبة ، ضئيلة الشأن ، لم أعرف شـيئاً عن ذلك المتجه من بحـري إلى قبلي إلا أنه يأتي بهـؤلاء الحسـناوات واللواتي لا يفارقنني بعـد اختفـائهن ، إذ أستعيد تأودهن وتقاربهن مـن بعضهن عند الدنو مني ، لا بد أن وقوفي الصامت ، الـضاج ، المتوتر ، أصبح ملحوظاً عـندهن ، وربما مثار بعض تعليقاتهن ، عند تمددي . في تلك المرحلة الفاصلة بين اليقظة والنوم ،

أستدعيهن بشدة ، بقوة ، أنفرد بكل منهن ، أتمهل مأخوذاً بزهو أثدائهن وشبوب حلماتهن وطَلّعِ أفخاذهن المنبئ ، الحاض ، يتبخر قطر دمي إذ تشتد السخونة وتلج بي الحيرة وأنا وحيد في مداري . غير أنني أتوق إلى اليوم التالي ، أتقنت اختزال التوق والشوق ، الرغبة والنزوع ، العوامل الحاضة والأسباب المانعة ، المقيدة ، كافة العناصر المؤطرة ، صارت تتجمع كلها متكأكئة فوق ما هو أضيق من سن الدبوس ، تلك اللحيظة المارقة ، المؤدية . وكنت أظن أن ما يصدر عني إليهن أشد ما عرفته ، إلى أن لمحت الريانة ، الراوية ، الصادحة ، موضع تعلقي ، قادمة عصر يوم بمفردها ، تضم الحقيبة إلى صدرها ، أيقنت من تحقق وحدتنا في الخلاء ، بمرأى ومسمع ، استنفرت شتى حواسي ، الظاهر منها والخفي ، لم أنتبه قط إلى مرور القطار ورائي ، ولا أدري حتى زمن تدويني هذا ماذا جرى ؟ ، إنما صرت إلى كينونة تطلع صوبها ، إلى الحومان ، الدنو بالنظر إن إمكن . توضأت تأهباً للحظة المحاذاة ، التوازي ، لم أخف توهج نظراتي ، ركضت ما بين عنقها وصدرها وتمهلت عند بطنها وحركة وركيها، أمام ، خلف ، رشقت بصاتي في عينيها ويا للروعة ، لم تجفل ولم تخذل ، إنما واجهتني متحدية ، مستفسرة ، فتوالجنا بالنظر وعلقت بأهدابها، بفوحها ، بظهرها ، بشرفاتها ودوائرها ، ولأن ما عندي فاض ، فتسارعت أنفاسي لحظة تواجدها المؤقت، العابر ، على خط واحد معي ، دمدمت نفثاتي ، وبدون أن تنفرج شفتي سُمع جعيري المكتوم وأدركها حتى أنها مدت الخطى ، منكفئة إلى الأمام ، وبعد اختفائها رحت أزوم محققاً اتصالي المستحيل عبر استنفاري قواي الأولى المنسية ، وتلك الحاضرة !

***

دانية

شتوية الوقت دفعت بى إلى طور جديد ، نهارات قصار ، حلول مبكر، اكتمال الغسق فى الخامسة ، قطار الخامسة والنصف القادم من أسيوط إلى مصر ، يجىء فى العتمة بعد أن كان يسعى إلى زمن قريب فى ضوء النهار المكتمل ، بنات الفترة المسائية فى المدرسة الثانوية يلحقن به ، إنهن مضطرات . فى تلك السنوات بدأ تزايد الأعداد واضطر القائمون على تدبير الأمر إلى تشغيل مرحلة مسائية ، فاشتملت المبانى على فترتين ، أولى صباحية ، وأخرى تبدأ بعد انصراف الطلبة الذين يجيئون من قرى قريبة ونجوع وضواحى ومراكز تعد بعيدة .

عند عودتى من الجمعية بعد تقديم تقرير عن زيارتى لوحدة ملوى الإنتاجية . فوجئت بالطالبات فوق الرصيف ينتظرن ، يقفن فى مجموعات، يتحدثن ، يتوارين فى بعضهن ، وكان بعض الشباب يتربصون على مسافات ، لكن لا يمكنهم التجاوز ، فالتقاليد ثقيلة الوطأة ، والعيون منتبهة ، ويمكن لمتواجد بالصدفة أن يُبدى الزجر .

عند وصول القطار تدافعن ، مصباح قديم وحيد ، ضوء من خارج العربة يضيء بعض أركانها ، مقعد خال ، لزمته ، تطلعت عبر النافذة ، فوق الرصيف بدت أسراب جديدة ، أزياؤهن زرقاء ، يتصايحن فالوقت أزف . وأصداء الرنة الأولى للجرس تتوالى مبتعدة .

حطت إلى جوارى ضاحكة مع إحدى زميلاتها ، لم تنتبه فمست جسدها وسرعان ما نأت ، غير أن فوحها العفى غمرنى ، للشعر الفتى أريج، ومن الثنايا الخفية إشارات مرسلة ، كما أنها جاهزة للتلقى ، إنها السادسة عشر وربما أقل ، بالتأكيد فى حدود الخامسة عشر ، لمحت قسماتها بسرعة ، جميلة ، مصونة ، ملاحة غير مطروقة بالنظر ، حيية ، تشاغلت عنها بالتطلع من النافذة لأبدو غير عابئ ، منصرف عنها مستغرق مع أنى بكليتى متجه إليها .

بمجرد تحرك القطار وتجاوزه الرصيف وخروجه من حد المدينة جرت عتمة دامسة حجبت الكل ، كأن النوافذ مع اتساعها لا تؤدى إلى شىء ، والغريب أن الأصوات راحت فى تلك الغربة الدجوجية ، انقطعت عن كافة العناصر عدا تلك الكينونة الحسية المشعة إلى جوارى فوضعت الخطة وشرعت فى التنفيذ .

دفعت بفخذى صوبها ، استبشرت ، لم أتلق أى رد فعل ، ملت قليلا متجهاً إليها ، سرى إلىّ دفئ المنحنى المؤدى إلى الردفين ، حافظت على اتجاه نظراتى صوب الخلاء المزروع المعتم ، إيقاع القطار ، العجلات واحتكاكها بالقضبان ، عبورها الفواصل الدقيقة ، ولتلك الفواصل الإيقاع المؤطر ، المؤثر ، المؤدى ، وصلنى القبول فتقدمت أكثر . صار جانبى الأيسر

ملتصقاً تماماً بجانبها الأيمن ، تململت لكن باتجاهي فتضاغطنا بقوة ، بعد لحظات من الثبات تشرب خلالها جسدى تدفق دمائها المتزايد وتصاعد حرارتها ، خاصة عند بدء ميلها مستندة إلى الإمام ، لم أسمع زفراتها ، إنما رأيتها ، عندئذ سعيت بأصابعى إلى صدرها ، نزلت متمهلاً ، ملتزماً بفقرات ظهرها ، حتى نهاية الكنزة الصوفية ، رفعتها لأصل إلى حافة تنورتها ، وعلى مهل حاذق لا يتناسب مع أنفاسى الملتاثة وتوقدى وتصاعد الحمية عندى دفعت بأصابعى تحت قميصها الرهيف لتتصل مسامى بمسامها، وأهبط إلى بداية مرفق الردفين الجامدين ، الناهضين ، متجاوزاً عن واديها ، معدلاً وضعى بحيث أصبحت راحتى متوسدة بطنها الوثيرة ، خشيت تبدل ركنى ، سحبت يدى مرة واحدة ، ودفعتها من تحت التنورة مباشرة ، مستنداً بذراعى الأخرى إلى النافذة ، ولأول مرة أدرك نعومية الأنثى ، ذلك الملمس المسكر المرتوى عند الفخذين المتضامين ، رحت أحرك أصابعى برفق ، بحنية ، بشوق وتوق ، وتوقد ، لم أسمع ازدرادها لريقها غير أننى شعرت به ، ملت ناحيتها لأتنسم رفرفتها ، متلقياً نمنمتها ، هسيسها اليمامى ، رجعها ، تباعدها عن بعضها ، ترجرجها ، أناتها القصوى، سمعت حروفها من بين حشرجتها الشبقية .

"لا تجرحنى .. اعمل معروف .."

وصاحب ذلك انفراجة الطريق المؤدى إلى قطيفتها النُمنُومة ، المبتلة ، تخليتُ عن حذرى ، دفعتُ بيدى الأخرى إلى صدرها ، غير أنها تلقتها وغرست أسنانها فى راحة يدى ، فسجدتُ احتراماً لهذه النعمة !

***

نسائم

لو أحصيت مدد استعادتى تلك اللحيظات العابرة وتمعنى فيها وتيمنى بها لكان أضعافاً مضاعفة لما عرفته بالحس ، ذلك أننى سعيت لكن عبثاً لم أستدل عليها ، لم يكن لدى أوصافاً محددة ، جلية ، أو اسماً وعنواناً ، مجرد مس قوى أودع أثره فى المسام وأثر من تضام محموم وامتزاج بين ما لا يمكن الإمساك به أو تعيينه ، غير أن نسيمها مثل عندى ، وصلتى بالروائح متينة ، حتى لأستدعى اللحظات بواسطتها ، وأهتدى إلى الكوامن الخفية بها ، باقة فوحها تتخللنى ، ما ينبعث من شعرها مغاير لما يبثه نهداها، أو ردفاها ، أو نعومتها الجلية ، رغم وعيى الأتم لم أهتد ، لم أتوصل ، صرت أغادر سمالوط إلى مدينة المنيا عصراً ، مرة مستقلاً عربة أجرة ، أو حافلة ، أو أذهب إلى مقر الجمعية صباحاً بالقطار وأبقى فى المدينة ، أتناول غذائى عند "أبو جلال" يأتيه القوم من كل فج ، له شهرة ، يقع مطعمه فى مواجهة مبنى فندق سافوى ، مطل على الشارع الذى يبدأ من ميدان المحطة وينتهى عند كورنيش النيل . إنه مقهى أيضاً ، يقدم وجبة متقنة ، طبق من الفول مجوهر الحبات ، نوع جيد بعد هرسه يصبح أنعم من الزبد وأملس

من بشـرة العـذراء ، ياه .. لـم أتصور طراوة آدميـة عند بلوغ تلك الدفـائن المكنوزة ، صارت أساس مقارنتى ، مرجعى فى الليونة حتى زمنى هذا . إلى جوار طبق الفول كوب من الحليب الدسم ، قشطتـه سميكة ورائحة الضرع متـصاعـدة . طبق صغـير به قطعـة باذنجان مخـلل ، وبصلة وشرائح خـيار ثلاث. ثم يلى هذا كـوب من الشاى ، ويمكن للإنسـان بعد ذلك أن يسـعى واثقاً ، قابلاً للتحـدى وصنوف المنازلات . أما أبو جلال فكان يجلس فوق مرتفع مشرف على المكان ، يتناول المارك من النادل ، ويدقق ، يرتدى جلباباً بلدياً من الصـوف ، وطربوشـاً أحـمـر اللون ، وكـان الطربوش يمضى إلى انقراض بعد أن اعتبرته الثورة من عـلامات العهد البائد ، يهتم بسؤال زبائنه عن أحوالهم ، ويطمـئن إلى رضاهـم واستمتـاعهم بما يقدم ، وجبـة متقنة لا أستدعيها إلا وأهفو ، كنت أدفع مقابلاً لهـا قدره خمسة عشر مليماً فقط لا غير ، فما أمتع وما أيسـر وما أبهج خاصة أن هذه القعدة ارتبطت بانتظارى خروج الـصبيـات المتـستوفـزات الساعـيات كـإناث الطير ، أسبقـهن إلى الرصيف ، أتخذ موقعـاً يمكننى من التدقيق ، ثم أقترب متنسمـاً، مستنشقاً ، أتجه إلى المقعد ، جاورت الكثيـرات وعرفت مسرات وتجاوزت ، لكننى لم تحنو رئتاى على نسيمها ، أبداً لم أهتـد إليه ، والغريب أننى استعدته طازجاً فواحاً فى قارة أخرى وفى ظرف وعر ، مغاير لكل ما عرفت عندما قصدت الولايات المتحـدة لشق صدرى وإصلاح ما أفسـده الوقت فى قلبى ، وكـان ذلك بعد واحد وثلاثين سنة .

***

زعقات..

يوم جمعة ، وما أصعب الانفراد ، يغادرنى الجميع بعد ظهر الخميس ، يشترى محمد لحماً أو طيوراً مذبوحة من سوق سمالوط صباح الخميس ، ويستفسر فتحى عما إذا كنت فى حاجة إلى شىء ، ويختفى النعمانى من ظهر الأربعاء ، لا يبقى سواى فى هذا الفراغ كله ، تحيط بى الجدران والأعمدة ، وفى الليل أصوات المكان التى لم أتآلف معها لعجزى عن تفسير بعضها ، ويقينى أنه صادر من داخل القصر ، لم يتفق هذا لى حتى فى استراحة الرى ، أما أصوات القطارات فكانت مغايرة لتلك التى أتقنت تمييزها عند إقامتى فى الاستراحة ، رغم أنها نفس القطارات وعين المواعيد، إلا أن الضجيج الناتج مغاير ، زعقات مختلفة ، صفير أنحل وأثقب ، تكتكات أثيرة عندى ، يبدو أن ذلك راجع لاختلاف المسافات ، والفضاءات ، وترديد الأصداء . فى الاستراحة كنت أقرب ، لا يفصلنى إلا عرض الترعة فقط ، هنا يمتد الطريق السريع أيضاً ، الخلاء مباشر ، منطلق ، انتبهت خلال توقعى وانتظارى الفوارق بين أصوات القطارات الناتجة عن اختلاف الأماكن التى يمر بها ، عند عبور المدن ذات البيوت المتراصة

والشوارع المتعامدة ، المتوازية، والميادين المتلقية ، المرسلة ، عند اجتياز الخلاء المزروع ، أو المحاط بالأشجار ، النخيل ، حقول قصب السكر الكثيفة ، المتماسكة ، زراعات الذرة وما تخفيه ، الجسور الصغيرة ، الجسور العريضة الممتدة فوق الترع ، القنوات ، الأنهار ، والكبارى الواصلة بين مرتفعين ، للنفير وقع مختلف هنا أو هناك ، وكنت أعرف الفروق بين صوت القاطرات البخارية العتيقة ، وتلك الجديدة التى تعمل بالديزل ، ثم القطارات الملتزمة بالأسلاك الكهربائية ، التى ترضع منها الطاقة وتستمد العزم ، عجيب أمر تلك الأصوات إذ غلب عليها كلها شجى القاطرات المعدنية ، الاسطوانية لها عدة مداخن . لكل منها صوت متميز ، فثمة ثلاث، كل منها فى سمك العصا ، فوق كابينة القيادة ، الوسطى أطولهن ، يشد السائق حبلاً فينطلق الصوت طبقاً لقوة الجذبة ، الصوت المنبعث أثناء الوقوف بالمحطات ينبئ بقرب الحركة ، وكلما دنا الموعد ، ورن الجرس للمرة الأولى فالثانية تتصف الزعقة بالحزم وتبث النذير إلى الأسماع ، إلى القلوب ، إلى الأفئدة ، إلى أسفل تنفث مواسير البخار دفعات متتالية لها إيقاعها المغاير ، أما المدخنة الرئيسية فتدفق الدخان القاتم منها باث للنُذُر كافة . أحياناً يكون للصفير أسبابه عند الانطلاق بأقصى سرعة متاحة بين المدن وعبر المسافات الفاصلة بين البلاد ، وأحياناً لا يمكن تلمس سبب واضح إلا ملل السائق أو ضجر مساعده ، أو الرغبة منهما فى مخاطبة المجهول المتربص عند كل لفة عجل ، لم يشجنى إلا صوت القطار من بعيد ، عند عبوره المدن الليلية ، فى معتقل طرة السياسى ، فى لحظة معينة من الليل ، قرب الثانية ، أنتظر صفارة واحدة ، مستطيلة كالعويل ، ولشدة

أساى أكـاد أوقن بانطلاقهـا منى ، تعبـيرها عنى ، معـقول أن يحـتوى هذا الكائن الأصم على هذا الحـزن كله ؟ كـان احتـمالـه وعراً زمن تقـييـدى ، لكننى انتظرت ولـم أملل قط .

صباح جـمعة هادئ ، كنت أقف وحيـداً أمام القصر الخـاوى ، العاشرة تقريباً ، ذلك الهدوء الكابى الذى يميز أيام العطل والإجازات ، يتأخر القوم فى النوم ، تخف الرِجْـل من الطرقـات وهذا مكثف للوحـدة عند الغـريب الفردانى .

كنت فى الطريق ولا أحـد غـيرى ، القـصـر ورائى ، والتـرعة أمـامى ، وأشجار النخيل والدوم والجميز العتيقة ، وخلاء .

فوجـئت بقطار لم أعـرف مثله من قـبل ، ولا بعده حـتى وقت تدوينى هذا ، لا يصدر عنه أى صوت ، لكـنه يبث حضوراً ناعماً ، مـاسكاً ، اكتمل شخوصى نحوه فلم ألتفت يميناً أو يساراً ، عـرباته متصلة ، يبدو كأنه وحدة متصلة ببـعضها ، لا قاطرة ولا مـقطورات ، إنما طول متحرك ، مـتمدد ، ذو لمعة ، بقدر بطئه الظاهر إلا أنه يمرق ولا يمر .

وميض ، وميض ، قـرب المحطة بدأ يرتفع متقدماً صوب السـماء ناشراً خطين من زرقة عـميقة ، لا أعرف حـتى الآن ، هل انبعثا منه أو امـتدا منه ، ولأننى لم أتوقع ، ولـم أقـدر ، كتمت طوال المدة المنقـضيـة مع أنى ما زلت غير قادر على الشرح والتفصيل واستيعاب الإشارة .

***

فجوة

جاءت .

لم أسع إنما أتت ، طرقت الباب بنظراتها ، بوقفتها ، بتوقها ، بانتظارها الإشارة الداعية ، أجلس فى الشرفة الأمامية ، المتصلة بالمدخل عبر الدرج الفسيح ، الباب الرئيسى من حديد مفرغ على هيئة أغصان وحنيات أندلسية، من الفراغات يمكننى رؤيتها ، لم أدعها تنتظر ، تقدمت لأفتح المصراعين الثقيلين ، دخلت فى خطوة واحدة استندت بظهرها إلى الجدار ، تلتف بشُقَّةِ سوداء لا تظهر إلا ملامحها ، وشم مثلث عند مقدمة الذقن ، وأنف صريحٍ متطلع ، وجنتان غائرتان يبرزان عينين يؤطرهما كحل ، كل شعيرة رمش مستنفرة ، مزمومة الشفتين ، تنفث رغبة صماء ذات هدير مؤد، وقوفها وأزيزها أطلعانى على ذاتى وكينونتى أثناء احتوائى الفتيات الثلاث لحيظة مرورهن أمامى وقمعى لنزوعى المطلق وتوقى إلى التواصل حتى لتصدر عنى دمدمة أستعيدها فى خلوتى فأعجب وأخجل .

لم تنطق وأخذت عنها ، فهمت ، بسطت يدى داعياً

"لوحدك ؟"

أثار همسها فحيحاً سرى بيننا ، إيماءة واضحة لا تخفى إلا على أبله مصمت ، أومأت أثناء تقدمي لها ، صعودي الدرج بعد إغلاقي الباب الخارجي ، دخولي الغرفة الفسيحة التي أتخذها مكتباً أوقات العمل ، وأرقد فيها بعد انصراف القوم ، ونزول الليل ، منها أصغي إلى أصوات القصر التي أتعرف كل ليلة على جديد منها ، اتجهت إلى المقعدين ، لم أدر ماذا أفعل بالضبط ، لكن أردت الانغماس في تحرك يبدد حرجي ويتيح لي الوقت لأدرك ما ينبغي فعله في مواجهة أنثى مكتملة ، هائمة ، تتطلع بلا حرج ، تطلبني ، إنه الانفراد الأول في حياتي ، حتى هذه النقطة ، عندما التفت لأدعوها إلى الجلوس ، بوغت .

الشُّقَّة السوداء تحت قدميها ، أيضاً جلباب من الكستور طويل الأكمام، ذراعاها النحيلان عاريان ، جلباب قصير من قماش خفيف يؤدي مباشرة إلى جسدها المشدود المستنفر ، يناعته تنتشر بسرعة ، أقرب إلى ثمار الجوافة الطازجة المنتزعة للتو من شجيراتها ، هكذا أستعيدها دائماً .

تتدبب بصاتها ، تلامس خصرها بأصابع يديها ، في وقفتها شروع وتحد واستجداء ، لم أدر ما يجب عمله ، أو قوله ، ابتسامة حائرة على شفتي ، أشارت برأسها كي أتقدم ، لكي أخطو ناحيتها ، ألا يكفي إقدامها وشروعها ، عندما واجهتها لفحتني أنفاسها ، انشبت عيناها في ملامحي ، في جسدي ، محرضة ، داعية ، مستغيثة ، عضت أسنانها ، قالت من بين فرجاتهما .

"مشتاقة .."

ثم زفرت هامسة

"مشتاقة قوى .."

أحاطت عنقي بيديها ، مالت بسرعة إلى الأرض ، شدتنى معها ، راحت تجوس بأصابعها فى صدرى ، تحاول خلع الجلباب ، لا أعرف من أقدم على الجذبة الحاسمة ، صرنا إلى عرى تام ، غير أنها ولجت وضعها ولم أقدم ، استلقت على ظهرها مغمضة العينين ، تماماً كما فعلت علية تحت السلم ، لكن شتان ما بين رقدة الطفلة المستبهمة وذلك الاضطجاع الملتهب ، الوقاد ، انفراجة الفخذين ، فوجئت بالمواجهة .

تلك الفجوة المعتمة المصاحبة ، التابعة لحركتها المتموجة ، أنفاسها تتسارع حتى أدركتنى خشية ، ربما لحقها أذى ، دفعت بجسدها نحوى ، غير أننى فى تلك اللحظة أدركت عُسْر أمرى ، وأن جوابى تأخر ، ولأننى أعرف حالى أيقنت انزواء الأمل فندمت على إتمام الخلوة وتمنيت الانقطاع، غير أنها تشبثت بى ، خمشت صدرى ، أحاطت خصرى ، علتنى ، مرغت وجهها على جانبى عنقي وعندما مدت يدها إلى صميمى بذلت الجهد لأقصائها ، ابتعدت عنها ، بدا عُريها المكتمل وجسدها المستوفز ، المستنفر ، الغارق فى بخار لهبه المستعر ، استمر انحناؤها ، تقوسها ، تمنيت اختفاءها ، ابتعادها ، قامت ، قالت آمرة :

"ابعد بعينيك عنى .."

استدرت صوب الناحية الأخرى ، عند خروجها من مجال بصرى

استعدت فجوتها فتداخل عندى الفضول بالاشمئزاز الغامض ، ولاحت عندى رغبة خفية ، لكننى عندما استدرت كانت تنحنى لترتدى حذاءها القديم ، ولاحظت الخلخال الفضى حول ساقها اليمنى ، فردة واحدة ، تذكرت عريها المكتمل منذ ثوان ، قوى تطلعى إليها غير أننى لم أسع ، مع تمام خروجها سمعت ألفاظاً متداخلة لم أميز بينها ، وقفت أتابع خطوها السريع ، منحنية إلى الإمام ، تحتوى جمرتها الملتهبة ، بمجرد ذهابها ، ابتعادها ، تحرك أمرى ، وسرى الدفء إلى سائر جهاتى ، وتحرك ندمى .

كيف أتركها هكذا ؟ كيف أعجز عن تهدئة جمرتها ؟

استعدت تفاصيلها وحناياها وبزبزة نهديها ، وسلسال رغبتها فاستعر وقيدى ، هكذا استمر الأمر فنلت منها بالمخيلة ما لم أعرفه بالتمكن وإن التمست لنفسى العذر بعد أن تزايد وعيى بكوامنى وأصول بواعثى ، وهذا ما تأكد عندى بعد لقائى بزكية رغم ميل بختى وسوء حظى .

***

قصر

أول ظهور لهـا فوق رصيف المحطة ، مـرة عند الجهـة المؤدية إلى بحرى ومرة عند الجهـة المؤدية إلى قبلى ، لذلك حار الكثيرون فى أصلهـا ، خاصة أن أكثـر من رواية نُسبت إليها ، ولكن مـا أكده لى فتـحى الساعى ، الوثيق الصلة بأطراف عـديدة فى المدينة أنها من قـرية صغيـرة شرق النهـر ، وأنها يتيـمة ، كانت تعيش مـع جدها الذى بدأ ينتبه إلى شـبوب الطفلة الصغـيرة التى استوت فجأة أنثى ضاجة ، جـميلة ، وقوى الأمر عليه مع إدمانه القديم لشراب عرق البلح الذى يطلق عليه محبوه "المهلك" لشدته وقوة تأثيره .

أول مـرة رأيتهـا فوق رصـيف المحطة ، وآخـر مرة طالعـتنى فوقـه ، فى المحطة يمكن لأى إنســان أن ينتظر بدون إثارة الانتــبـاه أو تحـرك فـضـول الآخـرين ، خـاصـة إذا كـانت القطارات لا تكف عن المـرور بهـا وتوقف العـديد منها. لـذلك تبدو للكثـيـرين نقطة ملاذ ، ومـقـصـد فى حـد ذاته ، وخلال مـدتى فى سمالوط عـرفت الكثيـرين من أهل المدينة الذين يجيـئون إلى هذا الرصيف أو ذاك ، يمضـون وقتاً ، ويقضون فـترة لغرض أو بدون ،

غيـر أن زكيـة علقت معى لـسنوات وعبـرت بى وعبرت بـها مراحل شـتى وحتى زمن تدوينى هذا أراها فيرتجف داخلى ويتحرك ما عندى ، رغم ثقتى بتغير صـيرورتها وفقدانها مـلامحها وطعنها فى العمـر ، وهذا حال عجيب أمعن النظر فـيه ، وأطيل التحـديق ، بقاء الصورة الأولى مع انقطاع العـهد وانتفـاء اللقاءات ، لذلك لم أسع قط إلى رؤية من عـرفتهن وامـتزج ريقى بريقهن وغـمست نظرى فى نظرهـن بعد انقطاع المودة رغم سنوح الفـرصة وسماح الأحوال بعض الأحيان .

عند الطرف القصى جلست ، بالضبط فى مواجهـة الباب الأخير للعربة التى لا تليها أخرى ، ربما لاحت لى تضاريسها لأننى كنت بعيداً عنها بقدر، قاعدة تطوى ساقيها تحتـها ، تميل ، اتجاه جسدها هذا حسم الأمر ، إذ أوحى بعظمة النهدين وعرض الردفين وتكوثر المدخل ونزاهـته ، حاولت التشاغل عنها بالنـظر إلى النخيل وأشجـار الجميـز على الجانب الآخـر ، قرأت اسم المحطة مراراً قبل أن يبـدأ اتجاهى إليها بخطى بطيئـة ، ممتدة ، متسـترة بعدد من الركاب قليل ، فـارقوا قطاراً متواضع الشـأن ، يتكون من ثلاث عربات كلها للدرجـة الثالثة ، يعمل بين مـراكز المحافظة ويتـوقف أيضاً عند بعض المحطات المنسية .

انتبهت ..

رصدتنى عند التوجه إليـها ، قالت لى فيما بعد إنهـا كانت واخذة بالها من اهتـمامى "قـوى" لكنها لم تـتوقع مـا أقدمت عليـه ، توقفت أمـامهـا ، انحنيت متناولاً البقجة ، قلت باختصار حازم ..

"اتبعينى .."

حرصت على أن تظل المسافة شبه ثابتة ، حوالى أربعة أو خمسة أمتار ، الحق أن هذا ما خيل لى ، ربما كنت أمضى مسرعاً أكثر من أى وقت ، ولكن عند الحذر الشديد ينتبه المرء إلى ما حوله ، ويتوهم ما يريد . عندما وصلت إلى القصر لزمت جوار الباب ، تيقنت أنها ورائى ، تتبعنى .

"تفضلى"

ليست بالطويلة أو القصيرة، رغم تدملجها إلا أنها لم تكن بدينة، الطرحة السوداء تؤطر ملامحها لكنها لم تخف نضارة البشرة وتدفق الحيوية رغم وعورة الظروف، عندما تم انفرادنا، وضعت البقجة فوق السجادة المفروشة التى أتمدد فوقها ليلاً، قلت ضاحكاً باسطاً يدى إلى ما حولى .

"القصر قصرك .."

عيناها جريئتان ، تتجاور فيهما الدلالات وتشرد ، تيه وحزن ورغبة وشقاوة السن ، قالت :

"القصر واسع قوى .. وفاضى قوى .."

ضحكت ، بدأت أرصد ملامح ارتباك مناقض لإقدامى وطفرة توثبى المنبثقة فوق رصيف المحطة ، ماذا يجب علىّ أن أفعل ؟ ، حضورها طفولى، ربما كان ذلك منطلق محاولتى المزاح ، ماذا يجب أن أقول ؟ استعدت بعض المواقف المشابهة فى الأفلام المصرية ، لكننى لم أر إلا شذرات ، ولم أقدر على استرجاع أى حوار ، فجأة قالت بنطقها الصبيانى كأنها تطلب قرصاً من الحلوى ..

"ممكن استحمى .."

بوغت ، غير أننى أسرعت نحو الحمام الفسيح فى الطابق الثانى حيث البانيو العتيق الفسيح ، لم يمتلئ بالماء منذ سنوات طويلة ، كنت أكتفى بالوقوف فيه وتناول الماء الساخن من الصفيحة بالكوز ودلقه فوق دماغى ، هذا ما بدأت أرتبه لها ، أشعلت الموقد الغازى ، تأكدت من انتظام لهبه ، وضعت الوعاء المعدنى المستدير فوقه ، تأكدت من وجود الصابونة ، والفوطة ، رددت بينى وبين نفسى "من الأفضل أن تزيل أثر الشوارع عنها.." ، حرصت على ترتيب كل شىء ، عندما أيقنت أن شخصاً يقف بالباب استدرت فبوغت ، زكية حاضرة ، مكتملة كما ولدتها أمها .

فتية ، مرسلة لضوء خاص يجسد نضارة مرتوية ، صدرها قائم بذاته ، الحلمتان بارزتان تحيط كل منهما هالة غامقة ، مؤطرة ، ولسنوات طويلة لم أعرف منطقة مؤدية ، مرتوية كتلك التى تعلو انفراجتها ، وكانت ملساء تماماً ، لا تبزغ منها شعيرة واحدة ، تقدمت منها محاولاً الاستيعاب ، مؤجلاً الإقدام ، كنت راغباً فى إبقائها خلال دائرة التمنى والترقب ، لا أريد التمكن منها حتى لا أفقدها ، وهذا ما صار إليه أمرى فيما تلى ذلك أو فلنقل إنه استعداد وتكوين ، وتأهب ، أحطت كتفها ، كانت غزيرة فى كل شىء ، ما يُرى منها وما لا يمكن استيعابه بالنظر ، استقرت داخل البانيو، أدارت ظهرها فتفلج ردفاها فى انبثاق خلاق أجبرنى على ازدراد لعابى ، غمرت جسدها بالماء ، وطلبت منى أن أدعك ظهرها باللوف ، أبطأت وأسرعت وترفقت بالحنيات البارزة والفوالق وكافة ما أتيح لى إدراكه من معالم ، والحق أننى كنت أنتقل من وعى إلى وعى ومن حال إلى

آخر ، حتى حركة يدى اتخذت إيقاعاً مختلفاً أبطأ ونظراتى ودقات قلبى ، صرت أتناغم معها بشكل ما ، وشرعت فى خلع ثيابى تجنباً للبلل من ناحية وسعياً إلى موقف تردد علىّ وترددت عليه بالمخيلة منذ إدراكى سنوات المراهقة ، ها أنذا منغمس فيه تماماً خلال أول تعرف مباشر على جسد أنثوى ضاج ، منفلت ، مؤطر ، سيظل مرجعاً أساسياً لسنوات طوال ، تمازجت حركاتنا ، وقع تماس بين الحواف ألهب وشعلل فاقتربت ، إلا أنها دفعتنى بأصبعها

"لسه شوية .. مالك مستعجل .."

عاودت الكرة ، إلا أننى أصغيت بدهشة وخوف وقمع ..

خبطات حادة فوق الباب الخارجى ، يزعق أحدهم

"افتح يا افندى .. فيه أمر .."

لا أعرف كيف ارتديت ما خلعت ، أمام الباب أربعة أشداء ، ملامحهم قاسية ، اقتحموا الباب ، تساءل أحدهم :

"فين زكية .. البك وكيل النيابة يطلبها .. لا تنكر .."

قبل اكتمال نطقى كان اثنان ينزلان من الطابق الأعلى ، أحدهما يحملها فوق كتفه مبتسماً ، كانت عارية تماماً ، لفوها فى سجادة من بقايا الأقمشة ، لم أدر هل أحضروها معهم ، أم كانت فى مكان ما بالقصر .

"هدومى .."

صاح أحدهم وكان يرتدى جلباباً

"هس .. ولا كلمة .."

أشرت إليهـا ، قبل لحاق آخرهم بالثلاثة الذين حملوها ملـفوفة وراحوا يعدون باتجاه المساكن الجديدة قِبلى البلد ، صاح

"احمد ربنا .. كنت حتروح فى ستين داهية .."

قعـدت فوق السلم ، وحيـداً تماماً ، محبطاً ، غـير مصـدق لما جرى منذ رؤيتى لها فـوق الرصيف ، وفى الليل أدركنى خـوف ، وبدلت مكان نومى مرات ، فيـما تلى ذلك من أيام حكى لى فتحى السـاعى أخبارها فيـما كان يقـصه علىّ مـن أحداث البلدة ، قـال إن المتناقل بين أهالى المدينـة لفهـا فى سجادة ونقلها إلى بيت وكيل النيابة الذى طلبها للخدمة عنده ، سألته حذراً عن المكان الذى عثـروا عليها عنده ؟ ، قـال إن البعض يؤكد اختطافـها من محطة القطار .

أوضاعها كافة علقت بى ، بدءاً من قعدتها فوق الرصيف ، وحتى تدلى رأسـها وتطلعها إلىّ مستسلمة ، شبه باسـمة وكأنها تمارس لعبة ما مع من هم أشد منها ، الأقدر على حملها .

رويت لمحمـد أمين المخزن ما جرى فنصـحنى بالحذر ، وعدنى بتـقصى الأمر ، فى كل يوم يـفضى إلىّ بما تتناقله البلدة عن زكـية ، بدءاً من اعـتداء جـدها عليهـا وهروبها ونومـها فى المـزارع وعند زوايا الطرق المؤدية وعلى الأرصفـة وداخل عربات القطار المهجـورة المنتظرة منذ سنوات على هامش المحطات إلى استـئثار وكيل النيـابة بها وإقامتـها عنده ، وعدم سمـاحه لها بالنظر من النافذ أو الوقوف فى الشرفـة ، وأكد لى أن ضابط النقطة يشاركه

فيها ، وأنهما يتبادلانها ، يوم لهذا وآخر لذاك !

رحت أسعى متحسراً عليها ، مستعيداً عُريها وملمس جسدها الناعم وانحناءتها ، وتَشَارُب صدرها رغم تقوس ظهرها ، أحدق فى الطريق الطويل المحاذى للترعة ، لعلها تظهر فجأة ، سعيت بخطوى إلى حيث رأيتها لأول مرة ، بدأت أقضى ساعات طويلة فوق رصيف المحطة ، حتى أنى حفظت ملامح الوجوه الصاعدة إلى القطارات أو النازلة منها ، غير أننى تعرفت إلى بعض من يقصدون المحطة لأسباب شتى وقامت بينى وبينهم صلات .

ومن هؤلاء الأستاذ عدلى موجه الفلسفة بالناحية .

"تصور .. موجه فلسفة هنا .. أى فلسفة ؟ تصور .."

قوامه نحيل ، طويل ، بارز الحنجرة ، طويل الأنف ، جاحظ الأنف ، يبدو كأنه على وشك الجرى ، ربما لانحنائه المستمر ، يتحدث بالعربية الفصحى ، أعزب ، لم يتزوج ولا ينوى ، يقول باختصار :

"فات الأوان .. فات"

مع أنه فى السابعة والثلاثين إلا أنه يبدو أكبر ، أكثر تقدماً ، عنده إلمام بعلوم الحروف ودلالاتها وأسرارها واللغات القديمة . حدثنى عن عالم موازٍ لعالمنا الظاهر . له أهله ومفرداته ولغاته وطقوسه وفيه المؤمنون الموحدون والكفار المارقون .

"يعنى يمكن أن يكون الآن بيننا رجل هناك ينام مع امرأته .."

"إذن .. بماذا نوصف نحن ؟"

لا يبتسم ، إنما يحملق إلى امتداد القضبان ، يشير بأصبعه الطويل

"بعض القطارات التى تمر هنا تسافر إلى هناك .."

أتطلع إليه ، أصغى إلى نبرة صوته ذات المستوى الأفقى ، الواحد ، يستمر كأن وجودى أو عدمه يتساويان عنده .

"بعض السائقين يعبرون وهم لا يعرفون ، يقفون بمحطات يجهلونها ، ويرحلون إلى أخرى لا يمكنهم قراءة عناوينها ، ويرون مخلوقات لا يمكنهم وصفها ، يعودون عند نقطة معينة لا يمكن تحديدها .."

أحياناً ينضم إلينا مصطفى أفندى ، موظف العلاقات العامة بمجلس المدينة ، غاوى صحافة . أحياناً تنشر له الصحف رسائل فى بريد القراء ، خاصة فى المناسبات الوطنية والأعياد الجهادية التى يحفظ تواريخها وأوقات حلولها ، إنه يصدر صحيفة محلية ، يطبع منها خمسين نسخة فى مطبعة قديمة تقع أمام مركز الشرطة وتطبع البطاقات والإعلانات التى توزع باليد والمنشورات الانتخابية فى المواسم الساخنة ، وهذه الصحيفة التى تضم اثنى عشر صفحة فى حجم الكراسة المدرسية ، تضم أخبار المسئولين عن قيادة المدينة ، من مأمور مركز ، ورئيس مجلس محلى وأمين الاتحاد الاشتراكى ، مع أخبار شقيق المشير عبد الحكيم عامر الذى يظهر عند العصر مرتدياً جلباباً وفوقه معطف ، يمسك بيده عصا ويتسابق الجميع إلى السلام عليه ومخاطبته "أبونا مصطفى عامر" هكذا يذكره الجميع فى غيابه أيضاً .

مصطفى أفندى دائم الإشادة به ، ليس لأنه شقيق أهم رجل فى مصر ، لكن لشهامته وجدعنته واتخاذه جانب الضعفاء . مصطفى أفندى يكتب مقالين موقعين . الافتتاحية ويخصصها للشأن الداخلى ، ومقال سياسى يتناول فيه الأمور الدولية بما لا يتعارض مع الخط الرسمى المعتمد للدولة . إنه متابع جيد لما تكتبه الصحف ، يقص ويلصق ويحتفظ ، لديه أرشيف ثمين ، يشير إلى دماغه ..

"إنه الذاكرة .. جريدة بلا ذخيرة لا تساوى .."

إذا جرى حديث عن حرب فيتنام يبادر قائلاً :

"أنا كتبت عن ذلك .."

ثم يذكر رقم العدد وتاريخ صدوره ، ويتلو ما خطه فى المقال ، سواء عن المشكلة القبرصية أو قضية الكونغو ، أو الحرب الباردة ، وكان يشك فى اطلاع محمد حسنين هيكل على أعداد الجريدة مسبقاً واستفادته مما ينشر فيها ، يبدو ذلك واضحاً فى مقاله الأسبوعى بالأهرام .

"ليس ذلك ببعيد ، كل ورقة فى المطبعة تروح منها عشر نسخ إلى القاهرة .."

كان يحفظ عن ظهر قلب عدداً من الرسائل المفتوحة التى وجهها إلى قادة الدول وزعماء العالم ، يشير بيده إلى نقطة ما فى الفراغ ..

"أنا قلت لديجول .."

يحتفظ برسالة تلقاها من الرئيس سوهارتو عقب استيلائه على السلطة

من خلال انقلاب دموى فى أندونسيا أطاح بالحزب الشيوعى ، السفارة أرسلتها إليه ، عبر الجهات الرسمية ..

"كان يوماً ولا كل الأيام ، استدعونى إلى المركز وسألنى ضابط المباحث العامة عن علاقاتى برؤساء الدول وخاصة الرئيس سوهارتو .."

دائماً يحمل العدد الأخير ، يبادر بعرضه ، والتنبيه إلى ما يحتويه ، نظر إلىّ وقال كأنه يرانى لأول مرة .

"يمكنك أن تكتب لنا أموراً أدبية .."

وعندما لاحظ تطلعى إليه ، تساءل :

"ألم تقل أن لك اهتمامات ؟"

يتصل الصمت أحياناً عند توقف الحوار ، وخلو المحطة من الركاب والمرور السريع للقطارات العابرة ، يرتفع صوته متئداً ، وقوراً ، بفصحى منمقة سليمة ، يتلو نص رسالته إلى الجنرال ديجول والتى يعتبرها من أهم ما كتب ويصفها بأنها قطعة من الأدب السياسى الرفيع ، ويؤكد استقرارها الآن فى وثائق قصر الإليزيه ، يقول الأستاذ عدلى إن القصور هناك لا قبل لأحد بوصفها . إنها متعددة مختلفة ، بعضها مشيد من الضوء ، وآخر من الأصوات ، وثمة قصور من الألوان لا غير .

غير أن وصول جرجس أفندى يقطع فى الأعم تلاوة الرسائل المفتوحة ، والوصف التوصيلى للعالم الموازى ، المتداخل معنا ، إنه مراقب التحويلة ، يقضى ساعات عمله داخل الكشك المرتفع ، المبنى من الطوب الأحمر ، والمليء بالمفاتيح الضخمة التى تتحكم فى حركة القضبان ، والسيمافورات،

يساعده اثنان ، لكنه يقضى أحياناً ضعف الساعات القانونية ، اعتاد المكان وعشق عمله ثم إنه ماذا سيفعل فى البيت ، حيث الشجار والنقار مع الولية. أعرف تطورات علاقتهما وتقلباتها من قراراته المتعلقة بالسفر .

"سأصحبها معى .."

أو

"لن ترى ذلك البلد أبداً .. أسهل لها أن تشوف حلمة أذنها .."

منذ أن جئت إلى رصيف المحطة ، لم أسمع إلا حديثه عن تلك الرحلة التى يخطط لها ، وذلك السفر المتوقع بين لحظة وأخرى ، أصغيت إليه طويلاً وحاولت الرد على استفساراته ، غير أن الأستاذ عدلى همس لى يوماً أن مشروعه هذا عمره أكثر من عشرين سنة ، لكننى لم أصده قط ، ذلك أنه كان جاداً ، دقيقاً فى كل ما يقوله ، ملماً بمواعيد وصول وإقلاع الطائرات ، وسفن الركاب العاملة على الخطوط المنتظمة فى الاسكندرية والسويس ، متابعاً متفحصاً لأسعار النقد العالمى بالنسبة إلى الجنيه ، يحفظ العديد من عناوين الفنادق فى اليونان وإيطاليا وفرنسا واسبانيا وانجلتره وهونج كونج ، كذلك أحوال الطقس هنا أو هناك ، وبالتالى ما يمكن اصطحابه من ثياب ، يتقن الاطلاع على كل تطور جديد فى القطارات ، يعرف أنواع المقطورات، وخصائصها ، وقدراتها ، والتحسينات التى تتم أولاً بأول ، بل إنه متمكن من أوصافها الفنية ، ومعروف فى المصلحة كلها بقدرته على إصلاح أى عطب دقيق أو صعب يحار أمامه الفنيون ، طبعاً فى البداية لم يكن مرحباً به ، بل إن شباب المهندسين فى الورش الثابتة والمتحركة سخروا

منه وتندروا حوله إلى أن جرت الوقائع المعروفة . المتداولة فى نطاق ضيق من مسئولى الدولة ، عندما وقع عطب فى القطار الرئاسى سببه عدم القدرة على التوفيق بين فرامل مقطورة مهداة من روسيا السوفيتية والعربات العتيقة ، التى تعمل منذ بداية القرن ، وتم تجديد فرشها فى نهاية العصر الملكى ثم أعيد ترتيبه ليتلاءم مع الوضع الجمهورى ، انتهى المسئولون عن المصلحة بعد طول عناء وبحث إليه ، استدعوه إلى القاهرة فى مهمة رسمية وصرفوا له عن كل يوم بدل سفر كامل مع استضافته باستراحة كبار الزوار بمبنى المحطة الرئيسية ، ثم اصطحبوه إلى محطة سراى القبة حيث يقف القطار الرئاسى داخل القصر الفسيح ، شاسع الأشجار والخضرة ، خلال ثلاث ساعات أتم إصلاح الخلل وعندما وصل الخبراء الألمان أبدوا دهشتهم للقدرة العالية التى تم من خلالها التوفيق بين نوعين مختلفين تماماً من الفرامل ، وأن المهارة التى أبديت والطريقة الفنية التى أُتبعت يمكن أن تسجل وتعتبر مثالاً يحتذى . غير أن أمل جرجس أفندى فى مكافأة تليق بما أنجزه خاب ، كان يتوقع أن يأمر رئيس المصلحة بمكافأة مالية ضخمة أو إرساله فى بعثة أو المشاركة فى وفد من تلك الوفود التى لا تكف عن الرحيل إلى البلدان الأوروبية بحجة المعاينة أو التعاقد على استيراد القطارات ولوازم التشغيل وما شابه ، عاد إلى سمالوط ليخطط لرحلة متوقعة ، يتصل بمكاتب السياحة ، ويطلب عبر الهاتف حجز مكان أو اثنين طبقاً لعلاقته بامرأته التى تمر بأطوار عديدة فى اليوم الواحد حتى عندما يخلو إلى نفسه تماماً فى كشك التحويلة ، ساعة يرضى عنها وساعة يغضب عليها وفى كل الأحوال لا يكف عن الحلم بالسفر خاصة عند جلوسه بعد

الظهر على المحطة .

عند نهاية الرصيف ينام عبده سيمافور ، إنه مجهول تماماً ، لا يعرف أحد أصله أو فصله ، ولم يخبرنى أحد بأمر قاطع حوله ، يرتدى جلباباً لا يبدله صيفاً أو شتاء ، حافى القدمين ، يكنس الرصيف بجريد النخل ، ويرشه بالماء صيفاً ، ويبدو فى ذروة نشاطه عند لقاءاتنا بالمحطة ، خاصة عندما نتجاور معاً ، الأستاذ عدلى ، ومصطفى أفندى ، وجرجس أفندى ، وسيد الأزهرى مدرس اللغة العربية ، يروح ويجيء بهمة ، يتوقف على مقربة منا ، يرفع يده مؤدياً التحية بنفس الحماس الذى يقف به أمام السيمافور ، إذ اعتاد أن يتطلع إلى الذراع المعدنية المتحركة ، وعندما تميل إلى أسفل إشارة للقطار القادم بخلو الطريق وأمانه يزعق بصوت ذى هدير يمكن سماعه حتى أطراف المدينة .

"تمام يا أفندم .. تمام .."

ويظل شاخصاً . رافعاً يده حتى تحرك السيمافور وعودته إلى وضعه الطبيعى ، عند انصرافنا أو تأهبنا ينحنى فجأة حتى ليكاد يمشى على أربع ويقول متوسلاً :

"والنبى تقعدوا شوية .. أنا ماليش غيرك .."

بعد عام أمضيته فى سمالوط ركبت القطار من محطة المنيا متجهاً إلى القاهرة ، بعد صدور قرار بنقلى إلى المقر الرئيسى ، عندما اقتربت من المدينة تطلعت بمشاعر محايدة ، كأنى لم أمضى سنة كاملة هنا ، بدا القصر خلال المرور السريع منعزلاً ، وحيداً ، لم أطأه حتى الآن ولم أتوقف أمامه

رغم سفرى إلى الجنوب مرات بالسيارة ، دائماً أفضل التطلع إليه من القطار . عندما توقف بالمحطة وبعد بدء تحركه شمالاً فوجئت بعبده سيمافور يقف رافعاً يده بالتحية شاخصاً إلى نقطة ما من القطار ، هل يعلم أننى داخله ؟

لم يمض شهر واحد إلا وكنت أمر بسمالوط مرة أخرى ، كنت فى القطار المتجه إلى الجنوب ، رقم ثمانية وثمانين . ، هذا رقم قديم ، دال ، ما زال سارياً حتى الآن ، غير أننى كنت فى مقصورة بمفردى تقع فى العربة التالية للمقطورة مباشرة مخصصة للمساجين والمعتقلين الذين يتم ترحيلهم بمعزل ، وتحت حراسة مشددة ، عندما اختلست النظر وقرأت الخطاب الذى تسلمنى بموجبه ضابط الترحيلات الشاب دهشت .

حراسة مشددة من أجلى أنا ؟

لماذا ؟

أهكذا تعتبرنى أجهزة الأمن ؟

أنا من لا أعرف الشجار ، ولم أمارس العنف قط ، لم أعتد على أحد ، ولم اخطط ولم أسب جاراً ولم أسبب الأذى لصاحب أو غريب ، ولم أفكر فى هروب ولم أشرع . حتى الآن أستعيد تلك العبارة فأبتسم لو كنت بمفردى ، أو أدارى سخرية لو أننى بين جمع ، كنت محاطاً بجنديين ، يحمل كل منهما سلاحاً آلياً ، وكان معصمى محاطاً بالقيد الحديدى وطرفه الآخر حول يد الجندى الأصغر سناً ، أما الضابط الشاب الذى يماثل سنه عمرى تقريباً فكان ينظر إلىّ بين الحين والآخر ، ويستفسر عن أمور عابرة ،

ويتساءل عن تلك الفكرة التى تساوى البهدلة ، وكنت أتطلع إليه صامتاً ، غير راغب على الإطلاق فى محاورته ، كان الليل مكتملاً عند مرورى بسمالوط ، لكن موقع القصر لم يغب عنى ، حددته من خلال النافذة واللحظة المارقة .

أين زكية ؟

أين ؟

أمضيت فى سجن أسيوط العمومى أسبوعاً فى الحبس الانفرادى ، لا أعرف الغرض من المجىء بى إلى هنا ، لم يسألنى أحد ولم أستدع إلى مقابلة محقق ، فى اليوم السابع فتحوا الزنزانة ، ومرة أخرى أوثقت إلى معصم من أجهل وبدأ ترحيلى إلى حيث لا أعلم تحت الحراسة المشددة، ولكن عند وصولى إلى محطة أسيوط العمومية ، وأثناء انتقالنا فوق الكوبرى الداخلى المقام للمشاة أدركت أننا عائدون إلى القاهرة .

انحناءتها ، تقوسها ، قبوبية ردفيها ، أعرفها ، أستدل على تكوينها ولو استترت تحت أكوام من ثياب ، لو سعت بين عجيج من البشر ، كينونتها التى كانت قاب التماس بكينونتى ، ها هى تقعد ملتحفة بطرحة سوداء لم تخف نضارتها عنى ، منذ إقسارى على التخلى وانتزاعها من صوابى .

"زكية"

صحت غير عابئ ، تطلعت صوبى ، فاضت بدهشة وشبت قليلاً ، بدأ لهيب خافت يسرى عبرى ، عندما تثاقلت خطواتى وأصبح تطلعى إلى الخلف وعراً ، أينعت رغبتى فى القربى منها ، وددت ، تقت إلى فك

أسرى، اقترب منى الضابط، كان أكبر منى سناً ، ملامحه حزينة إلى حد ما،

"مالك ؟"

"أين ؟ .."

تطلع إلى هناك ، عاد ينظر متعجباً

"لا أرى أحداً .."

ثم همس فى رجاء

"يا بنى .. إننى أحترمك ، وما أرجوه أن تساعدنى على إنهاء المأمورية بلا .."

غير أن بصرى وحواسى ومسامى وسائر ما يمت إلىّ اتجه صوبها ، صارت كينونتى كافة وتراً مشدوداً لا لين له إلا بالانطلاق والفكاك ..

***

مَطلَع

أحن وأهفو إلى دَخْلة القاطرة سوداء اللون ، خلفها عربة الفحم وخزان المياه والدرجات الثلاث وعربة البريد والسينسة ، حتى الآن لا أعرف معنى تلك الكلمة الدالة على هذا التكوين المقفل المهمل ، ورغم أن كافة العربات تابعة ، إلا أن السبنسة تبدو كأنها خارج الخطة مع أنها من صميم التكوين .

القاطرة مَطْلع ، محملية الظهور ، ضجيجها ، نفثاتها ، زعقاتها ، صفيرها من قريب أو بعيد مثير للكوامن ، محفز على إدراك المجهول وتلويح بالوعد ، كان إصغائى إليها عبر مسافة فاصلة مفضفض لأحوالى ، مستدع لموروثى من نخيل وأعمدة برق وأسفار إلى ومن طهطا وصحبة أسرتى واكتمالها ، كنت أظن المكان الفاصل مثير لما أضمه وأصونه بعيداً عن الأنظار والأسماع ، لكن المسافة الزمنية أوعر ، ذلك أن المكان يسهل إدراكه بالطى ، أما الزمن فمستحيل استعادته إلا بالمخيلة . اختفت القاطرات البخارية الآن ، أحيلت إلى التقاعد منذ زمن بعيد ، آخر ما رأيته

منها فى حقول قصب السكر كما ذكرت فى ذلك التدوين ، صارت إلى المتاحف ومدن الملاهى وكتب التاريخ ، غير أنها ما تزال تسعى عندى ، عبر مسافات لا يمكن تقديرها ، أو تحديد الأوقات اللازمة لقطعها أو المواضع المؤدية إليها .

تطورت الطرز والأنواع ، لكن تظل القاطرات الأولى حاوية ، مستوعبة، طاوية لكافة ما عداها ، أرى أحدث الآلات فى بلدان شتى غير أنى لا أصغى إلى أصواتها ، إنما تنبعث من عندى تلك الزعقات العتيقة التى طالما أثارت الحذر والخشية والرغبة فى الوصول ، الصوت الأول يلغى ما يليه ، تماماً كمقاربة الأنثى ، التجربة الأولى تحدد ملامح ما سيتكرر ، كذلك الشروع إلى الأسفار .

صفير

عند منحنى ما ألمح القاطرة السوداء ، لحظة مثيرة ، ينحنى الخط لذلك أتمكن منها ، إذ يستقيم تختفى ، تتوارى .

أين المنحنى ؟

إنه فى مكان ما مؤدى إلى الجنوب، يصعب علىّ تحديده الآن، يظهر عندى خلال بُريقة، لُحيظة، أعرف منذ زمن استحالة إدراك الصفير فى جوهره، ذلك أن المتلقى بعيد دائماً ، أما أنه راكب داخل إحدى العربات، أو مصغ من بناء يقيم فيه قريب أو بعيد، أو منتظر فوق رصيف أو أمام حاجز يمهد لمرور عابر، قوى، ضاج، مقلقل للخط المستكين الممتد، لا يقترب أحد من مصدر الصفير خاصة أثناء الحركة، ما يصل إلى السمع

مجرد إشارات، دفقات غامضة لمويجات غير مرئية فى مواجهة الخواء والصمت واللحظات الطاوية حتى للمركبات المتوالية الواصلة ما بين المسافات .

صفير ، غامق ، بعيد ، له من الألوان الرمادى .

قريب ، حاد ، إما أبيض أو أسود .

خافت ، له الرؤية فلا يُسمع ، لم يتبق إلا وصفه بالحروف وسرعان ما يغيب تماماً مع اختفاء آخر من يعهده ، من استوعبه ذات صباح عند تأهبه للرحيل .

***

اقتفاء

لا أنزل طهطا منذ سنوات عديدة ، بالتحديد منذ عرفت السفر بالمفتخر، درجة أولى مكيفة ، مواعيد لا تتوقف إلا عند المدن الكبرى ، عواصم المحافظات فقط . لا أطيل المكث بسوهاج ، إنما أعبرها قاصداً جهينة .

فى تلك الليلة سافرت بدون انتقال، توحدت بوقتى وانتظمت مسافراً عبر جميع المرات التى عرفتها عبر أطوارى، تطلعت بالبصيرة صوب قبلى.

أرصفة ، مظلات خشبية ، نوافذ المكاتب ، الحشائش النابتة بجوار القضبان ، واجهات البيوت المتوارية ، لا يمكن التملى منها ، كلها عابرة مهما بدا البنيان راسخاً .

الفرن ، الخبيز ، دخان البوص الجاف ، التراب المشبع بالظهيرة ، الأوز المتهادى ، المتمايل ، الجمال العابرة ، البطيئة ، الأبدية ، تحذير لا أدرى من نطقه على مسمع ..

"احذر غضبة الجمل .. إنه صبور ، حمول .. لكن .."

مدخل البيت القديم ، فيه جئت إلى العالم ، خرجت إلى الكون المرئى، الرحبة ، سعيت إلى درب النصارى ، وماكينة الطحين ، بكّاتها ، صفيرها ذو وشيجة بالزعقات المنطلقة أثناء السفر ليلاً أو نهاراً ، اجتزت يوماً الماكينة، أوغلت بصحبة أبى فيما يليها إلى نخيل كثيف . صار يشير إلى بعضها ، يعرفنى عليها ، يكرر .

"حافظ عليها كما حافظت أنا عليها   لا تعرف كم شقيت من أجلها"

تاهت النخلات منى ، الأسباب يطول شرحها ، حاولت الطواف بها من مكمنى فى تلك الأمسية ، نخلات محددة ، طفت بالفضاءات ، مكان الساقية التى لم يتبق منها الآن إلا حفرة متواضعة ، يوماً ما بدت لى هواً مؤدياً إلى مركز الأرض

تنسمت الأطيان، اقتفيت العبير المندثر، لم يؤرق رحيلى إلا تعاقب الآلام على صدرى، تندلع فجأة، تسرى متصاعدة، بدون أن يلحظ أحد أدس نصف القرص الأبيض تحت لسانى، أصغى إلى صوت الطبيب المعالج، كلمات بالنسبة إليه عادية، قالها لكثيرين، لكنها عندى تحديد أو قطع

"وصلتنى رسالة من المستشفى   الفحص فى الثامن من يوليو أما العملية فتقرر لها اليوم التاسع .. أى التالى مباشرة"

التاسع من يوليو

شهر أمامى

ثلاثاء

محطة فاصلة، إما اجتياز تعقبه عودة، أو ذهاب بلا إياب، تاريخ فاصل،

فلأهيئ ذاتي لفنائي ، إن تحققت الرجعى فذلك كرم ومنة، وإذا اندمجت بأفق الأبدية فإني متقبل، راض بغير مكابرة، الطبيب لم يخف قلقه .

"العملية كبيرة .. ثلاثة شرايين وصمامين .. لكن الأمل في الله كبير .."

فور تحديد الموعد ، صار عندي علامة وصول ، ونقطة سيبلغها رحيلي ، ينتبه الإنسان فجأة إلى ما فات عند بلوغه نقطة متقدمة من العمر ، ياه .. كيف فات هذا كله ؟ ماذا فعلت وماذا تبقى ؟ رحت وجئت في غرفة مكتبي المستطيلة ، تحف بي الكتب ، كثير منها لم أقرأه بعد ، وعديد مما قرأته أتمنى إعادة اكتشافه ، لكن .. الوقت محدود ، يكفي ما بددت ، حتى لو نجوت وعبرت الخط الفاصل فالسنوات موقوتة !

التاسع من يوليو ، ثقل حط عليّ ، وعي حاد بسفري المفرد ، دائماً في الرحيل أفضل مقعداً وحيداً إلى جوار النافذة ، كل ما أطالعه من بلدان وعمارة وجسور وأشجار وحقول ممتدة يمر بداخلي وليس خارجي ، كافة المفاجآت والمواقف الدالة ، أقف في مواجهتها بمفردي ، طائعاً ، مختاراً .

ما أسرع طي الأيام لما جرى . كأن السفر إلى جهينة ومنها جرى بالأمس مع أن اثنين وأربعين سنة ولت منذ أن اتجهت الأسرة مكتملة إلى قِبْلي . بالضبط .. عام أربعة وخمسين . نعم .. ترددت مرات على البلدة بدءاً من منتصف الستينات . لكن لوحدي .

قبل أكتوبر عام ثمانين وتسعمائة وألف ، اختفى أبي لعدة أيام ، لم يخبرنا بالجهة التي قصدها ، وفي السنوات الأخيرة اعتدنا منه ذلك . بعد عودته يخبرنا أن زيارة قام بها إلى سيدي أحمد البدوي بطنطا ، أو إلى

أقاربه بالاسكندرية ، إنهم سادة الميناء والممسكين بأسراره ، أو اتخذ وجهته إلى دير مواس لزيارة الباشجاويش أحمد حسين الذى أنقذه طفلاً ، عندما حال بين عمه وإغراقه فى الترعة حتى يرث نصف الفدان الذى آل إليه ، آواه عنده فى النقطة وآمنه من خوف ، أخذ على العم المواثيق أمام شيوخ البلدة ألا يتعرض لليتيم الوحيد بسوء ، منذ ذلك الحين صار مصدراً للحنين المفتقد ، خاصة أنه لم ينجب من امرأته وكان اسمها جليلة .

آخر سفر للوالد كان إلى قِبْلى ، إلى جهينة ، مسقط الرأس ، الصور الأولى والحنين الممض ، طاف بالأقدمين ، حتى الحريم دخل عليهن البيوت، صافحهن وطلب السماح ، ثم عاد إلى القاهرة ، ولم تطل إقامته فى الكون المنظور إلا أسبوعين . والآن بعد سبعة عشر عاماً من رحيله الأبدى ، أثق أنه قصد جهينة ليرقد فى ثراها ، هذا ما تمناه وحدسه ضاغط بالنهاية ، لكن الأمر علق قليلاً .

بعد استيعابى ما أبلغنى طبيبى به ، رحت أطيل النظر إلى العلامة الفارقة، تباعد انزعاجى المبدئى مفسحاً لرضا لم أعرفه وسكينة مستجدة علىّ ، ولم يكن ذلك إلا بداية إيغالى فى هذا الحال الغريب الذى فصلته فى تدوينى المعنون "الخطوط الفاصلة" .

التاسع من يوليو

فى انتظار حلوله بدأت أتطلع إلى تشعبى وترتيب أوضاعى ، الطواف بالأماكن والمواضع الحميمة ، ورغم طوافى وأسفارى شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً إلا أن التوق كله تعلق بموضعين :

الأول : مساراتى الأولى فى القاهرة القديمة .

حارة الطبلاوى ، ناحية شارع قصر الشوق ، شارع حبس الرحبة ، شارع أم الغلام ، بناية مدرسة عبد الرحمن كتخدا ، ميدان بيت القاضى ، محطة مصر ، رصيف قبلى ، قطار الثامنة أصبح ملخصاً فى هذه المواضع ، وذلك السفر .

مرة ، قصدت الأقصر بصحبة أدباء من صحبى بالطائرة ، ومن هناك اتجهت شمالاً بالقطار ، نزلت سوهاج قادماً من قبلى وليس من بحرى لم أقل لامرأة خالى أو أى إنسان من أقاربى إننى جئت بالطائرة إلى الأقصر ، خجلٌ ما حاشنى ، كيف أجىء إلى قبلى بالطائرة ، هذه الوسيلة التى لم نسافر بها قط إلى جهينة .

خلال رقادى تركز استدعائى لأرصفة الثامنة صباحاً ، والثانية عشر ظهراً ، أحاول احتواء ما تبدد منها عبر فراغات لا قِبَلَ لى بإدراكها أو تحديد أبعادها .

كافة دوافعى ليست وافدة ، إنما نابعة ، ليست واهبة ، إنما ضرورية لازمة، هكذا خرجت من القاهرة إلى سوهاج فى السابعة والنصف . كيف أقصد الخط الفاصل بدون إطلالة على جهينتى .

لم أنتبه إلى المرور بمدينة سمالوط ، رغم تحفزى ورغبتى فى احتواء القصر القديم أثناء المروق ، منذ سنوات قرأت لافتة سوداء بحروف بيضاء فوق المدخل تعلن عن جمعية للرعاية الاجتماعية ، ثم قرأت أخرى بعد عامين تؤكد أنه مقر للحزب الوطنى . متطلعاً ، قصياً ، استنفارى عند

اقترابى من سمالوط يهن ، تتسلخ خيوطى العالقة ، أتأمل صفحات فى كراسة دونت بها بعض خواطرى أثناء إقامتى فلم يلفت نظرى إلا غرابة خطى عنى ، كأن من كتب شخص آخر لا يمت إلىّ ، أقرأ الأحداث وأسماء الأشخاص ، يعسر علىّ استدعاء ملامح البعض ، تتداخل عندى الوقائع ، تتلاشى لحيظات ، أنتبه إلى بعد الشقة ، وطول تحملى ، وكثرة ما عاينت وما عانيت ، تثب عصرية مارقة ، حبورى أمام سينما سمالوط ، إعلان عن فيلم هندى يثير ضجة كبرى ، "سانجام" .

وحدتى عند آذان المغرب ، الإفطار الرمضانى ، أرثى غربتى عن أهلى ، أتعلق باندفاع القطارات كلها التى أعرفها ، الساعية ، لكننى لا أفارق موضعى ، فأنحنى متفهماً لحزن الصعيدى النائى ، المنتزع من نجعه أو كفره أو قريته من أجل الرزق .

تمثل عندى لحظة مجهولة ، منبتة الصلة بما قبلها وما بعدها ، استيقاظى متعباً ، أرقد فى موضع ما ، أجهله .

تطلعى إلى قضبان ممتدة ، يؤطرها صمت عميق ، مجدبة ، عاقر من الرواح والمجىء ، تنبت الحشائش الطائشة ، العشوائية ، تتكاثر مع السكون، المرور مؤنس ، باحتكاك القضبان والعجلات يكتمل كل منهما ، يتجدد اللمعان ويسرى شىء ما . الخطوط المهجورة كالحة مثل البنايات الخالية ، تسرح العناكب والفئران والهوام عبرها آمنة .

القطارات مؤنسة ، ظهورها ضاج ، بليغ ، وغيابها موحش ، وليس هذا إلا صدى لذاك ، وما يفصلهما تلك الأوقات .

***

نقطة

عندما تتحدد النهايات لا يمكن للإنسان استرجاع كافة ما ولّى منه ، أو التوقف عند سائر ما كان ، إنما ينتقى ، لا يقرر ، تتداخل عوامل شتى بعضها بيِّن ومعظمها خفى لتحدد له محطات رئيسية ، واضحة الملامح ، تتلاقى عندها الجهات وتتفرق ، غايات وبدايات ، أرصفة متلقية ، مرسلة ، تماماً مثل أسلاك البرق ، أرصفة نشطة ، أخرى هادئة ، معدات ، استسلام الفلنكات لمصيرها ، خرسانية أو خشبية ، انتظام المسامير الغليظة ، ثباتها ، حركة السيمافور غير المحسوسة ، ترى .. لماذا تعلق بها عبده العبيط ؟ ، ماذا كان يرى فى استقامة الذراع المعدنية أو انحنائها ، أو تدليها إلى أسفل؟ لماذا ينتفض محيياً والشخوص بعينيه ، ذاهلاً عن كافة ما يحيط به أو يلحقه، حتى إذا صفعه أحدهم على قفاه فلا يرد ، مع أنه فى الأحوال العادية يمكنه أن ينقض على الفاعل مفترساً ، فاتكاً أيا كانت هويته ؟

أستعيد جمعاً كثيفاً ، حشد رأيته عبر شريط إخبارى مصور ، يقف فى مواجهة شرفة قصر ، يقف الامبراطور خلف جدار واقى ، لكنه شفاف لا

يحـجبـه عن شعـبه ، إلى يمينه زوجـته ، إلـى يساره كـبيـر المرافقين بحلتـه العسكريـة الامبراطورية ، كـهل ، قوى الحضـور ، متين الانبـعاث ، يرتدى قفازاً أبيض ، يرفع يده بتحية يسيرة ، موجزة ، انفعال هادئ يؤطر ملامحه ، تركز آلة التـصوير على عـجوز بادى التأثر ، شـاخص إلى أعلى ، يرفع يده بالتحية وكأنه موشك على بداية عرض عسكرى ويلتمس الإذن .

هل يحتـاج كل إنسان إلى نقطة ما فى الفـراغ ؛ ليتعلق بصره وبصـيرته بهـا ؟ ، إلى علامة يتخذها نقطة ارتكاز ومنطلقاً ومصدر تحفيز ؟

ربما .. ربما يجدها فى وقفة زعيم ، أو تـلويحة فنان شهير ، أو نجم بادى عند الأفق ، أو علامة مميزة هنا أو هناك ، أو لون معين ، أو حركة ما ..

لا بد أن عبده سـيمافور كان مطلعاً عـلى ما لم أقدر على الإلمام به زمن إقامتى فى سمالوط ، كذلك العـجوز المتطلع صوب الامبـراطور والدموع ماثلة فى عينيه ، والإجلال فى وقفته .

لابد أنهـما أفـضل حالاً منى ، أعـرف الخط الفاصل الآن ، التـاسع من يوليو ، لكننى لا أعرف ولا أدرى شيئـاً عن نقطة بعينها يمكننى أن أشخص إليـها وأتعلـق بها ، وإذ أنحنى علـى ما أكنه يراودنى شـبـه يقين ، أننى عين النقطة التى أبحث عنها !

***

مواعيد

تغيرت الأسماء لكن القصد واحد ، الثامنة ، الثانية عشر ، الرابعة بعد الظهر ، الحادية عشر ليلاً ، الصحافة ، النوم ، "الشبح" "الفرنساوى" "الأسبانى" "السياحى" ومن قبل "المجرى" ، عندما لاحت القاطرة رمادية اللون ، بدا تقدمها بطيئاً ، غير ذى هيبة ، رغم ضخامة الآلة وتطورها ، أين سحابة الدخان التى تنتشر إلى الخلف متجاوزة طول المركبات إلى فضاء القرى ، إلى خلاء لا يبين ، أين نفثات البخار الأبيض ، من الأنابيب الرأسية ، الصفير المتصل ، المتقطع ، المنذر ، الموحى ، كذلك السحابات الصغيرة المنبعثة من خلال العجلات ، عجلات حديدية واسعة القطر ، أخرى أصغر ، أذرع معدنية حركتها إلى الأمام ، إلى الوراء . أين الشقة العتيقة التى كانت توغل إلى داخل المحطات وتدع الكافة يتراجعون والقلوب تسرع .

منذ آخر سفرة بصحبة الأسرة لم أركب إلا بمفردى ، حتى لو كنت فى جمع أسعى إلى الانفراد ، أتطلع من النافذة ، الأفق الدائرى ، أعمدة البرق،

إذا اتجهت إلى الجنوب أتساءل : هل تبدلت ؟ ، هل زاد عدد الأسلاك ؟

لا أدرى ، أميل مدقـقاً ، محقـقاً ، لعلى أرى أو أسمع قبـساً من أصداء بعيدة عندما سافرت من القاهرة إلى جـهينة جنيناً فى رحم أمى عمره سبعة شهور ونصف ، ترى .. هل يمتد الطريق عندى ، أم أتفرق عليه ؟ هل يؤدى إلىّ أم أتوزع نثاراً عبره ؟ .

***

راكب !

متى بدأ هذا الحوار ؟ هل غفوت قليـلاً ؟ ، المفتش مرتدياً الزى الرسمى للهيئة يميل قليلاً ، محدقاً فى رجل يصعب تحديد عمره ، يرتدى جلباباً رثاً، حافياً ، يمسك بقجة بيده اليمنى وتذكرة سفر باليد الأخرى .

"كيف جئت إلى هنا ؟"

يقول الرجل بصوت محايد ، هادئ ، لا أثر عنده لخشية

"ركبت القطار .."

يخفى المفتش رأسه قليلاً ، مبدياً الصبر وطول البال .

"من أين ؟"

"من المحطة !"

"أى محطة ؟"

"محطة القطار .."

"إلى أين ؟ .."

"مسافر .."

"أعرف .. كلنا هنا مسافرين .. المهم .. أنت إلى أين ؟"

"قاصد كريم .."
تتغير لهجة المفتش ، توحى بنفاد الصبر
"هات التذكرة .."

يدقق ، يقلبها ، ينتبه الركاب إلى ما يجرى ، يلزم كل منهم مقعده الوثير، مهما تدهور مستوى الدرجة الأولى الممتازة مكيفة الهواء فإن مظهرهم يختلف عن ركاب الدرجة الثالثة ، كذلك نوعية الحقائب التى يحملونها ، لا يتخيل أحدهم ظهور مثل هذا الرجل رث الهيئة ، كيف وصل هنا ؟

"تذكرة قديمة .. أين بطاقتك ؟"
"حاضر .."

ثمة اهتزاز وامتثال تام فى نبراته ، ينحنى إلى الأمام أثناء دس يده فى صديريته ، يبدو أنه أخيراً أمسك بها ، يخرجها ، يقدمها إلى المفتش ، لكنه ممسك بها ، قابض ، بعد جذبها يطيل التمعن فيها .

"أنت من سوهاج وهذا القطار متجه إلى مصر .."
يطغى عليه هلع مفاجئ ، وكأنه اكتشف فجأة مقدار كارثة محققة .
"يا نهار اسود .. أنا قصدى قبلى .. قبلى .. رحت فى داهية .."
يواصل بصوت دامع ، شاك ، راجٍ .
"ضحكوا علىّ .. ضحكوا علىّ .."

بعد إشارة من المفتش طويل البال ، يشير إلى جندىّ شرطة من حراس القطار العلنيين ، يحيطان به ، يقودانه ، يخرجان به ، رغم الصمت إلا أن

فراغ العربة تغير ، عندى سرى حزن ما ، كيف أساعد هذا الرجل الذى سيتعرض لعمليات استجواب قاسية ؟ ربما اعتبروه عيناً للجماعات المتطرفة التى تهاجم الحركة السياحية .

هل يحق لى التدخل ؟

لا أعرف ما يمكن أن يتهموه به ، لا أعرف العقوبة ، كل شىء يمكن توقعه ، إنه فى محنة ، كيف أتقاعس ، كيف أتأخر ، رغم استسلامى لحالتى الوداعية تلك بعد أن مررت بالمنحنيات والنخيل والنواصى والمقاعد التى لزمتها بصحبة أبى ، بالعكس .. دافعى يقوى .

أقوم ، أجتاز ما بين العربتين ، ضجيج بدون تنميق منبعث من الاحتكاك الصارم ، الحاد بين العجلات والقضبان .

لافتة صغيرة مكتوب عليها "ناظر القطار" ، ها هو ، يجلس محاطاً بمفتش القطار ، والحراس الرسميين ، واثنين من السريين ، يرتديان الملابس المدنية ، وعامل من المقهى .

المفتش يمد علبة سجائره
الحارس العلنى يربت كتفه
العامل يرفع كوب شاى نحوه

كان مستمراً فى حكى أحداث لم أصغ إلى بدايتها ، ولم أتساءل عن مسارها ، مضيت إلى نهاية العربة ، عند عودتى توقفت لحيظات ، المفتش يعانقه ، الحراس يذرفون دمعاً ، أحدهم يمس كتفه بحنو ..

***

طاقة

من يرى التزاحـم فى المحطة الرئيسيـة لا يمكنه توقع خلو القطار قـريباً ، نزلت دوماً وقـصدت مـحطة القطارات المتجـهة إلى الشمـال مباشرة ، فى القـاهرة منطلق واحد لـلمتـجهـة إلى قبلـى أو بحرى ، لكن فى العـواصم الأوروبية الكبرى أكثر من محطة ، لكل جهة بدايتها المنفردة ، كنت حذراً ، المحطات أماكن مـفضلة للّـصـوص وباعة المخدرات والشـواذ والتائهين ، فى روما كانت حواسى مـشرعة ، مستنفرة ، كان موعـد القطار فى الخامسة والربع ، إذن .. أمـامى ساعة ونـصف ، الحرارة مرتفـعة ، الرطوبـة غزيرة ، اضطررت إلى شـراء زجـاجـة مـاء بحـوالى عـشـرة جنيـهـات مـصـرية ، اسـتفـسـرت أكثـر من مـرة عن الرصيف الذى سـأركب منه ، أى خطأ مـا سيدفع بى إلى جهة أخرى أو سـيكلفنى جهداً ، إننى فى المرحلة الحرجة من سفـرى ، أمتعتى كلها فى الحقيـبة ، جواز سـفرى فى جيـبى ، نقودى ، لـم أستـقر بعد فى فندق ، لـم أرتكز إلى مـقر ، دائماً أتمنى انقـضاء هذه المرحلة بسرعة ، أينمـا وليت وجهى فى مصر . فـإننى أمضى بثقة ، غـير هياب ، لا أخشى شيئاً ، خطواتى راسخة ، نظراتى سديدة ، أعرف مقصدى ، لكن فى

الأقطار النائية أدخل دائرة الحذر ، أتوقع الأذى خاصة إذا كنت منفرداً ، أتعمد توزيع بطاقات تحمل اسمى باللغة الإنجليزية ، وعناوين بعض الأصدقاء فى البلد الذى أنزله وأرقام هواتفهم ، أشد ما يرعبنى احتمال الدوار وفقدان الوعى .

العربة مقسمة إلى قمرات صغيرة ، يضم كل منها مقعدين مستطيلين متواجهين ، مكسوة بالجلد الأخضر الغامق ، تذكرة عربات الدرجة الأولى والثانية العتيقة ، لم أعرفها إلا فى منتصف الستينيات ، فى مراحلها الأخيرة قبل اختفائها ، كانت وثيرة ، يتّسق خارجها مع داخلها ، مقاعدها الجلدية ذات لون بنى أو زيتونى ، فى داخل كل قمرة صورتان متواجهتان أو لوحتان من رسوم الفنانين الأجانب الذين وفدوا إلى الوادى لمشاهدة المعابد الفرعونية والمقابر والتماثيل . النوافذ محكمة الإغلاق ، والنظافة بادية ، والمراوح مصوبة إلى الفراغ المحدود لتهدئ قيظ الصيف . أثناء سفرنا إلى جهينة ، كانت عربات الدرجة الثالثة فى المؤخرة ، بعد عربة البريد أو ما كان يطلق عليها السبنسة ، الدرجة الأولى ، مكتوبة بخط ثلث متناسق ، عربة واحدة فقط . يليها عربة الأكل ، لسنوات طويلة كانت التسمية غامضة إلى أن مررت بداخلها واطلعت على مناضدها ومقاعدها وحركة القائمين على الخدمة بها ، وحملهم الأطباق وصوانى الطعام والأكواب الممتلئة والفارغة بدربة ومهارة عالية ، حتى زمن تدوينى هذا أقتفى أثرهم بالنظر إذ يقطعون العربات مغالبين الميل وذبذبات السرعة ، خاصة عند عبورهم إلى العربة التالية ، أتابع بدقة وتأن . أستدعى الفتية من راكبى العجلات ، حملة أقفاص الخبز فوق رؤوسهم ، يسندونها بيد ، والأخرى تضبط حركة المقود

عبر زحام الطريق ما بين تراموايات ومشاة متمهلين متسكعين وطرف الجلباب بين الأسنان ، لم أشهد هذا إلا فى دروب وشوارع مصر .

يلى عربة الأكل الدرجة الثانية الممتازة ، أى المكيفة ، ويلحق بها الثانية العادية . ثم عربات الثالثة التى عرفناها ونحن صغاراً ، وكان تدرجنا طبيعياً وفى موعده ، فلم أنتقل إلى الثانية إلا بعد بدء أسفارى من خلال عملى .

رغم ارتباط المركبات بوثاق متين ، إلا أن شعورنا بالمسافة كان شاسعاً ، ليس مألوفاً تردد ركاب الثالثة على الثانية أو الأولى ، كان للمفتش هيبة وللمحصل مكانة ، كذلك الشرطى المختص الواقف بانتظار تسلم المشاغبين والمتهربين من دفع قيمة التذاكر عند أول محطة .

فى رحلة العودة ، عند الصعود شمالاً تتبدل الأوضاع ، عربات الثالثة تلى القاطرة مباشرة ، الأولى فى المؤخرة ، فى النهاية التى يعقبها فراغ مولى، عربة الطرود والحيوانات والمساجين .

خلال اندفاعات القطار الإيطالى السريع ، استحضرت أخرى عتيقة ذات رصانة ، كلها تجرى وتتقاطع عندى .

***

انفراجة

بعد الوقفة الثانية خف الزحام ، خلت الممرات من الواقفين ، صرنا إلى انفراد الحيز الضيق ، ستة ، ثلاثة فى مواجهة ثلاثة ، لا يمتون إلى جنسية واحدة ، هكذا خمنت من اللغات المتبادلة والمظهر ، هى وحيدة ، حقيبة أغراضها إلى جوار قدميها ، راحت فى إغفاءة منذ دقائق ، يطالعنى زغبها الذهبى ، يتضوى هادئاً من ملامسة فخذيها التيراويين . إنها المرة الأولى التى تقع عيناى فيها على تلك البشرة الزاهية ، صفراء صهباوية ، ليست صفرة الجفاف ، والذهاب ، إنما صفرة التفرد والقدوم ، ترتبط عندى بالزمن العباسى ، بقصر عتيق قائم عند ضواحى بغداد ، وقوم يتوافدون ، يسعون إلى سهر وراح وحسان واكتمال صحبة . لماذا .. ربما لأنى قرأت يوماً وصفاً دقيقاً لمثلها فى مخطوط قديم ، ربما جزء من الأغانى للأصفهانى ، أو النشوار للتنوخى ، لا يمكننى التحديد أو التخمين ، فما لا يمثل فى ذاكرتى لا أدونه وإن كنت أجتهد وأسعى ، فى البداية تكون الحدود واضحة والفواصل ناصعة ، مع توالى الأيام وتداخل السنوات واكتمال العقود تمتزج المشاهد ، وتبهت الملامح . تتآكل الأسماء . تنفصل عن أصحابها

وهذا أول علامات الفناء ، تتبادل المرئيات مواقعها فى الذاكرة .

أستعيد دهشتى ، محاولتى استيعاب هذا الدواء القادم من الصفرة ، لم يعد الأصفر منذراً بالشحوب وقرب الانزواء ولواح العدم ، إذ يقترن بالأنثى يصبح دليلاً على تفجر الحياة ، ومثيراً للكوامن .

اندفاع متصل ، حيز ضيق غير أننا متباعدان ، كل منا قصى عن الآخر ، كان استرخاؤها حاضاً على الرغبة والشفقة معاً ، يبدو الإنسان مستسلماً ، واهناً ، عند استغراقه فى النوم على مرأى من الآخرين ، غير أن انفراجة فخذيها وطلاوة بشرتها كانا محرضين للكوامن النازعات ، على مهل احتويتها بالنظر والمخيلة ، فاحتوى الحس على مالا يمكن بلوغه فى الصحو والسكون ، إذ احتوانا الاندفاع الليلى والأنفاق المحفورة فى الجبال الصخرية ، يتبدل الصوت الضاج عند اجتيازها ، كذلك الجسور الحديدية الواصلة بين حافتين ، ضفتين بعيدتين ، مشرفتين .

***

رقيقة هنغارية

يمتد الخط المفرد مجاوراً لشاطئ البحيرة الهنغارية ، أحياناً يحيد لكن لا يحول البُعد دون رؤيتها ، لا يستمر . يعود الخط الحديدى لينتظم إيقاعه فى رتابة متناغمة ، ما بين العجلات والقضبان ، على الخط المفرد يتكرر الانتظار فى المحطات الكبرى . خلال أسفارنا الأولى جرى مثل ذلك . خاصة بعد أسيوط ، كان الخط مفرداً حتى أسوان ، إذ تطول الوقفة يقول أحدهم :

"فيه مقابلة .."

عندما نصغى إلى الصفير والوشيش والطرطقة وهدير المراجل ، ينتظم صوت العربات وبعد انتظار وجيز تسرى حركة ، كثيرون لا يستطيعون فى البداية تحديد مصدرها ، ذلك الذى يحتويهم ويستقرون داخل إحدى عرباته ، أو المواجه لهم ، الذى يرونه بالنظر ؟

لا بد من تبادل طوقى الخيزران ، لا يضغط السائق مفرجاً عن البخار إلا إذا تم الترتيب ، أمر محكم وإجراء صارم ، يعنى تبادل الأطواق خلو الطريق المفرد .

لم يكن باعث دهشتى وجود مثل هذا الخط الوحيد فى بلد أوروبى ، لكن الأرصفة الواطئة ، لا تحاذى ارتفاع أبواب المركبات ، إذ يتم التوقف يبرز من الباب سلم مائل باتجاه الأرض ، ينزل أو يصعد عليه الركاب ، يرن الجرس ، يغلق الباب ومع حركته يتوارى الدرج المعدنى .

أى محطة فى مصر لها رصيف مرتفع ، قائم ، حتى لو مهملة أو منسية، دائماً الرحلات الأولى مرجعى وقياسى ، خلالها تتشكل الأسس التى يتم من خلالها تلقى المرئيات ، وتشكيل الكينونة الجسدية والأعطاف النفسية ، والرقائق غير المنظورة ، كافة ما يلى ذلك ترديد ورَجْع بعيد . فى البدايات تتحدد المسارات ، تماماً مثل الخبرات الجنسية الأولى ، إنها تؤطر الأوضاع المفضلة ، وطرق الاقتراب الميسرة ، والأصوات المستنفرة ، والتأوهات الحاضة .

نهاية الخط عند الطرف الآخر للبحيرة ، نزلت ، عبرت السور القصير المؤدى إلى الشارع ، مبلط بحجارة عتيقة ، تماماً كما كانت حوارى القاهرة فى سنينى الأولى .

طريق صاعدة ، واجهات البيوت الهنغارية ذات ألوان صفراء وبيضاء ، أفاريز بارزة تتقدمها ، منقوشة بزهور غامضة وأوراق يصعب اقتفاء أصولها أو تحديد أسمائها . النوافذ مستطيلة وسائر النوافذ مسدلة الستائر . المداخل المؤدية مغلقة ، مقابض على هيئة أيدى مضمومة ، رؤوس حيوانات، بعضها بارز الأنياب ، مهدد لكل مقبل أو مقترب ، لماذا جئت ؟

لماذا قصدت هذه المدينة ؟

ما اسمها ؟

أى مرة أخطو فوق شارعـها المائل هذا ؟ فى زياراتى الأولى لهنغاريا أم الثانية ؟ لا يمكننى التحديد أو القطع .

ما اسم المدينة ؟

لا أعرف

لم يتبق فى دائرة وعيـى إلا خطواتها ناصعة الوضوح فى مسمعى ، كذلك ذبذباتها ، مويجات جسدها تطغى على ما عداها ، ضجيج قطارات وطائرات مقلعة أو دانية وجرارات وآلات توليد طاقة ، توارى هذا كله ، بل اندثر ، عدا سعيها .

بعد خروجى من المحطة اتجهت صوب هذا الطريق الصاعد فى ذهابى ، المائل فى عـودتى ، بعـد عدة خطوات فـتح باب راسخ له صرير ، اندلعت منه، استدارت مباشرة متجهة إلى أعـلى ، لم تعن بإلقاء نظرة تجاهى مع أن المسافة الفاصلة قصيرة ، وليس فى الشارع سوانا .

لا بد أنه يوم أحـد ، ربما سبت ، أو أجـازة ما ، كـافـة المتاجـر مغلقـة ، فوجئت بفراهتها تتقـدمنى ، وغزارتها الأنثـوية تغمـرنى ، مشرعـة القوام كبيرق ، معلنـة الظهر ، مرتوية ، ملتفة ، مكتملة السياق ، كلهـا مترتبة على بعـضـهـا ، شـديدة التناسق ، لم أر مـلامـحـهـا ، لم أتجـاوزها ، لكننى لا أستعـيدها إلا وتمثل ملامح أنثى واضحة رغم أنى بقـيت فى موضع التابع ، فـضلت أن أقتـفى ، إيقاعـاتها مـتوالـية ، تفـيض على الفراغـات والمداخل والحنايا من خـلال تكات حذائهـا الناجمة عن تلاقى المكعب النحـيل المدبب

الموسق بالحجارة الصلدة ، المؤدية ، تتسرب الأصداء إلى الفراغات العُلى والطبقات التحتية ، إلى ما أعرفه وما لا أدركه منى ، أنفاس متلاحقة ونظرات راكضة فى أثر مؤخرتها المتحدية ، الربرابة ، كلها ضاجة ، حتى أنها ما تزال ماثلة ، مترددة علىّ رغم توالى الأيام وتباعد المصدر .

أنفاس متلاحقة ، ونشوة فى الحضور ، توالى خطوها يغطى على ما عداه ، ينسب سائر العناصر إليه ، السرعة التى جئت بها ، الوقفات ، احتكاك العجلات بالقضبان ، ظهور مياه البحيرة واختفاءها ، الأشجار ، النباتات البازغة ، البيوت المتناثرة ، ذلك الصباح ، ذلك المساء ، عند المحطات الرئيسية والفاصلة والمؤدية ، يصير الحضور الأنثوى منجياً ومهدئاً ودافعاً أسمى !

***

محطات سويسرية

اندثرت لحظة وصولى إلى المطار السويسرى ، لكن بقى وجه السيدة الشابة التى كانت فى انتظارى ، والفتاة التى تحدثت إليها فى القطار ، حضور الإنسان فى لحظة ما يثريها ويطيل أمدها فى الذاكرة ، رصد الأشياء بمعزل عن البشر لا يُعمر طويلاً عندى .

كنت متوثباً ، متطلعاً ، راغباً فى المعاينة، من القاهرة سلمتنى ممثلة المؤسسة الداعية ملفاً يضم أوراق تحركى من لحظة وصولى إلى لحظة مغادرتى، كل التفاصيل معدة بدقة صارمة، حدثت صاحبة لى قائلاً إن الانضباط فى الساعات السويسرية ليس إتقان صناعة إنما فلسفة ونظام حياة!

خارج دائرة الجمرك تنتظر سيدة ترتدى معطفاً أسود تحته قميصاً أحمر وحذاءً أبيض وترفع لافتة مستديرة مكتوب عليها اسمى هكذا "AL GHITANY GAMAL" تصحبنى من مبنى المطار بعربة أجرة ، تدفع هى ، نغادرها بعد سبعة عشر دقيقة أمام محطة القطار ، تنتظرنى حتى أستقر

داخل عربة الدرجة الأولى موعد التحرك الواحدة إلا عشر دقائق ، الوصول إلى بازل فى الثالثة إلا أربعة وعشرين دقيقة ، وذكرت بعضاً من أوقاتى فى مؤلفى "أسفار المشتاق" . من المطار إلى المحطة تطلعنى مرة أخرى على الأوراق المتضمنة لحركتى طوال أيام إقامتى العشرة ، سلمتنى بطاقة حمراء، درجة من الأحمر الصريح ، المباشر ، أعرفها وأخشاها بقدر ما أفضلها ، ترتبط بالحالة السويسرية ، العلم ، الصليب على شركة الطيران، على المداخل والمحال ، وسائر عربات القطار الخضراء القاتمة أو الرمادية ، بادية الجهامة من الخارج ، وثيرة ، مضيئة من الداخل . تقول إن هذه البطاقة تعطينى الحق فى ركوب أى قطار يتحرك داخل الاتحاد السويسرى لمدة خمسة عشر يوماً تبدأ من اليوم ، كما يمكن لى ركوب الحافلات النهرية والجبلية والمعلقة ، كل ما يمت إلى وسائل المواصلات العامة عدا الطائرات ، تتبع توضيحها بقولها إن الحاجة لن تقتضى تجاوز البرنامج المحدد ، كل الحركة ستكون بالقطارات .

تتكلم بتهذيب ، إيقاعها هادئ ، مخارج ألفاظها محددة ، غير أن انتظامها وحيدتها بادية ، لم تفارق مكانها أمام الباب الذى صعدت منه إلا بعد صعودى وإيماءتى قبل أن أقطع الممر إلى المقصورة المحددة .

إلى جوار النافذة تجلس فتاة ، قميص أبيض من الصوف ، عالى الياقة ، بنطلون جينز رمادى ، يدان متلاصقتان ، مبسوطتان ، أحياناً مدسوستان بين ركبتيها ، عندما تحرك القطار بهدوء ناعم ، يبدو احتكاك العجلات بالقضبان كأنه آت من بعيد ، كنت أصغى تمهيداً للمقارنة ، قطارات قديمة تسعى فى الذاكرة حيناً تبدو ثم تختفى ، أو أخرى بادية ، لكن يبدو داخلها

ولا أقدر على استعادة نقاط انطلاقها أو محطات وصولها ، لا شك أن الصوت أقل خفوتاً ، لا بد أنهم عالجوا الضجيج إما بإحكام نفاذ الصوت من الخارج إلى الداخل أو يتعلق الأمر بنوعية العجلات ذاتها .

ما بين ملامح الشابة الجالسة أمامى ومشاهد الخارج المتراجعة إلى الخلف بسرعة القطار تردد بصرى ، جمالها هادئ ، أمومى ، فياض بالمودة الكامنة، بيوت متباعدة ، خضرة مصقولة ، منظمة ، الأشجار على مسافات متساوية، أبحث عن ملمح سويسرى لعلى أرصده ، ماذا أنتظر ؟

لا أعرف .

تتلاقى نظراتنا ، أبتسم فتجىء المجاوبة هينة ، سلسلة ، ميسرة . الحيز المؤطر لنا مساعد ، بشكل ما نشترك فى عناصر بادية ، التواجد فى مقصورة محدودة ، وبابها الوحيد مغلق علينا ، تسرى المركبة بنا إلى اتجاه واحد ، ما يستعصى على التفسير أو التحديد ربما أكثر ، ربما يشكل هذا بداية صلة عابرة أو تمهد لتغيير مصائر ، لو جرى اللقاء فى صالة فسيحة ، أو ساحة مكشوفة لأصبح التواصل وعراً والتماس غير مبرر ، لكن التواجد فى المكان المحدد ، والسعى إلى وجهة واحدة يقرب . نعم .. إنها سويسرية ، تعمل مدرسة ، تعيش فى زيوريخ ، وتمضى إلى بازل لزيارة أمها التى تعيش وحيدة .

بازل .. إننى ماض أيضاً إلى نفس المدينة ، إنها المرة الأولى فى سويسرا وربما العشرين أو الواحد وعشرين بالنسبة للقارة الأوروبية ، نعم .. نعم ، لم يمض على وصولى إلى زيوريخ من القاهرة إلا ساعة ونصف تقريباً .

إنها تتمنى زيارة مصر ، رؤية الأهرام ، الإبحار من الأقصر إلى أسوان ومشاهدة شروق الشمس يومياً من النيل ، تعرف أسماء الأماكن من الأفلام التليفزيونية وكتابات الصحفيين الذين ذهبوا إلى هناك .

إنها مدرسة متخصصة في التدريس للأطفال المعاقين ، المتخلفين عقلياً ، نعم .. إن ذلك مثير ، والتعامل معهم أيسر إذا أدرك الإنسان ظروفهم .

إنها أم لطفل واحد ، لم أسأل عن أبيه ، منذ سنوات أعرف أن الطفل يمكن أن يأتي بدون زواج ، ويحق له ما يحق لغيره .

قالت إنها تحب عملها ولكن صعوبات الحياة في ازدياد ، خلال العامين الأخيرين ارتفعت الأسعار ولم تتحرك المرتبات ، طبعاً .. يمكنها أن تذكر المرتب ، إنها تتقاضى ثمانية آلاف فرنك ، يحتاج الإنسان إلى حوالي ستة آلاف ليعيش حياة معقولة ، إنسانية ، المشكلة أن الأسعار والإيجارات ترتفع بسرعة ، أبديت تعاطفاً ، أكدت على ضرورة تحسن أوضاع المرتبات بالقياس إلى الأسعار ، في نفس الوقت أجريت عملية حسابية سريعة ، مرتبها في شهر يعادل عشرين ألف جنيه ، تقريباً .. مرتبي في عامين .

ابتسمت ، أصغيت ، اقتربت مني ، لا أذكر ملامحها أو اسمها رغم مثول جلستها ، اتكائها إلى حافة النافذة العريضة ، شفافة الزجاج ، من خلالها تتوالى الموجودات ، أستعيد فقط قعدتها المسترخية ، الساعية إلى الود ، كأني أراها من مكان مرتفع ، يحتوينا القطار المتدفق بسرعة ، أكثر من أي أخرى عرفتها حتى هذه اللحظة .

قبل دخولنا محطة مدينة بازل وقفنا قليلاً في الممر ، أفسحت لها ،

اتجهت صوب الباب ، لـم تكن تحمل إلا حقيبة صغـيرة ، نزلت على مهل ، لم أنس مراجعة برنامج الزيارة المفصل ، مكان انتظار صاحبى أمام القاطرة، أول الرصـيف بالنسـبـة إليـه ونهـايتـه عندى ، عندمـا نزلت إلى الرصـيف فوجئت بضخامة المحـطة ، وقلة عدد الركاب سواء المغادرين أو المنتظرين ، يمكنني رؤية المدى كله ، مـشيـت باتجاه صـاحبى الذى كـان يقف فى المكان المحدد بـالبرنامج المطبـوع ، عرفـته من قـامتـه الممتلئـة قليلاً ، والمتـوسطة ، أسرعت الخطى رغم ثقل حقيبـتى ، لكنه لم يتحرك باتجاهى ، منذ عامين لم أره ، جاء إلى القاهرة فى زيارة سنوية تبـدأ قبل رأس السنة الميلادية ، وثاقى به قديم ، يرجع إلى أول السـتينيات ، مع بدء ترددى على الندوات الثقـافية ومقـاهى وسط المدينة ، إنه هادئ ، مـتزن ، أكن له مـحبـة واحترامـاً ، وفى حضوره أطمئن وأستعيد الأيام الرواسخ التى تبدو من بعيد آمنة ، مستقرة ، إنه واحـد من قلة أصـغى إليـهم باهـتـمام ، وأقـتنـع بما يمكن أن يبـديه من ملاحظات ربما لا أتقبلها من غيره ، حتى وإن قيلت برقة .

عندما صحت ، أشـار بأصابعه المضمومة بما يعنى خـفض صوتى ، كان عناقـه محـايداً ، هادئاً ، ورغـم تحفظه البـادى لم يخـفف ذلك من انفعـالى برؤيته هـنا ، فى هذه المدينة التى هاتفنى منهـا مراراً ، وخط لى منهـا رسائل عدة ، هنا يعيش مع زوجته السويسرية ، معلمة فى معهد فنى .

فراغ المحطة ، الأرصفـة المتعددة ، أكثر من عـشرة ، القطارات الطويلة ، بعضـها داخلى ، يصل مدناً سـويسرية فقط ، معـظمها يتجـاوز الحدود إلى البلدان المجاورة ، قـبل خروجنا إلى رصيف عـربات الأجرة قال إنه سيـفتح الباب ، وسيقوم السائق بوضع الحقيبـة فى السيارة ، حذرنى من حملها كما

نفعل فى مصر ، وأثناء توجهه إلى مقعد القيادة ، ندخل إلى المقعد الخلفى ، هنا لا يركب أحـد بجـوار سائق الأجـرة إلا فى ظروف محـددة حصـرها القانون المطبق هنا ، لن يصدع رأسى بتفاصيلها ، لن أحتاج إليها ، لن يزيد عـدد المرافقين عن شـخص واحد طـوال مدة إقـامـتى ، سـواء فى بازل أو زيوريخ أو برن أو جنيف أو لوزان أو سولوتورن ، قال إنه قرأ بدقة البرنامج الذى طبع منه عدد محدود جداً من النسخ لأسباب أمنية .

بدأت أنتبه

"هل ثمة أخطار ؟"

أومأ برأسه ، قال إن الأمن هنا لا مثيل له فى أى دولة أوروبية، ضحك .

"لا تنس أنها دولة بنوك، والأموال تحب الهدوء فى رقادها وحركتها .."

مثلت أمامى ناصية ، فى مواجهتهـا مبنى قديم ، مدخله فسيح ، مهيب ، تعلوه تماثيل صـغيـرة ، قصدتـه يوماً ، لكن أين يقع بالضـبط ؟ ، لا يمكننى التحديد .

لماذا تمثل تلك الواجهة هنا ؟

لا أعرف !

يقول صاحبى :

"الاحتـياط واجب ، خاصـة إذا تعلق الأمر بكاتب قـادم من إحدى دول الشرق الأوسط حيث المشاكل ساخنة ، فعالة .."

يطل الفندق على نـهر الراين ، رائحـة بن قـوية تعـبق المدخل ، الأرائك

وثيرة ، المقاعد عتيقة ، إطارات ضخمة للمرايا ، أستدعى أخرى مشابهة فى مقهى الفيشاوى ، بعد تسجيل البيانات وتسليم الحجرات ، توقفنا متطلعين إلى الرقم المكتوب بحروف معدنية بارزة ، دعوت صاحبى إلى الدخول قبلى ، لكنه بسط يده معترضاً .

"أنت الآن المتصرف فى المكان، صاحب بيت يعنى..لا بد أن تتقدمنى.."

تبدو الحجرة متواضعة بالقياس إلى فخامة المدخل وصالة الاستقبال ، غير أن ما أبهجنى اتساع النافذة ، استطالتها ، تدفق الضوء عبرها ، تطل على نهر الراين مباشرة ، جسر حجرى ، يعلى فوقه قطار كهربائى أخضر اللون ، عرباته نحيلة ، أربع أو خمس ، يمكن القول إنه ترام متطور ، يبدو أن صاحبى لاحظ اهتمامى ، فقال :

"سنعبر هذا الجسر مشياً .. ونركب الترام .."

فوق المنضدة الصغيرة مجموعة من الكتيبات الصغيرة ، النحيلة ، أحدها لشرح نظام الاتصالات المتبع وخاصة طلب المكالمات الدولية ، الثانى يتضمن أسعار الغسيل ، الثالث يوضح أنواع الطعام وعددها ثلاثة ، وأنواع الإفطار وتنبيه بضرورة تعليق القائمة المرغوبة إلى مقبض الباب فى حالة تناوله داخل الحجرة ، ورقة منفصلة تتضمن نقاط عدة حول الخدمة ، مطلوب إبداء الرأى فيها ،

لم أتوقف عند أى من هذه الأوراق ، من المعتاد أن أجدها فى أى فندق، لكن ما أثار انتباهى حرص صاحبى على قراءة كل منها بدقة واستيعاب ما تتضمنه ، ثم قوله إن بعض القواعد غير مكتوبة لكنها سارية

هنا مثل القانون ، على سبيل المثال الاستحمام بعد العاشرة غير مرغوب ، وبعد الثانية عشر مثير للمشاكل ، الجدران عموماً رقيقة ، موصل جيد للصوت ، أحياناً يمكن سماع صوت السعال القوى إذا قوى الأمر على الجار المتعب . أيضاً يجب خفض الصوت عند الحديث عبر الهاتف ، قلت مبتسماً ..

"لكننى لا أجيد الهمس .."

رفع حاجبيه

"لا حيلة لنا فى ذلك .."

قال إنه يمكن نزوله وانتظاره تحت حتى فراغى من غسيل وجهى وترتيب أغراضى ، بل يمكنه قضاء ساعة بمفرده حتى أتمدد وأستريح من السفر، يعرف أن موعد الطائرة مبكر ، ويقتضى الخروج فجراً من البيت ،

"صحيح .. لكننى غير متعب .."

حيوية تصاحب وصولى إلى الأماكن التى أبلغها لأول مرة ، أرغب فى استيعاب كافة ما أراه ، البقاء فى الحجرات المغلقة أقل وقت ، أتوق إلى المشى ، الانتقال ، تأمل الناس من موقع كاشف بمقهى أرتاح إليه .

هكذا .. فارقت الفندق برفقته ، يفيض فى الحديث عن المدينة وتاريخها ومتاحفها وضواحيها ، من نافذة المترو السريع أشار إلى بناية قال إنها تضم القاعة التى عقد فيها المؤتمر الصهيونى الأول ، فيها خطب هرتزل ، بنايات غامقة وشوارع ضيقة تمتد إلى مدى غير محدد ، من هنا امتدت خيوط وتداخلت مصائر ، رأيت اندفاع السيارة العسكرية فى خط متعرج ، كنا

نجتاز المرحلة الأخيرة من الطريق الواصل بين الاسماعيلية والقنطرة ، يميل هنا مقترباً من القناة ، المواقع التى يحتلها العدو مرتفعة ، إنهم يركبون الأرض نتيجة تراكم ناتج حفر القناة منذ قرن وأكثر ناحية الشرق ، يمكن للأسلحة الخفيفة أن تصيب أى هدف يتحرك على الطريق ، لكن أخطر ما يعمل له حسابه الطيران .

يتصل الصمت ، ملامح صاحبى أسيانة إلى حد ما ، يبدو إذ يتطلع ناحيتى مباشرة مبتهجاً ، قال إنه يمضى أياماً طويلة بمفرده ، خاصة عندما تسافر زوجته إلى قريتها الجبلية لزيارة أمها التى تقترب من التسعين ، أو للتفتيش على بعض المدارس فى المقاطعات المجاورة ، قال إنه يقرأ معظم الوقت ، لكنه يشعر بالوحدة ، وهنا كل شخص فى حاله ، لاحظت أنه غير راغب فى الحديث ، وإذا بادرت فإنه يميل ناحيتى حتى لا يرتفع صوتى ، كنت متدفقاً بتأثير صلة ومحبة ، وحديثى بلغة غير مفهومة لمن يركبون ، عددهم قليل ، معظم العربات شبه خاوية . يجلسون متباعدين ، كل منهم ينظر إلى الأمام ، صوب نقطة معينة فى الفراغ لا تبين ، لكن يلتقى عندها الجمع حيث اللا شيء ، أناقة بادية ، عطور طافية ، صمت سارى ، إذا ارتفع صوت تطلعوا إليه باستنكار شديد ، يندر حديث اثنين فى القطارات أو الترامويات أو أى مواصلة عامة ، البيوت متباعدة أيضاً ، كل موجود من حى وجماد قائم بذاته فى الظاهر ، كذلك الشوارع الفسيحة أو الضيقة ، الواجهات باردة لا تفصح ، خاصة مبانى البنوك والمؤسسات المالية الضخمة، الشاهقة ، بادية الصد والجهامة ، هنا أدركت بحدة وحدة القطارات الساعية ، تلك التى أعرفها وما تزال تطوى داخلى ، لم تتوقف

قط منذ أن ركبتها حتى زمنى هذا ، لا أستدعيها إلا متحركة ، منطلقة ، فكأنها لن تتوقف أبداً إلا عند صمتى الأبدى ، ما دمت أمضى ، أنتقل من لحظة إلى أخرى ، من صحو إلى يقظة ومن قيام إلى هجوع فإنها دائمة ، مستمرة ، قطارات وحيدة تماماً ، رغم تعدد العربات ، وتنوع الركاب والمنقولات ، لكن كل منها ينطلق فى شتى السرعات بطيئة أو قصوى بمفرده ، يقع التجاور لثوان معدودات فى الحركة أو لدقائق فى المحطات ، مروق دائم ، وإذا تم اللقاء تقع الكارثة .

بعد نزولنا إلى المحطة القريبة من بيته تخلى صاحبى عن تحفظه ، بدا أكثر مرحاً ، لكنه عاد إلى صمته عند ولوجنا الباب الخارجى للبناية التى يسكن الطابق الثانى منها ، فارقناها فى السادسة إلا الربع بعد حفاوة غمرتنى ، وزمن استعدنا فيه اللقاءات الحميمة ، واستحضرنا أصدقاء مشتركين ، عدنا إلى رصيف آخر مختلف ، قطار أسرع يصل ما بين الضواحى ، أتقنت الصمت بأسرع مما تصورت أو قدرت ، نزلنا محطة نهائية ، تتوقف القضبان فيها عن الامتداد وتقوم المصدات ، سقفها زجاجى، بسيطة ، الأبواب تؤدى مباشرة إلى سلالم تقوم على منحدر مغطى بنباتات عميقة الخضرة ، عند مدخل البناية التى تقع بالقرب يقف صاحبنا الرسام ، من القاهرة ، جاء فى منحة دراسية لمدة سنة ، كث اللحية، صريح العبارة ، لا يخفى أمراً ، مضينا على الفور إلى مبنى يشبه المحطة ، توأم لكنه بدون قضبان أو قاطرات . فى داخله صفت أرائك ومقاعد فى مواجهة مسرح مكشوف ، فوقه بيانو أسود قديم ، وآلات نفخ نحاسية ، وطبول من مقاسات مختلفة ، إفرنجية المظهور ، عازف يضبط أوتار

الشيللو، تـوافد الجمـهور ، اثنى عشـر ، كلنا ، العازفـون أربعة ، موسـيقى صاخبة ، مـعدنيـة ، خلو من أى إيقاع مـألوف عندى ، طرقـات متوالـية ، نحاسية ، أنات وترية لا تكتمل ، فوضى ضـاجة ، مزق نغمية حادة ، دونت مـلاحظة قـبل انصـرافى عن التناقض الحـاد بين انضـباط الخـارج وفـوضى الداخل . هذا ما تكشف لى مع كل نقلة ، وتمام أى خطوة .

تصفيق هادئ ، مـتزن ، محسوب ، أحاول الاحـتفاظ بملامح من أرى ، الليل مكتـمل ، بالأمس كنت فى القـاهرة ، وفى الأسبـوع القادم لا أعـرف أين ؟ ، صحيح أن البرنامج صارم ، كل شىء فيه محسوب بدقة ، لكن من يضمن حلول اللحظة التالية ؟

بدأ انصراف من لا أعرفهم ، من جمعنى بهم الحيز فترة محدودة ، تماماً كـالسفـر فى القاطرات ، لن تقع عـينى على أحـدهم ، ستـبقى كـينوناتهم مجهولة ، كذلك هويانهم ومصائرهم ، ويوماً ستختلط الملامح ، ربما أتذكر بدقـة هذا السقف الزجـاجى ، وأعجـز تمامـاً عن استـعادة ملمح واحـد من أولئك الحاضرين ، وربما تمضى الأمسية إلى اندثار تام .

عندما وصل القطار بدت مقدمة ذات حـضور إنسانى حزين بشكل ما ، ضاعف حضوره من خواء المحطة ، عندما صعدت قلت لصاحبى :

"نحن بمفردنا"

أومأ بتحفظ مهموم ، بدا قلقاً ، ثم وقف بعد التحرك المتمهل فى البداية، أشار إلى المقعد الذى يلى كابينة القيادة مباشرة .

"من الأفضل جلوسنا هنا . "

أبديت دهشتى بملامحى ، قال :

"سأشرح لك فيما بعد .."

لكنه بعد لحيظات مال تجاهى هامساً بحساسية الوضع تجاه الجنسيات الأخرى ، نعم .. الأمن مستتب وسويسرا أفضل وضعاً من غيرها ، لكن يوجد متعصبون ، خاصة ضد الملونين أمثالنا ، قال إننا قريبون من السائق ، لا يفصلنا عنه إلا هذا الجدار الزجاجى الغامق ، حتى إذا تعرضنا إلى أى خطر يمكن الاستفادة به ، إنهم مزودون بأجهزة اتصال حديثة جداً ، إضافة إلى تسليح جيد ، طوال المسافة لم يصعد أحد إلى العربة ، عندما نزلنا فى المحطة القريبة من الفندق وقفت على الرصيف ، بتلقائية نظرت إلى مقصورة القيادة ، تماماً كما أفعل عند ركوب الحافلات أو الطائرات ، رغبة دفينة ، غامضة ، فى رؤية من يتولى أو قاد المضى بى ، غير أننى هذه المرة فوجئت ، ضحكت بصوت مرتفع متجاوزاً كافة ما رصدته أو تلقيته عن الحذر السويسرى .

"لماذا تضحك ؟"

أشرت إلى السائق ، رغم تحفظه وحرصه إلا أنه لم يحجب ابتسامة ، كان قائد القطار فتاة جميلة الملامح ، لا تتجاوز الخامسة والعشرين ، عندما لاحظت تطلعنا ، لوحت فلوحنا لحظة انطلاقها ، واتفق لى فيما بعد مثل هذا مما دونته تلميحاً أو تصريحاً فى "أسفار المشتاق" الذى أشرت إليه ، فليطالعه من يرغب !

***

إيزيس

الاثنين صباحاً

تحرك القطار فى العاشرة والدقيقة السابعة والعشرين وصول زيوريخ ، الحادية عشر والدقيقة الثالثة وعشرين ونصف ..

ونصف ؟

نعم .. وسترى .

لوحت من خلف النافذة لصاحبيّ ، الكاتب والرسام ، انتهت عطلة نهاية الأسبوع ، ومنذ اليوم سأتحرك فى إطار البرنامج المكتوب ، فيما بعد سألت صديقاً سويسرياً :

"لماذا الدقيقة الثالثة وعشرين ونصف ، لماذا التحديد الدقيق بالثانية فى وسيلة معرضة للتأخير ولو بضع لحظات ؟"

قال إن ذلك أمر صعب الحدوث ، ويعد من النوادر ، وربما يرفع البعض دعوى قضائية ، أما التحديد فلكثافة حركة القطارات ، والحرص الشديد

على انضباطها ، هنا حركة ربما تكون الأشد كثافة فى أوروبا كلها ، تختص سويسرا بنظام دقيق ينسق حركة القطارات ، ويعد البديل للنظام الإنجليزى، تمضى القطارات هنا بدقة تثير الإعجاب ، متعددة ، مختلفة ، محلية ودولية، يمكن ركوب قطارات فرنسية ، وإيطالية ، وهولندية ، نمساوية ، شمالية ، شرقية ، كلها تندفع بالطاقة الكهربائية ، شبكة هائلة معلقة فوق القضبان الراسخة ، المثبتة .

فى ذلك الصباح بدأ انتباهى للقاطرات السويسرية ، ورغم مرجعية قطار الصعيد القديم عندى ، إلا أننى بذلت الجهد للإحاطة بهذا الشىء الخاص الذى يمنح للمركبات سماتها وخصائصها .

القطارات التى تصل بين المدن الرئيسية متوسط عدد عرباتها من سبع إلى عشر ، طلاؤها أخضر زيتونى ، يتوسط جدرانها الصليب الأحمر على خلفية ناصعة البياض ، لا يوحى المظهر الخارجى المتجهم بوثارة المقاعد ورحابة القمرات وفيض الضوء الداخلى ، الرمادى غالب على القطارات المتجهة من وإلى الدول المجاورة أو النائية ، عدد عرباتها أكثر ، يتجاوز العشرين ، الواحد يضم أكثر من وجهة ، كأن تكون بعض العربات مخصصة لبلد معين مغاير للعربة التالية ، وفى محطة محددة يتم الفصل والإلحاق بقطار آخر ، وهكذا .

ثمة قطارات أقصر مدى ، صفراء اللون من الخارج ، معرض لشتى الألوان من الداخل ، ركبت أحدها مخترقاً غابات كثيفة ، أنفاق من الأغصان والأوراق الخضراء ما بين ثولوتورن وبرن ، توزعت ما بين انبثاقات الشجر وتجذره وبهجة القطار ، سمعت عن قاطرات عتيقة تعمل

بالفحم ، وتطلق صفاراتها التى تفيض بالشجن ، تتحرك بالطلب ، يمكن لمن يرغب استئجار أحدها وأن يقيم حفلاً لعيد ميلاد أو بذكرى معينة أو لإتمام صفقة، لا أدرى فى أى مجلة قديمة قرأت عن باشا كان يسكن ضاحية حلوان ، دعا إلى بيته زملاء دراسته الابتدائية بعد مضى سنوات عديدة ، طال بهم السهر، وعادوا إلى القاهرة فى قطار استأجره خصيصاً لهذه المناسبة .

يمضى القطار إلى زيوريخ ، أسلك الطريق عائداً إلى أول مدينة نزلتها عند وصولى ، معالم لم أستوعبها ، كأنى أراها لأول مرة ، ضجيج احتكاك العجلات بالقضبان خافت جداً ، يخرج القطار من ظلال إلى ضوء إلى عتمة الأنفاق التى يتغير الصوت عند اختراقها بسرعة ، أحرص على اختيار مقعد مفرد ، لا أرغب فى الحديث حتى لو طالت المسافة ، أفضل الملاحظة والمعاينة وإمعان النظر فيما كان وسيكون ومراقبة ما يقع فى مدى بصرى خفية ، عدد الركاب قليل جداً ، فى بازل رأيت قطارات تتحرك شبه خالية ، اليوم أول الأسبوع ، قال صاحبى إن المواصلات من وإلى زيوريخ تكون مزدحمة ، معنى الزحام هنا أن يكون الركاب أكثر من نصف مقاعد العربة الوحيدة ، زحام سويسرى أيضاً ، الأمر نسبى ، فى رحلة سابقة إلى ألمانيا ، وما بين فرانكفورت ومدينة أرلنجن عرفت الاسترخاء فى القطار خاصة بعد احتساء البيرة أو النبيذ الذى الذى يبلغ بى هذا الحد الرهيف ، اللطيف من النشوة المتفائلة ، لكننى لم أقدم خلال رحلتى تلك ، ما زال النهار فى بدايته ، والمسافة انقضى أكثر من نصفها قبل أن أنتبه إلى مرور المضيف الذى يدفع عربة المشروبات الصغيرة أمامه .

مرة أخرى أبلغ المحطة الفسيحة ، متعددة الأرصفة ، غالب عليها اللون الرمادى تنتظرنى السيدة كاسوت هذه المرة أمام عربة الأكل ، ترتدى معطفاً رمادياً ، سقف معدنى مرتفع يحدد الفراغ ، يستحضر عندى محطة مصر ، محطة الاسكندرية الفسيحة ، يسمونها أيضاً محطة مصر ، تتداخل محطات من باريس ، من روما ، تطغى محطة مهيبة تنطلق منها القطارات إلى لينينجراد - بطرسبرج الآن كما كانت قبل الثورة - غير أننى أتردد بالمخيلة على محطة مصر الرئيسية ، كل ما أستدعيه عمداً أو تلقائياً كان عابراً ، وبعض المحطات لم أمكث بها إلا دقائق الانتظار ، مثل زيوريخ تلك ، أو برن ، أو لوزان التى تمثل أمامى مداخلها وجدرانها المتحفية أكثر من أرصفتها ، تتوالج أماكن الانتظار ، تتجاور أرصفة متباعدة لا يمكن أن تتماس إلا فى تماهى الذاكرة ، نقاط اللقاء والمراقبة والتلهف والوداع ، الأرصفة المطمئنة ، وأخرى مؤدية إلى الأمل ، لفات العجلات الأولى الجالبة للقاءات متوقعة أو انشطارات لا راد لها ، وصول متحفظ ، أشواق إنسانية حادة أو متحفظة ، لهفة بادية ، أسى يتوارى ، شجن يحل ، بداية مكث أو تمام رحيل .

المحطات العلامات ، المداخل المؤدية ، اجتيازها ذو اللهفة ، السعى لإدراك أمر ما أو القدوم للتوقع ، الملامح المتفحصة ، النظرات الباحثة ، لحظات التأجج المصاحبة لزحام القوم ، النزول والركوب ، تهلل يعقبه عناق وتداخل أذرع ومضى مرح لشابة ترتدى معطفاً أنيقاً أخضر اللون ورجل أطول لكن من خطوه يبدو تعسره أو تردده أو خجله ، أين جرى ذلك ؟ لا أدرى ، لا أدرى

تبدو السيدة كاسوت أكثر ألفة ، قلت إن ملامحها مألوفة عندى ، شرقية السمات ، قالت إنها ولدت فى القسم الإيطالى من سويسرا ، إيطاليا تعنى البحر الأبيض ، نفس البحر الذى تطل عليه الاسكندرية ، حيث أول رؤية عاينت خلالها زرقة الماء اللامتناهى ، لحظة من ثوابتى ، تلك الفرجة ما بين الشارع الضيق ، المؤدى إلى الخضم .

عربة أجرة تنتظر ، شوارع لا يعنينى الاستفسار عن أسمائها ، متشابهة ، تخلو من معالم محددة ، نتوقف عند بناية ملحقة بكنيسة ، منشأة حديثة ، مدخلها مفتوح ، هنا ستقام ندوتى الليلة ، سأقرأ نصوصاً مما كتبت ، ويقوم متخصص بقراءة النصوص ذاتها مترجمة إلى الألمانية ثم تجرى مناقشة ، صالة فسيحة ، منصة مرتفعة ، سلالم مؤدية إلى ممر قصير ، باب غرفة فسيحة ، ناصعة الضوء ، نافذة بعرض الجدار ، عندما أستقر بغرفة فندق ، أو مقر إقامة أبلغه لأول مرة أطل ، أرقب المشهد الذى تقع عليه عيناى ، أستوعبه فكثير من الأماكن التى أنزلها لن أعود إليها مرة أخرى ، حتى لو جئت إلى عين الموضع فلن يكون هو ، المكان صنو لحظته ، يفنى مع الوقت المولى ولهذا تفصيل يطول شرحه فالأمر متعلق بدقائق يصعب وصفها أو تفصيلها هنا ، اعتدت التقاط صورة لما تقع عيناى عليه ، لما أراه عبر النافذة فى لحظة الحط الأولى ، حديقة فسيحة ، زاهية الخضرة ، تنتهى بسور قصير محاذ لطريق غير ممهد ثم يبدأ انحدار ما يشبه مرتفع صغير ، ليلة واحدة أقضيها فى هذه المؤسسة الملحقة بالكنيسة ، أمضيت ليلة فى مقر المطرانية بمدينة أبو تيج ، السقف تتخلله أعمدة خشبية ، وحجرات تطل على شرفة داخلية ، دائرية ، نخيل ، شجرة تين ، أسوار عالية ، رائحة خاصة بالمكان

فيها عتاقة ، من اصطحبنى إلى هناك ؟ ، كيف أقمت ، كم أمضيت ؟ كان صفير القطار يبدو قادماً من بعيد رغم أنه مطل على الخط المتجه جنوباً وشمالاً ، عدت إلى المدينة ، إلى مقر الجهة الداعية ، مضيت بصحبة فنان متخصص فى فن البورتريه إلى معرض للوحات مودليانى ، أمضيت ثلاث ساعات ، لوحات تم تجميعها من متاحف عدة فى قارات متباعدة ، فى بازل قضيت السبت الماضى فى المتحف ، خاصة فى الطابق الثانى حيث توجد ثلاث لوحات لهنرى روسو ، شخصت إليها متمثلاً كل لحظة لامست فيها الفرشاة سطح اللوحة ، لحظات إبداع ما أرى ، أحاول استعادتها من جديد، رغم أننى رأيتها فى كتب مطبوعة ، لكن مشاهدة الأصل مغاير تماماً ، لا بد أن يختلف شيء ، الرؤية فى الضوء الطبيعى غير الضوء الصناعى ، فى الصباح مغايرة للظهيرة أو العصر ، ولو جئت بعد انصراف القوم وإغلاق المكان فسأشهد تكويناً مختلفاً وأدرك أموراً أخرى ، نظرة الآن تستوعب ما يختلف عن نظرة الغد أو الساعة التالية رغم أن ما نراه يبدو ثابتاً ، قائماً ، ولكنه الجمود الظاهرى ، نعبره ويعبرنا ويقع الاختلاف ، فكرت أن أحدث مرافقى الفنان السويسرى فى ذلك لكننى لم أقدم ، شغلت أيضاً بتأمل ملامحه المستطيلة ، وهدوئه البادى ، وحديثه عن النحت فى آسيا ، وإعجابه بالتعاليم البوذية واستيعابها للإنسان فى كل زمان ومكان ، كان يتدفق بحرارة ثم يتوقف فجأة ، عندئذ تبدو عيناه حزينتان ، كأنه على وشك البكاء .

ازدحمت الصالة الرئيسية ، تنوعت الأسئلة وطالت الأجوبة ، وخلال ثلاث ساعات من نقاش طويل علقت بعينيها ، استقر طوافى عندها ، كانت

بالغة الدراية بمصر ، عارفة بأسماء القرى الصغير والمدن الكبيرة ، متيمة بإخميم ، حوالى الواحدة صباحاً كنا ثلاثة ، نجلس إلى طاولة مستديرة ، هى وسيدة ممتلئة متخصصة فى الزهور الصناعية ،تمت بصلة قرابة إلى صحفية مصرية شهيرة ألتقى بها فى حفلات المسرح القومى ودار الأوبرا واجتماعات لجنة التضامن الأسيوية الأفريقية ، والمؤتمرات المناهضة .

فى الثانية إلا ربع صرنا بمفردنا ، هدوء عميق ، بناية خالية ، أم يقيم داخلها آخرون ؟ ، كنا نشرف على صالة أقل مساحة تتوسطها منضدة فوقها أطباق بها شطائر وعلب عسل نحل صغيرة وأوعية مربى وقطع جبن مغطاة ، ودوارق مصفوفة ممتلئة بعصائر مختلف ألوانها ، إنه إفطار الغد ، ليس من المعقول أنه أعد لفرد واحد ، أين الآخرون إذن ؟

بدأت سعيى على الفور ، دعوتها إلى الجلوس قليلاً فى حجرتى ، بدت مترددة فى البداية ثم تبعتنى ، أشارت إلى شفتيها بما يعنى ضرورة الصمت فأيقنت من اكتمال الدائرة ، أجج الانفراد نزوعى ، وأضفى النبيذ الجيد مظلة دافئة حجبت الكدورات وبعثت ما كمن ، غير أن استجاباتها بدت حذرة ، قالت إنها لا تستطيع أن تمكث هنا ، لا بد أن تذهب ، ثم تعود إلى الحديث عن مصر ، والأزمنة القديمة ، كانت تحمل فى حقيبتها كتيباً صغيراً عن معبد أبيدوس ، قالت إنها أمضت داخله ليلة كاملة ورأت أشعة الشمس لحظة ميلادها على واجهته فكادت تجن ، قالت إن اسمها إيزيس ، غيرت اسمها الأصلى ، لم تذكره حتى لا أخطئ وأناديها به ، عند لحظة معينة أدركت أن الفجر يقترب ، وأن نهاراً من المشقة المتصلة ينتظرنى غداً ، لم أقاوم عندما أصرت على الذهاب ، شرعت أرتب الغرفة لتتلائم مع

عاداتى المؤدية إلى النوم ، أحاول احتواء ما يضمه المكان بالنظر ، كوب الماء الممتلئ فى متناول اليد إلى جوار السرير . الساعة ، إحكام الإغلاق ، الباب، النافذة ، الإصغاء للتعرف على أصوات المكان ، سيتحرك القطار فى الثامنة والربع إلى مدينة برن ، هذا يعنى استيقاظى فى السادسة والنصف ، لن تتجاوز ساعات نومى الثلاث ، يبدأ توترى المصاحب لإدراكى ضرورة الصحو فى ساعة مبكرة أو توقيت محدد ، أعرف نشاط ذهنى وسرعة تعاقب الصور رغم الإرهاق وتقلبى فى الفراش ، من الأفضل استخدام ذلك الدواء الفرنسى ، لا ألجأ إليه إلا عند الضرورة ، إذ يقضنى الأرق ، رشفة ماء ونصف قرص فقط .

خطوات متسارعة

يدق الباب ، أصغى إلى صوتها ، تبدو هلعة ، مخضوضة .

ماذا جرى ؟

تقول إنها أثناء انتظارها عند محطة عربات الأجرة ظهر رجل يرتدى معطفاً ونظارة سوداء ، دار حولها ، بدا مخيفاً ، وعندما قررت العودة اقتفاها مطلقاً أصوات غريبة ، لكنه لم يتبعها إلى داخل المبنى ، أهدئ من ارتجافاتها، أطلب منها أن تتمدد فوق السرير ، أن تنام هادئة تماماً ، لكنها تأبى ، ينحسر ثوبها عن فخذين ممتلئين ، مجربين ، لكنهما لا يثيران عندى أى رد فعل ، كنت راغباً فى إطفاء الضوء وهجوع كل منا رغم ضيقى بنوم من لا أعرفه على مقربة ، فى السنوات الأخيرة أفضل الوحدة عند النوم ، تماماً كما أختار المقعد المفرد فى القطارات حتى أخلو وأبحر فى التأمل ،

تصر على استدعاء عربة أجرة بواسطة الهاتف ، لأول مرة أكتشف وجود الجهاز فى الغرفة ، لم أره لأننى لم أفكر قط فى الاتصال، لا أعرف أحد هنا، والرقم الحميم الوحيد معى لصاحبى فى بازل، وأن أهاتفه الآن مستحيل، عندما تنتفى الحاجة تختفى الأشياء من البصر، حتى مع وجودها.

تتحدث بالألمانية بعد أن تم الاتصال . تضع السماعة وتسند ذقنها إلى راحة يدها ، أكرر دعوتى بالبقاء ، لكنها تصر ، يقترب صوت عربة ، يتوقف ، أخرج معها إلى الممر ، لا أقتنع بمفارقتها هنا ، لكنها تشير بحزم ، أعود إلى الغرفة ، أرقد أخيراً ، ما بين اليقظة والنوم إذ توشك الأشياء على التماهى ، تتردد نقرات خفيفة على الباب .

أرحل ...

***

خزانة

دائماً عبر النافذة ، أسدد البصر إلى نقطة لا يمكننى تحديدها أو تعيينها ، إنه الوضع الأمثل للتنقل عبر اللحظات الماضية ، أو تلك الآتية ، أو ما لا يوجد ، المقعد فسيح ، مريح ، أسترخى متمنياً إغفاءة قصيرة ، لكن يبدو ذلك صعباً ، وعد إدراكه ، ما أمر به يقع عليه بصرى لأول مرة ولن أسلك هذا الطريق مرة أخرى ، صوت العجلات يتوارى بفضل احتياطات عديدة، خافت كأنه قطار بعيد ، لكن يشهر لفاته عند المرور فوق الفواصل أو التقاطعات التى تتخلل الطريق ، خاصة ما قبل وما بعد المحطات التى لا يتوقف بها .

أستعيد القطارات المتعاقبة ، أتنقل بينها ثم آوى إلى رقم ثمانية وتسعين الثامنة صباحاً ، إنه البداية ، لإقامتى الآن عمق ومدى ، فى اليوم التالى نزلت من قطار الضواحي بصحبة الفنان المصرى المقيم لمدة محدودة ، الوقت عصر ، وللعصارى فى الديار البعيدة عن موطنى ثقل خاص ، إذ يهن الضوء يبدأ اقتراب الليل ، ما بين العصر والمغرب مواز للنهايات ،

أرقب دورة الحياة فى ساعات النهار ، الميلاد صباحاً ثم تتعاقب المداخل ، موجز الدورة الكبرى فى الصغرى ، لكننا لا ننتبه ، مشيناً عبر ممر مرصوف بالحجر ، صاعد قليلاً ؛ لذلك أجهدنى ، تحفنا أشجار منسقة ، إنها الغابات المخططة ، منطقة تسمى جوانتوم ، نصحنى صاحبى القديم بزيارتها ، بيوتها تخلو من الخطوط الحادة والزوايا القائمة ، ما من سقوف محدبة ، أقواس للمداخل ، للأبواب ، للنوافذ ، الزوايا الحادة تثير أعصاب الإنسان ، لكن جوانتوم تحوى عناصر أخرى تعد تطبيقاً لأفكار فيلسوف ومفكر ألمانى اسمه شتاينر ، له أتباعه ومن يحتفى به كل عام ، دعا إلى استخدام المواد الطبيعية فى كافة عناصر الحياة ،المنسوجات من قطن خالص أو صوف غنم، ألوان الصباغة من العصفر وعرق الحلاوة ، والنيلة ، الخرسانة بلونها الطبيعى ، الأحذية من جلود الحيوانات ، البيوت متباعدة ، نوافذها مغلقة ، لولا المظلات الموضوعة فى صناديق نحيلة أمام الأبواب والأحذية الدالة على عدد أفراد البيت ومن بالداخل وأيضاً المستوى الاجتماعى لظننت خلو المكان كله من البشر ، خضرة خصبة ، وأشجار معمرة ، وصفاء منهمر وفرادة موضع ، عندما عادت زوجة صاحبى القديم متأخرة ، أبدت اعتذاراً، إنه العشاء السنوى ، يجىء الخريجون ليلتقوا بها بعد أن تفرقوا ، فى مراحلهم الأولى تسأل كل منهم عن أمنيته ، عن العمل الذى يوده ، يكتب كل منهم ، تحتفظ بأوراق عديدة خطت خلال أعوام متتالية ، عند اجتماعهم تفاجأهم بتعليق أمانيهم القديمة على السبورة ، تتأمل ردود الأفعال .

تلميذة تمنت أن تصبح كاتبة، تعمل الآن مساعدة فى معمل تحاليل طبية.

أحدهم ود دراسة الطب ، الآن ميكانيكى سيارات .

ثالث خطط ليتعلم الطيران ويطوف العالم ، أصبح مساعد مصور سينمائى .

قال صاحبى إن الانتقال من طبقة إلى أخرى هنا أمر صعب جداً ، المجتمع محددة درجاته بدقة ، تماماً مثل هذا القطار الذى أسافر فيه ، يفصل ما بين الأولى والثانية عربة للطعام ، أو للبريد ، لا يمكن تبرير الخطأ ، كل عربة لها مكانها المحدد فوق الرصيف ، علامات عديدة معلقة إلى المظلات الواقية . أسترجع الإحساس القديم عند ركوبنا الدرجة الثالثة ، بُعد الدرجة الأولى وانفصالها رغم أنها من مكونات القطار ، بل إننى فى سنوات الطفولة المبكرة لم أعرف بوجود درجة أولى فاخرة وأخرى عادية إلا بعد سفرات عدة ، وما تمكنت من رؤية مرة مقاعد الدرجة الثانية إلى أن بدأت رحلاتى كموظف صغير من حقه ركوب الثانية العادية طبقاً للائحة بدل السفر ، ثم ركوبى قطارات شتى ، أمر بها وتمرق عبرى ، ما من نهار أو ليل يطوينى إلا وتبدو لحظة تمت إلى قطار عرفته ، إما فى انتظاره وسعيى إليه ، أو حركته ، نافذة ، قضبان بادية ، ضجيج عجلات ، صفير ، البواعث شتى، باستمرار ثمة قطار ، إننى بين اثنين ، مغادر لأحدهما ، قاصد للآخر، ما بين ذلك مسافة زمنية ، فترة ، ربما بضع دقائق أو ساعات أو شهور ، لكن أى مُكث لا بد وأن يصير إلى قطار ما .

فى ذلك اليوم أطبق علىّ النظام الصارم ، ولجته طائعاً ، لا فرصة للفكاك منه ، لو حدث سألقى متاعب شتى ، على رصيف محطة برن ، فى المكان المحدد ينتظرنى صاحبى ، مترجم بعض ما كتبت إلى اللغة الألمانية ، اعتدت أن ألقاه فى مصر عند تردده عليها ، يماثلنى عمراً ، مولود فى نفس

العام ، يبدو متقدماً عنى ، بدا ودوداً ، أصر على حمل حقيبتى وهذا مما أخجل منه ، تقدمنى بخطاه الفسيحة ، طويل نحيل ذو لحية شعرها أشيب ، مشينا خلال ممر تحفه أقواس مطلية بالأبيض الناصع ، استدعت عندى مدينة فاس وقسماً من شارع محمد علي وظلال من طريق ريفولى فى باريس وناصية مؤدية من مدينة لم أستطع تحديدها بالضبط . ربما فى أسبانيا ، أو المكسيك ، أو لا وجود لها .

لم يكن الفندق بعيداً ، بعد تدوين البيانات واستلام المفتاح صعدت إلى الطابق الأول ، غرفة داخلية لا تطل على الطريق ، مَثُلَ عندى فندق صغير فى مدينة الزقازيق ، نزلته عام ثلاثة وستين ، وكانت النافذة لا تؤدى إلى شيء ، أفتحها فألقى جداراً أصماً من حجارة مضطربة الرص ، قديمة غير متساوية . فى مبنى الجامعة القريب والذى يحتل بناية عادية تحدثت إلى من يدرسون العربية وكان أستاذهم نحيلاً ، قليل اللفظ ، قال إنه سيرانى فى المساء عند صاحبى ، بين الصفوف رأيت اثنين ، أصغيت إليهما ، أحدهما يمت بصلة إلى العائلة المالكة السابقة ، لا أدرى درجة قرابته بالملك فاروق لكنه بدا معتزاً ، فخوراً ، وردد ذلك أكثر من مرة ، أما الثانى فكان فلسطينياً استقر به المقام هنا منذ سنوات طويلة ، أعى انحناءته وتطلعه الساهم إلى الأمام ، فيما عدا ذلك لا أذكر شيئاً مما جرى بيننا ، ورغم جلوسنا فى مقهى قديم إلى جوار نافذة يبدو من خلالها طريق مرصوف بالحجر ، إلا أننى لا أستدعيه إلا جالساً فى قطار ما أجهل وجهته ، مطعم عائلى التكوين ، فى ركن الصالة مدفأة مرتفعة من خزف منقوش ، أبيض وأزرق ، جرى ترتيب موعد مع كاتب سويسرى يسافر كثيراً إلى أمريكا اللاتينية ، قال إنه حريص

على رؤية الأشـيـاء من داخلها ومن خـارجـها ، لذلـك لا يقر له قـرار ، لا يستقـر أكثر من شهر ثم يستـأنف السفر ، قال إنه وحيـد ، ويغطى نفقاته مما يكتبه.

فى العـصر آويت إلى غـرفـتى ، بعد تمددى بخـمس دقـائق لا غيـر رن الهاتف ، دهشت عنـدما أصغيت إلـى صوت إيزيس السويسرية ، بدا أنها تعرف برنامجى بدقة ، فيما تلا ذلك تأكد عندى الأمر ، إذ كانت تتصل فور دخولى أو قبل مغـادرتى ، قالت إنها تصاحبنى الآن من خـلال كتابى وأنها تتـمنى لو تحدثت مـعى عن إحسـاسى بالزمن ، فى المسـاء تناولت عشـائى بصحـبة المترجـم ، دعا عدداً من طلبـته الذين يدرسـون العربية ، والأسـتاذ الذى قابلته صباح اليوم ، كـان الطعام سويسرياً تماماً ، أنواع شتى من الجبن الصلب والسائل والطرى ، المستطيل والمستـدير ، وبطاطس صغيرة الحجم ، مسلوقـة ، وكانت ربة البيت صـديقة صاحـبى وشريكة إقامـته منذ سنوات طوال تبدى مـودة وتتحدث عن رحلة سـيقومـان بها إلى الشمـال، بالعربة، وتحدثت شـابة نحيلة عن الأدب الفارسى بإعجـاب ، وقالت إنها تهيـم حباً بحافظ الشـيرازى، فأبديت سـرورى وأضفت إليه سـعدى أيضاً ، قرأتهـ بعد ترجمتهما إلى العربية ، قـال شاب يرتدى قميصاً بدون ياقة إنه عاد ء الحدود الكويتـية العـراقية أول أمس، إنـه يعمل بالصليب الأحـمر، أبديت اهتمـاماً، سأله الأستـاذ عما عاينـه، لكنه اعتذر برقة وحـسم، قال إن رجل الصليب الأحمر يجب ألا يتحدث عما رآه أو سمعه.

قبل أن أدلج فى النوم ، رن الهاتف ، كانت إيزيس السويسرية تتمنى لى ليلة سعيدة ، أقلـقنى اتصالها هذا ، فموعد عودتى إلى الـفندق غير موضح

بالبرنامج المطبوع فى نسخ محدودة جداً يبدو أن أحدها عندها .

ودعنى صاحبى أمام عربة القطار المحددة ، كنا سنلتقى بعد يومين فى مدينة سولوتورن ، بدا معنياً ، عنده فيض ، معتبراً لمسئولية خاصة تجاهى ، فى جنيف وعند نهاية الرصيف كانت تقف الأستاذة الجامعية ، لم يكن عسيراً قط تعرفى إليها من بعيد ذلك أنها مصرية من الاسكندرية ، جاءت فى مهمة دراسية وبقيت بصحبة أبنائها الثلاثة ، لم تأت بخبر أو إشارة تدل على زوجها ولم أهتم بالاستفسار ، كنت أفكر فى اليوم الطويل الذى لن أخلو فيه بنفسى ، زيارة لمقر الأمم المتحدة ، الوقوف أمام قطعة من صخور القمر أحضرها رواد الفضاء معهم خلال رحلة أبولو ، أمضيت وقتاً أحدق إلى تلك اليبوسة الحجرية هرمية الشكل ، جزء من الكون ، لقاء صاحب من مصر يعمل هنا ، ثم الذهاب إلى مدرج الجامعة ، الحديث ، الأسئلة ، الأجوبة ، شاب يتكلم العربية الفصحى بتؤدة ونصاعة ، إنه مولود فى سويسرا ، أبوه أحد قيادات جماعة الإخوان ، هرب من مصر ، واستقر به المقام هنا ، تردد اسمه على مسمع منى ، قرأته أحياناً ، الغذاء مع صحفى يعمل فى مجلة لاهوتية ، المشى على ضفاف البحيرة الشهيرة، النافورة تدفع بالماء إلى ارتفاع شاهق، الفنادق المشرفة من أعلى الدرجات وأغلاها، أما أسعار العقارات المطلة فلا قِبَلَ لخيالى المحدود باستيعاب أرقامها، قالت: يوجد مصريون مقيمون أو يمتلكون بيوتاً هنا يترددون عليها ، أصغيت صامتاً ، لا أدرى هل تقول ذلك بدافع التباهى أم الرغبة فى الكشف ، عندنا فى الحوارات المتداولة ، لا أقدر على تعيين مكانها وزمانها، اذ يخبر أحدهم أن فلاناً عنده حساب فى أحد بنوك سويسرا ، سرى خاص، فهذا جالب

للريبة والشك ، أو الوصف باللصوصية .

لا شيء يغرى فى هذا المكان ، جمال عادى مؤطر ، مصنوع ، طبيعة جميلة ، منضبطة ، تماماً مثل كل شيء هنا ، كل شيء يمضى بهدوء ، بنظام، بدون ضجيج ، حتى المظاهرات ، فى زيوريخ آويت إلى مقهى فى المنطقة القديمة ، تدفقت فجأة إلى الساحة عربات بوليس مدرعة ، نوافذها مغطاة بالقضبان الحديدية ، ظهر رجال أشداء يمسكون عصى كهربائية وأسلحة نارية متطورة ويتمنطقون بمقابض وعصى وقيود متأهبة للإطباق وقنابل مسيلة للدموع .

"ماذا يجرى ؟"

"ثمة مظاهرة .."

"لمن ؟ "

"للنساء .."

"ماذا يردن ؟ .."

"إنهن يتظاهرن ضد الرجال .."

"ماذا فعلوا بهن ؟"

"لا شيء .. إنهن ينتمين إلى حركات نسوية معادية للرجال .."

قمت واقفاً ، متقدماً صوب نقطة يمكننى من خلالها رؤية ما يجرى بحذر ، فوجئت بعشر أو اثنى عشر امرأة فقط ، يقفن ، بعضهن يرفعن لافتات كتب عليها ما لا أقدر على قراءته ، وأخريات يرددن بأصوات

نحيلة ، واهنة ، شعارات فى مواجهة الشرطة المتحفزة والأسلحة المشرعة .

"لا تتعجب .. غير مسموح هنا بأى هزة للنظام والهدوء .."

مشيت حول البحيرة ، إنهم أثرياء العالم ، يتفقون بغير لقاء على موضع ما ، مكان معين ، يصبح الأغلى ، فى متناولهم هم فقط ، بذلك يتم إقصاء المتطفلين ، أو من هم خارج الدائرة الضيقة ، الأسوار حول البيوت مرتفعة تحجب ، والأبواب الموصدة بوسائل شتى تمنع .

عندما بلغت محطة القطار مضيت إلى الخزانة الحديدية التى وضعت داخلها حقيبتى فى الصباح ، شرحت لى الأستاذة كيفية التعامل معها بعد وضع القدر المطلوب من النقود ، مقابله يتم حجزها لوقت معلوم ، إنها المرة الأولى لذلك سرى عندى قلق ، ما تحويه يخصنى ، ليس مهماً شكل الحقيبة، أو المادة المصنوعة منها ، المهم ما تعنيه ، لم أرحل إلا وأضعها فى متناولى ، أو أطمئن تماماً إلى إجراءات تسليمها وتسلمها عند السفر بالطائرة ، فى المركبات أحرص على بقائها فى متناول بصرى ، لذلك أسندها إلى الرف المقابل وليس فوقى ، سوف تبقى حقيبتى فى هذه الخزانة بمفردها ، ثمة مشاعر غامضة تجاهها ، وأمور دقاق أكثر استعصاء ، لم أنطق بسؤال عن مصير الحقائب التى لا يعود إليها أصحابها ، ربما خوفاً من وقوع ما أخشاه ، ذكر الشيء عندى إيذان باستدعائه .

ذروة قلقى خلال السفر تلك المسافات الزمنية الواقعة بين مكانين ، الأول فارقته بالفعل والثانى لم أبلغه بعد ، تصحبنى حقيبتى ، تستقر فى مخزن طائرة أو فوق رف قطار ، كينونتى ممتدة فيها ، عرفت أشكالاً شتى

منذ اطلاعى على محتويات القفة المجدولة من خوص النخيل ، والمغطاة بقطعة قماش منتزعة من جلباب قديم ، القفة القادمة من جهينة مثيرة للشهية ، أستعيد محتوياتها أينما تنقلت ، وإلى أى وجهة ذهبت ، أول ما يوضع داخلها الخبز الشمسى وصلتى به وثيقة وعندى منه حنين وإليه ميل ، فوقه الفايش المعجون بالسمن واللبن والمخبوز بيدى عذراء لم يمسسها بشر قبل شروق الشمس ، ثم الملوخية المجففة ، وثمار الدوم ، أو التمر ، وآخر ما يوضع الحمام المذبوح والبطة المُعدة حتى لا تفسد من الحر ، عند سفرنا من القاهرة تحتوى القفة على صابون معطر ، وسكر ، وقماش رجالى وآخر نسائى ، وعلب لحم محفوظ أو سمك التونة وأرز رشيدى ، عندما بدأت أسفارى بمفردى لم أصحب القفة إنما حقيبة من ورق مقوى مكسو بورق يشبه الجلد ذات قفلين ، فيما بعد انتبهت إلى جمال الخوص وطلاوة رائحته ومتانته وسعة القفف حتى متوسط الحجم منها ، لكن أفندى ويتنقل بقفة أمر يبدو غريباً مع تكرار الأسفار واختلاف الجهات وامتداد المسافات تنوعت الحقائب ، بمجرد أن أبلغ الفندق أهدأ ، يخف توترى ، أتسلم مفتاح غرفتى ، أضعها فى مكان متميز ، تبدأ صلتى بما يضمنى عندما أستخرج محتوياتها ، أوزعها ، أرتبها ، الكتب إلى جوارى بحيث يمكننى النظر إليها أثناء الرقاد ، فوقها ساعة معصمى ، والمنظار الطبى .

دائماً أخشى فقدها ، خلال أسفارى تفاجأنى الكوابيس ، تدهمنى الرؤى المزعجة ، مصادرها مجهولة ، متداخلة العناصر ، لكن خشيتى من فقدها يظل أبرز ما يؤرقنى .

العاشرة ليلاً .

الخواء السويسرى ، أرصفة ممتدة ، قضبان وحيدة ، قطار بلا ركاب ، لم ألمح أى راكب ، العربات غامقة الخضرة ، تستحضر عندى زمن الحرب العالمية الثانية بشكل ما .

لماذا ؟

لا أعرف ، ربما لمشاهدتى أفلاماً تسجيلية عديدة لقطارات على أهبة التحرك صوب الجبهات المشتعلة محملة بالوقود البشرى ، رؤوس مطلة ، أيدى ملوحة ، مودعة ، قطارات المصير ، وجهة القطار تدل عليه ، تنعكس بشكل ما على هيئته ، حركته ، صوت عجلاته ، صفيره ، تقدمه ، اجتيازه المفارق ، المحطات الرئيسية والفرعية وتلك المنسية ، لم ألمح إلا رجلاً من الطاقم ، يرتدى حلة رسمية زرقاء وغطاء رأس . ودعت الأستاذة المصرية التى لم تبد دهشتها لخلو العربات ، قالت إنها ستتصل فى الثانية عشر للإطمئنان على وصولى الفندق فى لوزان ، بعد جلوسى وتطلعى عبر النافذة إلى الفراغ الليلى ، تذكرت أننى لم أخبرها باسم الفندق أو رقم هاتفه ، لا بد أن لديها نسخة من برنامج الزيارة ، تماماً مثل إيزيس السويسرية ، أخبرتنى قبل مغادرتى برن صباح اليوم أنها ستقضى عطلة نهاية الأسبوع فى لوزان ، ستنزل الفندق عينه ، إنها لفرصة كى نتحدث .

حفيف العجلات كأنه قادم من بعيد ، مع تزايد السرعة لم يرتفع الضجيج ، العربات من طراز أقدم ، لكنها تبدو أرسخ ، كأنى أجلس فى غرفة استقبال بيت قديم مدثر بالظلال الهنيئة ، غير أن هذا القطار حيرنى ، لم أقدر على تحديد هويته بدقة ، بدا مستعصياً على أى تصنيف لا يشبه أى قطار عرفته من قبل ، حيرنى هذا طويلاً إلى أن أدركت جوهر الأمر خلال

رحلتى تلك من سوهاج إلى مصر قبل سفرى لإجراء الجراحة الفاصلة ، ذلك أن ما يضفى السمات هم البشر ، قطارات الركاب تبدو مختلفة ، مغايرة عن تلك المخصصة لنقل المازوت أو البضاعة، أو المعدات العسكرية.

يختلف الأمر داخل الهوية الواحدة ، ركاب الاسكندرية السريع مغاير للبطىء ، الفاخر غير العادى ، المتجه إلى الجنوب له سمات أخرى ، قطارات السويس أو بورسعيد فتبدو صفتها قصيرة المدى ، الوحدة الأسيانة تخلف تلك الساعية على الخطوط النائية ، ما بين قنا والواحات حيث الخط مفرد ، والرمال ممتدة والصمت قديم ، القضبان علامات غير مؤكدة ، لا تؤنسها العجلات إلا مرتين فى الأسبوع .

سرعات مقدرة ، مقننة ، لا بأس من الإسراع ولكن بقدر ، لا حيدة ولا خروج وإلا جرى هلاك مبين . قطارات البضاعة مجرد طوابير معدنية صامتة ، جرداء من كل ضجة أو مشروعات تواصل حميم أو تماس أجساد غريبة عن بعضها . عند التحرك أوالتوقف تحتك العربات ببعضها احتجاجاً وربما فى محاولة ما للفت الأنظار .

يندفع القطار السويسرى عبر الليل المعتم ، أضواء الخارج واهنة ، لا يزيدها المروق السريع إلا وهناً وضعفاً ، راكب وحيد ، لا يوجد سواى ، الليلة تستدعى أخرى لكن .. من زمن الحرب مع أن الظرف مغاير .

بعد اجتيازى منطقة الصالحية الصحراوية قادماً من الخطوط الأمامية المحاذية لقناة السويس ، فارقت العربة العسكرية عند بداية الخط الحديدى ، كانت العربات المنتظرة مدثرة بالصمت والعتمة ، تندمج ملامحها بالليل

الغميق ، إنه الوسيلة الوحيدة المتاحة ، الرحلة حرجة لأسباب عديدة ، منها ضرورة التحرك بدون أى أضواء حتى مدينة بلبيس ، سرعة متوسطة ، حذرة ، ما يطمئن أن الخط مفرد ، لكن ما لم أستوعبه فى البداية أنه مخصص لنقل الشهداء ، توقعت تمددهم فى عربة مغلقة ، محكمة الإغلاق، العربات كلها للدرجة الثالثة ، مهملة ، نوافذ مفتوحة ، بعضها نصف مغلق ، صعدت إلى التالية للقاطرة مباشرة ، لمحت ذراعاً مدلى ، ربما ينام أحد الجنود فوق الرف ، هذا وضع عادى فى قطارات الصعيد ، وتلك المتجهة إلى سائر المحافظات ، يتكدس المجندون فوقها وداخلها ، يتمددون فى أى فراغ متاح ، متعبين ، مكدودين ، غير أن اهتزازات الذراع الممتدة بدت بملامح لم أعرفها من قبل ، الاهتزازات تتبع حركة السير ، لا صلة لها بأى باعث ذاتى ، منبتة الصلة فيما عداها ، تتدلى ذراع أخرى .

ألتفت إلى العمق المعتم ، أدركت وجودهم قبل رؤيتهم ، فوق المقاعد ، الأرضية ، الأرفف ، رؤوس مستندة إلى صدور ، أطراف لا تؤدى إلى شىء ، أيقنت بوجود دماء طرية ، دافئة ، لم أولهم ظهرى ، إنما جلست على المقعد المواجه للفراغ ، أحاول أن أعتاد العتمة الداخلية وتلك الخارجية، عندى ترسبات خوف قديم وخشية من مجهول ودهشة لما وجدت أمرى عليه ، فى العتمة بدأت ملامحهم تتشكل ، بعضها مستعصى علىّ ، لكن منها المألوف ، الحميم ، تفيض بحيوية غامضة ، أتخذ الوضع عينه الذى لزمته فى ذلك القطار السويسرى ، الوثير ، المرتب ، الأنيق ، المندفع عبر الليل بسرعة تطيل علىّ الأمد .

***

السهوب

كلمة موحية ، أمضيت سنوات أحسها ولا أمسك بجوهر معناها إلى أن ولجتها عاشقاً ، مستغرقاً ، لفظ يستدعى إلىّ الخلاء ، وهذا له عندى النخيل حتى وإن بدت كثيفة ، متقاربة ، والتطلع عن ذرى الجبال إلى الأفق المنبسط، غير المدرك .

بدأ الأمر من مدينة موسكو زمن الاشتراكية ، وكان ذلك فى سبعينات هذا القرن ، عبرت ساحة فسيحة ، باقية عندى من خلال لونين ، أسمر للأرضية ، وأخضر فاتح طلاء جدران المحطة سلافية الحضور ، ما من موضع أعاد إلىّ خطوى الأول فوق الأرصفة مثل ذلك البناء الذى يمتد إلى القرن الماضى .

مقدم على أطول رحلة عبر البر ، أقيم خلالها خمس ليال ، ستة أيام ، فى قطار يصل ما بين موسكو وبكين ، عربات عديدة ، لم أحصها ، لكن مظهرها الخارجى يوحى بطول السفر ، فى المقصورة المجهزة لإقامة اثنين التقيت برفيقة الرحلة ، قابلتها قبل يومين فى مبنى اتحاد الكتاب ، بنية

بولندية ، شاعرة ، على حدود الخامسة والثلاثين ، لها ديوان مطبوع ، هادئة الحضور ، وجيزة التواصل ، شاردة النظرة ، وصلت قبل رنين الجرس بثوان، تطلعت إليّ لاهثة ، باسمة ، قالت إن صعوبة الحصول على عربة أجرة سبب تأخيرها ، ثم قالت : لا أقدر على تخيل وضعي لو أن الموعد فاتني ، ثم قالت إنها رحلة تحلم بها منذ سنوات .

الحق أنني كنت مرتبكاً ، لا أدرى بالضبط ما ينبغي أن أفعله ، وماذا يجب أن يصدر عني ، إنها المرة الأولى التى أقيم مدة بصحبة أنثى لا تربطنى بها صلة من قبل فى هذا الحيز الضيق ، ستبدل ملابسها وتغسل وجهها وتقيم كافة طقوسها على مقربة وبمرأى منى وفى متناولى ، أعرف أن هذا عادى هنا ، فى أوروبا كافة ، لكنه مستجد عليّ ، لاحظت عفويتها ورصدت إقبالاً طفولياً منها على الكافة ، سألت أى سرير تفضل ؟ العلوى أم السفلى ؟

استقرت فوق حافة التحتى ، قعدت إلى جوارها ، يتخذ الفراش هيئة المقعد المستطيل إلى أن تحين لحظة النوم يتم تغيير وضعه ، قامت تتطلع عبر النافذة إلى الملامح المتراجعة للمدينة الضخمة ، مترامية الأطراف ، الموزعة مناطقها على غابات كثيفة الخضرة ، تتشابه الحركة عند بداية الرحيل ، كذلك عند الوصول ، السرعة المتغيرة تدريجياً ، المرور السلس فوق فواصل القضبان .

قالت إنها سافرت إلى أماكن عديدة من العالم ، إلى افريقيا ، بالتحديد إلى مالى وغينينا وكينيا والسودان وأقامت فى مصر ، والدها كان يعمل فى السفارة ، كانت صغيرة لكنها تذكر هذا البلد الجميل وتتمنى العودة إليه .

أصعب ما فى العلاقات البدايات وأمتعها أيضاً ، يستعيدها الإنسان على مهل فيما بعد وربما لا يرى ما عداها ، بل يمكن القول إن كافة ما يلى ذلك يتحدد خلالها . مدخلى تلك السنوات المنقضية ، بدءاً من تعبيرى عن سرور حقيقى وراحة نافذة لتلك الصدفة التى تجمعنا إلى تذكيرها بتفاصيل شتى ، وخلال ذلك كنت أترقب تلك اللحظة التى تتخذ فيها الصلة مساراً خاصاً ، هنا تتوافق شتى الحواس وتنشط فاعليتها ، تتأهب لتلقى الإشارة ، ربما تغير درجة فى الصوت ، أو نظرة عابرة ، أو إيماءة ، وعندما قالت :

"لقد قرأتك .."

انتبهت ، تم استنفارى ، ثمة ذبذبة لا تخفى .

"طبعاً .. كنت أريد أن أتعرف على من سيرافقنى الرحلة ، قرأت قصصك المترجمة إلى الروسية .. إننى أتقنها .."

"لى رواية مترجمة إلى الروسية ، للأسف ليس لدىّ نسخة منها الآن .."

أخرجتها من الحقيبة ، دفعتها أمامى

"أريد توقيعك .."

قلت ضاحكاً إننى أفضل تأجيل ذلك إلى مرحلة متقدمة من الرحلة ربما أكتب ما يتجاوز التوقيع ، ابتسمت ، إنها تلك اللحيظة المؤهلة لوقوع التماس واستشراف الخصوصية وبدء الفاعلية ، تطلعت عبر النافذة ، تزايدت السرعة ، هذا قطار راسخ ، قوى ، هدّار على الطريق ، مع طى المسافة تنقضى الأوقات أسرع ، تمرق المحطات ، كافة المبانى متشابهة إنه نقاط التلاقى بين الثابت والمتحرك ، ثمة شبه بمحطات الصعيد ، خاصة التى

تتقدم المدن الصغيرة ، الأرصفة الممتدة ، المظلات الخشبية القديمة ، جوهر المحطات وسماتها واحد ، ماذا يميز محطة عن أخرى ؟ إنه الاسم وما يخص الفرد ، سمالوط مغايرة لبنى مزار ، لملوى ، أما طهطا فلها وضع خاص عندى .

يستمر تدفق القطار الروسى الممتد عبر النهارات والليالى ، المقصورة مدثرة بالعزلة ، الجلد العتيق ، واللون الزيتونى الغامق ، وحضور الأنثى ، كانت مستكينة ، حاضة بهدوئها وتطلعها الناعم صوبى ، وباتجاه نقطة أخرى ، ثمة حول خفيف فى عينيها يمنح ملامحها تلك الذاتية ، اقتربت منها ، ملست على شعرها المقصوص ، القصير ، المبسوط ، الناعم ، قالت مطرقة متطلعة إلى أسفل حيث الأرضية المندفعة بقوة وطاقة اتخذت سرعتها ومداها الأقصى ، هكذا خيل إلىّ .

"بهذه السرعة ؟"

لم يحو جوابها رفضاً أو استنكاراً ، إنما تساؤلاً هادئاً ، ناضجاً ، مدركاً لما يمكن أن تصير إليه الأمور ، قلت باسماً :

"القطار لا ينتظر .."

قالت إنها تعرفنى إلى حد ما من خلال ما قرأته لى ، ولكن الصلة بالإنسان شىء آخر .

صحيح أن وجودنا فى حيز متحرك حاض ودافع ، لكن عند بلوغ تلك النقطة تمهلت ، كنت راغباً فى أن أحيط بقبس من أحوالها وأخبارها ، صحيح أنها فى جملتها وصلت عندى ، ليس لظرف انفرادنا ولكن عندها

شيء خفى لا يبين أحدث داخلى مويجات وأصداء

سعيت إليهـا بهدوء ، قالت إنها دائمة الأسفار ، تعـمل بالترجمة طوال العام ، تدخر مالاً وتقـصد بلداً بعينه ، هذه الرحلة بالقطار إلى الصين ترتب لهـا منذ عـام مضـى ، قرأت عن المحطـات ، عن المدن التى سيتـوقف بهـا القطار ، وعن آسـيا الوسطى ، بدءاً من عـشق آباد سيـتبـعون طريق الحـرير القديم .

كنت أتطلع إليـها بـهدوء ، أسـيل باتجاهـها مـتئـداً ، كنت أرقب توالى الضوء على ملامحها والظلال المارقة ، كـان الأمر مختلفاً عن خلوتى النائية بإيزيس السويسرية ، عندما جاءت إلى لوزان وأقامت فى الفندق نفسه ، بل فى نفس الطابق ، عندما رجعت فى العاشرة ليـلاً قال موظف الاستقبال إن السيدة إيزيس تنتظرك .

كانت فى الغـرفة الضيقة ترتدى قـميصاً قـصيراً شفافـاً ، وكانت تمسك بكتاب عن معبد أبيدوس ، راحت تتحدث عن احتفالات القوم بأوزيريس، مـا يشبـه المولد الكبيـر ، تفارق نـظراتها صـفحـات الكتاب لتـتحـدث عن وحشية علماء المصريات الذين يتعاملون مع الآثار القديمة كما يتعامل أطباء التشريح مع الجثث ، كان جسدها متـاحاً لى ، تميل فيبدو نهديها المشرعين ، عبرت بهـما الخمسين وطراوتـهما وتماسكهـما مكتملين ، فى الليلة الأولى لرؤيتى لها ولقائى بها كدت أهفو توقـاً غير أنها تمنعت ، وها هى قادمة من أجلى لقضاء عطلة نهاية الأسبـوع بصحبتى ، لكن أدركنى هذا الحال الذى عرفته مرات ، فبمجـرد بلوغى الأسباب يحل همودى ، ويكتمل تبددى فلا أشـرع إلا فى الانزواء وطلب الانفـراد ، هذا مـا انتـهى إليـه أمـرى هناك ،

حاولت أن تستبقـينى ، أطالت تقبيلى ، لكننى أبديت السأم والإرهاق ، فى اليوم التالى تناولت إفطارها بصحبتى ، قالت فجأة إنها تفهم ، وإنها مغادرة الآن .

لا أعرف أخبارها ولا أى شىء عنها ، طوتهـا تلك اللحظات الموارق ، المندثرة التى تلوح أحياناً ، وتغيب معظم الطريق إلى أن تتلاشى تماماً ، الأمر مختلـف الآن ، توقى متصاعد تجـاه هذه الشاعرة البولنديـة ، قرب الغروب ألمت بالكثيـر عنها ، واستعـدت معها ما تعـرفه من ألفاظ عربيـة بقيت فى ذاكرتها من أيام إقامتها فى مصر .

اكتمل أول غروب حوالى السابعة ، هكذا تشير الساعة حول معصمى ، إنه توقيـت القاهرة أيضاً الـذى أحتفظ به دائمـاً وأضيف إليـه أو أنقص منه عند بلوغى مـواضع نائية ، توقيت مـوسكو لا يختلف ، تقع المديـنتان على خط طولى واحد تقريباً ، لكن ماذا عن تغير التوقيت مع الاتجاه شرقاً بسرعة تتجـاوز المائة كيلو متر فى السـاعة بعـشرين أو ثلاثين ، مع انطواء المســافة يتغيـر الزمن ، عندما حان وقت النوم صعدت إلـى العلوى ، إذ أنها فضلت التحـتى ، أطفأت الأضواء الخـافتة ، وكان القطار يمـر بقرى صغيـرة ومدن شاحبة لا ينبـعث منها ما يكفى من الضوء لتبديد العـتمة ولو للحظة ، قلت مداعباً :

"إننى أراك ..."

أجابتنى بإيقاع طفولى :

"وأنا لا أراك .."

رغم ضجيج العجلات والقضبان وتغير الإيقاع مع أصداء الطريق وعبور الجسور الحديدية أو الحجرية ، وتلك الفواصل التى لا تتبدل عبر كافة القطارات ، إنها الفراغات الحامية ، الحافظة . لا بد من إيقاعات تريح الامتداد ، فلو اتصل لما صار الطريق وما أدى إلى شيء .

كان الفراغ عبقاً بها ، حضورها رهيف ، هفهاف ، مضيء وباعث على السلوى وانتفاء الكدورات ، إنها المرة الأولى التى أغمض فيها عينى داخل قطار ، أطول مسافة قطعتها إلى أسوان ، ست عشرة ساعة أمضيتها جالساً إلى المقعد ، أغفو ، وأعبر الرؤى ، ويتداخل عليّ الحضور بالغياب ، لكن أن أرتدى جلباباً وأتمدد وأتوسد وأمد الغطاء الواقى فهذا ما لم أتصوره وما لم أعرفه من قبل ، بل إننى كنت أصغى بدهشة إلى عبارة "قطارات النوم" ولكن ما من خيار أمامى ، المسافة شاسعة ، والأيام عديدة ، يمكن للأرق أن يدركنى فى البداية ، لكننى مستسلم للوسن حتماً ، أخشى ما أرهبه أن يضطرب نومى فى تلك الأسفار البعيدة فينال الوهن منى وتدركنى المسغبة، لم أكن عرفت الطريق بعد إلى المستشفى ، وإلى غرفة الجراحة ، وما سأمر به واصفه تفصيلاً فى مواضع أخرى ، ولكننى كنت مطلعاً على ما عندى ، منتقل به من يوم إلى آخر ، ومن موضع إلى موضع ، أما العامل الثانى المقض لنومى فوجود تلك الأنثى على مقربة ، إنها دانية ، حاضرة مؤثرة . ولو قص عليّ أحد احتمال انفرادى هذا منذ عشرين عاماً أو أكثر لتولهت لمجرد الخاطر ، واتقدت للوصف ، ولكننى هادئ والليل ما زال فى بدايته ، ولم تدم يقظتى ، بل إننى عبرت ذلك الحاجز الخفى ما بين اليقظة والنوم ، الأمر ميسور ، ربما ساعدت هدهدة العربات ، الإيقاع المنتظم والمتسق مع

الليل ، قسماته أوضح ، ربما لشمولية الصمت ومثول النجوم فى الأفق ، وانطواء المدن على ذواتها وخلاءاتها لحظة مروق القطارات السريعة التى لا تلقى إليها بالاً ، فلا تتوقف ولا تتعامل معها ، لا تأخذ ركاباً ولا تمنح ، يصبح الصوت المنبعث من احتكاك الحديد بالحديد شرطاً للتكيف ، إطاراً للحواس ، الإيغال فى النوم أسهل ، لكن عندما توقف القطار استيقظت ، بقيت متمدداً ، متطلعاً إلى السقف القريب منى ، المنحنى نحوى ، تطلعت إلى الساعة التى لا تفارق معصمى .

الرابعة وعشر دقائق

تبدأ الآن شعائر صلاة الفجر فى مسجد مولانا الحسين ، تسرى فى الميدان القصى معالم تدبير الناس لأمورهم قبل وفادة نهار جديد ، لكن .. أى توقيت الآن فى هذا الموضع الذى بلغته وأجهله ؟

ما اسم المحطة

ما المكان ؟

ما الزمان ؟

تصلنى أصوات خافتة ، المقصورة عازل جيد للصوت ، قمرة من السكينة ، أصداء الأحاديث فى الخارج تعمق الصمت ولا تبدده ، أحرص ألا أتقلب حتى لا أزعجها ، لم أتردد على دورة المياه لإفراغ مثانتى تماماً قبل نومى حتى لا أفتح الباب وأغلقه ، ضغطت أمرى ، تجاوزته وهذا نادر، لم يكن ممكناً اطلاعى على التوقيت هنا إلا بسؤال أحد الركاب وهذا صعب لأننى لا أعرف الروسية ، هى الآن نائمة ، لو أننى لمحت ساعة المحطة ،

ستائر النافذة مسدلة .

صرير العجلات ، التراجع اليسير الذى يلى فك الفرامل تمهيداً للتقدم ، لمفارقة الرصيف ، لاستئناف الرحيل حتى الوقفة التالية ، فى رقادى هذا تمر بى لحيظات من أسفارى ، أصحو ، أغفو ، تلك محطات متباعدة ، واحدة من خط قبلى ، أخرى قرب النيل ، أغادرها وحيداً ، رصيف منعزل ، بلد ما لا أذكره ، ليس فى موطنى ، بلغته ليلاً فى أحد أسفارى ، لا أقدر على استعادة اسمه ، تداخلت علىّ الأماكن ، زعقات القطارات البعيدة ، العابرة خط الأفق الدائرى ، دائماً تثير الحنين الممض ، ملامح متعاقبة ، بعضها طالعته فى لحظة ما مقترنة بمكان ما ، مشاهد لا أستوثق منها ، ربما صادرة عنى ، أرصفة مستلقية ، إيقاعات خطى فوقها ، مشى واثق ، ركض متعجل، بلوغ الأبواب مثير لتسارع الأنفاس ومظهر للراحة والظفر ، فى معظم الأحيان يعقب الدخول تلفت وتحديق فى أولئك المجهولين له .

يتداخل تقدم القطارات بمسير قطارات أخرى ، كل منها صنو لضوء معين ، هذا أخضر غالب عليه زرقة خفيفة للنخيل وأشجار الجنوب كافة ، وهذا أخضر سندسى مضىء ، قطيفى ، محيط بالسرعة السهمية التى اندفعت بها تجاه مدينة اكسفورد الإنجليزية ، محطات تشى بعلاقة ما بمبانى وجسور الصعيد ، ملابس العمال والمفتشين ، تندمج حللهم الزرقاء بقرميد المبانى الحمراء ، يتقاطع مع لون أصفر مفضل عندى ، مريح لى ، إنه الأصفر الذى ناله مس من أحمر ، غمرنى عند سعيى عبر الأراضى الشمالية، المنخفضة ، وتعلق حركة فتاة مكتملة الصعود ، متينة التكوين ، شاهقة الملامح ، طازجة الحضور ، تمسك كتاباً ، تتحرك من مقعد إلى آخر

فى ممر من ضوء أصفر يفيض بعصارة الحياة مع أنه لا يذكر إلا مقترناً بالتعب ، بالوهن ، بالموت ، لكن المعنى والمقصود درجة معينة منه ، ذلك أن لمعة الذهب درجة من الصفرة ، كذلك صهباوية الخمر ، غير أن أروع امتزاج بين الأبيض الحليبى ، الفائر والأخضر الزيتونى على جدران العربة الوثيرة كان مؤدياً إلى أرق ما وقعت عينى عليه من ملمس إنسانى ، بشرة ناطقة ، شقرة تبراوية وزغب قمحى كاسى ، كان ذلك عندما قصدت ، قرطبة ، وهذا فصلته فى دفتر تدوينى الأول ، فليراجعه من يرغب ، أما الياقوتى المفضل عندى فغمرنى وقته خلال انتقالى بصحبة رفيق عزيز وصاحب حميم ما بين بوردو ومونبلييه الفرنسية ، ركبنا قبل انتصاف النهار، شمس حانية ، وحقول ممتدة ، وأشجار كاسية ، وقلاع منتظمة ، رصت أحجارها البيضاء بانتظام . العربة مصقولة المظهر ، رغم عتاقتها إلا أنها باهية ، تجمع ما بين سرعة مرغوبة ورصانة توّاقة ، وعند تناولنا الغذاء شربنا الياقوتى المصهور المدثر فسرى دفءٌ إلى أوصاله ، وامتزج الشراب بلون العربات المؤثر ، المدثر ، فاكتمل الأمر .

خروجى من الفندق القديم المواجه لكنيسة تشهق أبراجها فى الفراغ ، مشرفة على ما عداها ، قصدنا المحطة سيراً على الأقدام ، أنا وصاحبى الألمانى الأصل ، ولما تسارعت دقات قلبى وركضت حتى تزايد لهاثى ، أصر على حمل حقيبتى فتنازلت عنها وعندى حياء ، حتى إذا لحقنا بالقطار المنتظر ، ابتجهت بألوانه البرتقالية وتنوعاتها المرحة ، وعندما امتزجت خضرة الأشجار الكثيفة المتراجعة أيقنت بثبات ذلك عندى، غير أن ما لا يُمحى قط فثمة لونين، هما أساس وأصل، وما عداهما فرع مشتق.

الأبيض

الأسود

الأبيض لفراغـات العربات المتجهـة إلى قبلى ، أما الأسـود فللقاطرات محمليـة المطلع ، مهيبـة الدخلة والخرجة ، وكلاهمـا لا غنى له عن الآخر ، فلا يكون هذا إلا بذاك ، امـتزاجهـما مولـد للرمادى . لانتفـاء الحد ، وهذا قطار عرفته ولا أعى منه شيئاً ، ومـثله عندى كثير ، لكن ما أعنيه ذلك الذى اتخـذته أمى بصحبـة أبى ، من مصـر إلى طهطا وهى حـامل بى ، قاصـدة جهينة لترعاها جدتى عند مجىء المخاض ، لم تكن فى القاهرة إلا وحيدة ، مفردة ، بعيدة عن كل عون ، هذا لم أعرفه .

درجـة الضوء مـوازية ، مماثلة لـتلك الأصبـاح البـعيدة ، تتـوافـد علىّ المرئيات ، عندما انتـبهت إلى تغير الضوء تطلعت إلى النافذة ، فـوجئت بها واقفـة ، مولية ظهرهـا ، تلتصق بزجاج النافـذة المزدوج ، كل المرئيات تمرق إلى الوراء ، قميص نومها الحريرى الأصفر الممتزج بالبياض المحكم يكشف عن استدارتين منزلقـتين ، ناعمتين لكتفين تفـيضان بثاً وإشارة ، قـصير إلى درجة تسمح بظهور ربلتين مـرتويتين ، مؤديتين إلى ردفين عريضين ، وسط بين الامـتلاء والنحـافة ، رحت أستوعب تـضاريسـها على مـهل ، راضيـاً بهـدوئى المسـتكين ، واثقـاً من حلول تلك اللحظة ، غيـر مـستـجيب إلى نداءات داخلية حاضـة ، محرضة بسبب سـرعة انقضاء الوقت وتدفقـه عبر تقدم القطار الطويل المتجه إلى الشرق .

على أى حال لم يتأخر الأمر طويلاً ، إذ حـدث فى الساعة الواحدة بعد

منتصف نهار اليوم التالى الذى نمضيه معاً أن امتزجت أطرافنا فى قبلة المفتتح ، وبذلت قصارى جهدى فى احتوائها بشفتى ، لم تعانقنى ، إنما تعلقت بى ولذت بها ، غير أنها تراجعت قليلاً ويدى تستكشف نهديها المؤثرين ، الصلبين ، النافرين شرعاً ورسماً ، قالت :

"تريدنى ؟"

أطبقت عليها بفمى ، تعانق لسانينا ، ثم عادت لتتراجع وتقول :

"أريد أن أقول لك شيئاً .."

أنتبه إلى لهجتها ، صوتها طيب ، حنون ، منان ، لا بد أنها تخفى أمراً ، تتطلع إلىّ ، تهمس :

"أنا عذراء .."

يرتفع صوتها قليلاً ، أنتبه إلى تغير صوت العجلات ودرجة الضوء ، يبدو أننا نعبر نفقاً أو ممراً ..

"ومصرة أن أظل عذراء .."

تواجهنى تماماً

"حتى النهاية"

كنت راغباً فى استكشاف أغوارها ، واجتياز دروبها ، قالت إنها فى الثامنة والثلاثين ، وأنها عرفت الرجال فى الثامنة عشر

"سن متأخر لفتاة أوروبية .."

"نعم .. كنا فى رحلة ، وتعرفت عليه ، كان يكبرنى بسبعة أعوام ، إنجليزى .."

لسبب ما لم توضحه بقيت عذراء واستمرت علاقتهما ، ثم تعرفت إلى أستاذ جامعى من جنوب أفريقيا ، هام بها وطلب الزواج منها ، لكنها اعتذرت ، اقتنع بحجتها أنها تريد أن تلف العالم وأن ترى أكبر مساحة منه، لم تتجاوز علاقتهما القبل والأحضان ولحس جسدها بلسانه ، لكنه لم يقترب من بواباتها المؤثرة ، تمنى ذلك لكنها أبت .

"هذا تحذير ..؟"

قالت ضاحكة :

"يمكنك اعتباره كذلك .."

أقبلت عليها راغباً ، عندى حض من داخل يتعلق بنزوعى وطاقتى الحافظة ، المتولدة ، ودافع من خارج يتجسد فى يمامتيها ، وإقبالها وإتقانها الملاطفة ، قبلت كافة ما طلته منها ، وعندما انفرجت واحتويتها وتأهبت لاحتوائى كدت أوقن بلوغى منها ما لم يصل إليه أولئك الذين عرفوها قبلى ، فكرت فى غرابة الظرف الجامع ، والانفراد فى الحيز غير الثابت ، تلك الحركة المستمرة ، عناقنا واتحادنا فوق عجل يطوى مسافات من أراضٍ لا أعرفها ، لم أبلغها ولن أصل إليها ، أمر بها ولا أتوقف عندها ، تتردد فى ذاكرتى أسماء تشى بدلالات تستعصى على التفسير ، لها خلفيات وتواريخ وأزمنة وشخصيات ظهرت وغابت وموسيقى وقصائد وحكايات متوارثة وخبز له خصوصية وأبسطة من صوف مصبوغ وفراغات تلوح

خالية وما هى كذلك . القفقاس . بحر قزوين ، قرة قوم ، مرو ، كوش،جيحون ، سيحون ، سمرقند ، بخارى ، قنديل ، البامير ، طشقند ، فرغانه ، شان ، نيان ، قره جهر ، تورفان ، بيشى باليق ، خوتاه ، يرقند ، خيو ، عشق آباد ، كرمان ، أصفهان ، شيراز .

لم أعد فى عناقها ملتزماً بالأماكن التى تعلن عنها اللافتات ، كذلك حاد القطار المندفع عن القضبان الممتدة ، المرسومة ، المؤطرة ، المحددة بأعمدة الهاتف المتشابهة ، الشىء الوحيد الذى لم ألحظ تغيراً يلفت النظر بين ما وقع عليه بصرى أول مرة على جانبى خط الصعيد ، وما رأيته محاذياً للقطارات السريعة الطاوية للمسافات بالطاقة المتولدة من مصادر شتى ، حركة العربات الرتيبة ، المستقرة ، المنبئة بالتمام ، الاهتزازات الصغيرة ، التغير السريع الناتج عن المرور فوق جسر أو عبر نفق أو قرب مبنى ضخم ، ثم استئناف الإيقاعات المؤدية ، دورات العجلات المفارقة باستمرار ، حتى وقوفها استثنائى ، فوق هذه الدورات التى لا يمكن للعين رصدها ، التى لم يحصها أحد ، كان عناقنا متصلاً ، وكنت أحاول النفاذ ، غير أننى لم أقدر إلا على طرق بواباتها ، كل ما يؤدى إليها موصد ، كل ما يصدر عنها مكتمل . آهاتها ، شداتها وضمّاتها وآهاتها المدغدغة للحواس الكامنة ، غير أن هذا كله بدون توالج ، أو اتحاد ، تناغم أتم ، لكن بغير اندماج ، كأننا نؤدى مشهداً فى مسرحية أو تمثيلية ، يوحى للناس بالتواصل ولا وصال ، فى لحيظات أكاد أمسك بها ، أدركها ، أوقن أنها تنتمى إلىّ تماماً لكنها سرعان ما تفلت ، أتبين ما يفصلنا ، عيناها مغمضتان ، نشوتها مكتملة ، رغبتى متأججة ، لا أبلغ المدى ، ولا أقدر على الاستكانة ، وكلما

أصغيت إلى صوت العجلات ازداد وعيي بالمفارقة ، بطئ الأرض ، بقراءة ما يمر بي ، وإذ أوشك على الهمود ، تدر أصابعها الجوّاسة ، القادرة على النفاذ عبر مسام رأسي وصدري وترائبي ، أنتفض مرفرفاً ، أدفع بحضوري الجسدي تجاهها ، بسنواتي المولية ، العجلات ، القضبان ، الصفير العابر للمدن الصغيرة .

العياط ، البدرشين ، الواسطي ، اللاهون ، بني سويف ، ميدوم ، مغاغة، بني مزار ، مطاي ، سمالوط ، المنيا ، أتليدم ، أبو قرقاص ، ملوي ، ديروط ، القوصية ، منفلوط ، إنطاكية ، أزمير ، الأناضول ، اللاذقية ، أبو تيج ، طهطا ، المراغة ، جزيرة شندويل ، سوهاج ، دراو ، الأقصر ، أسوان ، بودابست ، حلب ، قابس ، مراكش ، فاس ، أسوان ، قرطبة ، غرناطة أشبيليه ، دمشق ، موريليا ، أبو قير ، الدمازين ، الخرطوم ، قُصير ، أسوان ، الشلال الأول ، الثاني ، الثالث ، الرابع ، كليفلاند ، دترويت ، نيويورك ، أوتاوا ، أدنبره ، بالرمو ، فوه ، دسوق ، مطوبس ، رشيد ، دمياط ، بورسعيد، انفلور ، السويس ، سينجيانغ .

لافتات ، لغات مختلفة ، أماكن توقفت وأقمت بها ، لا أذكر أسماءها فينتفي وجودها ، من لا اسم له ، لا وجود ولا معنى ، أعبرها ، لا أقدر على التوقف ، أو الاستكانة ، العناق مستحكم والضم لايدع فرصة للإفلات ، وإذ أتمنى الابتعاد ولو للتأمل من مسافة لا أزداد إلا اقتراباً مع أنها تأبى ولا ترضى .

تمرق القاطرات على الخط المضاد ، المجاور ، فلا تحدث إلا الهزة الأولى ولا تخلف إلا الصمت ، موجودة وغير موجودة ، يدخل مغيب اليوم

الثانى، رائحتها ذكية ، هشاشتها تأسرنى ، لا أقدر على بلوغها مع أنى أحيط بها وتأبى الانفصال عنى .

يتغير الضوء ، تمرق الأماكن ، تتوافد عليّ قطارات من الضوء ، فى تعددية قوس قزح ، لكنها مفرودة ، منبسطة ، غير منحنية مثله فى طواعيته لتحدب الكون .

من ضوء إلى ضوء ، من درجة لون إلى أخرى ، أتدرج ، أترقرق ، أتململ وأنثنى ، أنضجر ، أعاود المحاولة غير يائس من بلوغها وهى راقدة ، مستسلمة ، ذراعاها حولى لكنها لا تزداد إلا بعداً قصياً يدركنى وهن ، يحتوينى ضوء ، درجته غسقية ، لكن لا أثر لتدرجات الاحمر أو الأصفر .

بالتأكيد أزرق ، لكن أى درجة .

فيروزى ؟

ممكن .

سماوى ؟

بالتأكيد .

زرقه بحر فى مواضع عميقة ؟

كأنها المواجهة الأولى مع البحر خلال رحلتى إلى أبى قير ، زرقة أبدية كانت عالقة بى ، تضمنى وأضمها ، صارت كلها إليّ ، ورحلت إليها كاملاً ، مكملاً .

بالقطع . لكن بداخله ضوء غامق ، غامق ، مستعصى على التصنيف ،

ينبع من أفق هادئ ، راسخ ، ساكن ، ممتن ، طويل الاستكانه ، قاطرة متدفقه من لازوردية ملساء ، مزججة اللمس ، خالية من أى مسام ، لا ظل، لا تعوجات ، لا فوق ، لا تحت ، لا قبل ، لا بعد ، كافة ما أعرفه ، ما بلغته، وما تمنيته ، ما تقت إليه متضمن ، محوى ، لكن التفصيل عسر ، وكافة محاولاتى للشروع ، للنزوع هدأت ، صرت مترقرقاً عندى نشوة لا توصيف لها ، مقترنة بذلك اللون ، أمتثل ، أترقب ، أتطلع ، قابلاً لكل وضع ، ملتقياً كل وقع ، قاصداً كل وجهة ، غير مستفسر عن محطة تالية أو سابقة ، يتساوى ما تسفر عنه الحركة ، وما يؤدى إليه الثبات ، أترقرق متنغماً بحضورها المندمج بهذا اللون ، وعندما أدركته مرة أخرى ، فى موضع مغاير ، زعقت داخلى ، منادياً ما يمت إلىّ ، منبهراً بهذه الزرقة الفريدة ، المعلقة ، المتدفقة ، المستمرة

"فى الأمر شىء .."

"فى الأمر شىء .. "

جمال الغيطانى

القاهرة ١٩٩٧

الفهرس